عنوان المجد

في

بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد

تأليف

إبراهيم فصيح بن السيد صبغة الله الحيدري البغدادي

ت1882م

دار الحكمة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

DAR AL-HIKMA

Publishing and Distribution



دار الحكمة

للطباعة والنشر والتوزيع

88 Chalton Street London NW1 1HJ. Tel: 0171 - 383 4037 Fax: 0171 - 383 0116

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تاهت العقول في بيداء معرفة كنه ذاته المقدسة، وعجزت الإفهام عن درك حقائق مصنوعاته المؤسسة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، المبعوث رحمة للعالمين بمعجز آياته، وعلى صحبه الذين عمروا البلاد بالآثار الحسنة، واقتفوا اثر دلالاته.

أما بعد، فيقول الفقير المحتاج إلى عفو ربه، السيد إبراهيم فصيح بن السيد صبغة ا لله الحيدري البغدادي، وإني قبل هذا سافرت من بلدي مدينة السلام إلى دار الخلافة قسطنطينية، حماها عن كل سيئ رب البرية. ومنها إلى مصر، والحجاز، وعدت إليها ثانية لأستوفي الوقوف على بدائعها بالحقيقة لا بالمجاز، ثم خرجت منها إلى البلاد السورية، وبعض البلاد الأناضولية. فاطلعت على تلك البلاد وأحوال العباد، ثم رجعت إلى بلدي مدينة السلام، ذات الثغر البسام، ومكثت فيها بين أهلي وأحبابي غير قليل من الأعوام، إلى أن رمتني الأقدار بسهام النيابة إلى البصرة، المسماة بخزانة العرب وقبة الإسلام، فلما وردتها ورأيت ما فيها من عجائب الأنهار، وغرائب النخيل الأشجار المتنعة العدّ والحصر، مع ما فيها من المدّ والجزر في اليوم مرتين، بحيث تمتلئ الأنهار والسواقي وكل عين. وقد آلت إلى الخراب، فلم يبق منها إلا الاسم، واندرست آثارها، فلم يبق منها إلا الرسم والوسم، وأحببت أن أؤلف كتاباً في بيان أنهارها، ونخيلها، وأشجارها، وبيان بيوتها القديمة، من ذوي الثروة العظيمة مع بيان

أحوال بغداد. وإن كنت قبل هذا قد الفت في دار الخلافة أحسن الكلام في مدينة السلام، إلا إني أردت أن أجمع أحوال البلدتين في هذا الكتاب، وأحوال أراضي نجد، وقبائله وما يليه من البلاد، مع تصدير الكتاب ببعض ما ذكره الحكماء في سياسة الملوك، فشرعت في ذلك ورتبته على مقدمة وثلاثة مسالك، وخاتمة، وسميته "عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد".

توطئـــة

اعلم أن من حكم ا لله تعالى وضع وجود السلطان في الأرض، أن ا لله تعالى جبلَ نوع الإنسان على عدم الإنصات لما خلق فيه من القوة، الغضبية والشهوانية، الموجبتين للفساد في العالم، واختلال نظامه. وبوجود السلطان يدفع الفساد ويضبط النظام، فمثل العالم بلاسلطان كمثل الحوت في الماء، الكبير يبتلع الصغير والقوي يهلك الضعيف، ولما لم يكن للعالم البحري سلطان قاهر لم ينتظم أمر معاشهم، ولم يتهنوا بالحياة. وهذا معنى قول بعض العلماء المتقدمين: "لو رفع السلطان من الأرض ما كان لله تعالى في أهل الأرض من مراد". يعني أن ا لله تعالى قد تعلقت إرادته العليا بتكليف الناس بالأوامر والنواهي التي اوحاها إلى نبيه ﷺ لتكون باعثه لثواب بعض، وعقاب بعض، فلو رفع السلطان من الأرض ذهب كل إلى ما شاء، وحصل الرج، وأختل نظام العالم. فيلزم من ذلك أن لا يكون له تعالى مراد في أهل الأرض من التكليف بل يكون خلق الناس كسائر الحيوانات، وهو محال. ومن حكم ا لله تعالى في إقامة السلطان في الأرض إشارة إلى وحدانية ا لله تعالى، فإنه كما لايستقيم الأمر بتعداد السلطان، بل يختل بالتعدد، كذلك لا يمكن وجود هذا العالم بدون إله واحد، منفرد بخلقه، وإيجاده من العدم، وإتقانه على أبدع وجه "لو كان فيهما آلهة إلا ا لله لفسدتا". وهذا معنى قول علي رضى ا لله عنه وكرم ا لله وجهه أمران جليلان لايصلح أحدهما إلا بالتفرد، ولا يصلح الآخر إلا بالمشاركة، وهما الملك والرأي. فكما لا يستقيم الملك بالشركة لا يستقيم الرأي بالتفرد. ثم أن السلطان كلما زادت شوكته وصولته وتمت إستقامته أعتدل مزاج رعيته، وتم أمره. وقد مثل بعض الحكماء للسلطان الكثير الشوكة والصولة والاستقامة مثلا حسناً، وهو: أن مثل السلطان كمثال

بيت فيه سراج، وحوله أنـاس مشتغلون بصنـاعهم، فبينمـا هـم في شغلهم طفـئ السراج فكفوا أيديهم عن الشغل، وتعطلـوا عـن صنـائعهم، فتحركـت الحيوانـات المؤذية لما رأت تلك الظلمة، كالحيات والعقارب، ونهض اللص بحيلـة للسـرقة، وهاج البرغوث مع حقارته، وظهرت إمارته الضارة، فكذلك السـلطان إذا كـان ذا شوكة وصولة واستقامة كانت منافع العالم عامة، فكانت الدماء محقونة، والأموال مصونـة، والأعـراض محفوظـة، والأعـداء مخفوضـة، وخفـت الأشـرار، وظهـرت الأخبار، واستقام أمره بلا التماس، وعظم في أعين الناس. وإذا اختل أمر السلطان وضعفت صولته قلت شوكته، ولم تكن له استقامة دخل في العـالم الفسـاد، وفـاح فيح أهل القبح والفساد، وخف في أعين الناس روح يظهر التناقض في أمور دولته، ولو جعل قهر السلطان، وكذا جـوره حـولاً كـاملاً في كفـة المـيزان، وجعـل فسـاد الرعية وجورهم، وهرجهم ساعة واحدة في الكفة الأخرى مع عدم وجود السلطان، كان هرج ساعة أعظم وأثقل من وجود السـلطان، سـنقول هـذا سـر قـول الفضيـل "جور ستين سنة خير من هـرج سـنة". وقـال العلمـاء مـن السـلف والخلـف: إن استقامت لكـم أمـور السـلطان فـاكثروا حمـد الله تعـالى وشـكره، وإن جـاءكم بمـا تكرهونه وجهوه إلى ما تستوجبونه بذنوبكم، وتسـتحقونه مـن جرائمكـم، وأقيمـوا عذر السلطان لانتشار الأمور عليه، وكثرة ما يزاحمه من ضبط جوانب الملك، ورفع كيد الأعداء، وتوارد أمور شاقة عليه، متعذرة الرد إلا بالعناء، ولهـذا قـال بعـض الحكماء: هموم الناس صغار، وهموم الملك كبار، ومما نقلناه من المثـال عـن بعـض الحكماء هو تفصيل ما أجمله بعضهم، بقوله: لا تتوطن إلا بلداً فيه سلطان قاهر، وقاض عادل، وسوق قائمة، وطبيب عالم، ونهر جار. وقال حكماء العـرب: مثـل مضار السلطان في جنب منافعه مثل الغيث، الذي أحيي الله تعالى به الأرض بعـد موتها، فبث فيها آثار رحمته من النبـات، والـرزق فـأن الغيـث قـد يتداعـى بـه

البنيان، وتكون فيه الصواعق المهلكة لبعض الناس والدواب، وتموج به البحار، فتشتد به البلية على من فيها، فلا يمنع ذلك عن أن ينظر الناس إلى آثار رحمة الله تعالى في الأرض، التي أحياها وأنبت فيها النبات، والرزق والمنافع التي لا تحصى، فيعظموا نعمة ربهم ويشكروها، وإلا يلتفتوا إلى الأذية الخاصة، فأن العبرة بالعموم، وإلى هذا المعنى أشار بعض الشعراء بقوله:

لا ترج شيئاً خالصاً نفعه

فالغيث لا يخلو من العبث

وقد ضبط بعض الحكماء ضابطاً، فقال كل أمر جسيم من أمور الدنيا يكون ضرره خاصاً، ونفعه عاماً، فهو نعمة عامة. وكل شيء يكون نفعه خاصاً، وضرره عاماً فهو بلاء، ثم أن نسبة السلطان إلى الرعية كنسبة الروح إلى الجسد، فإذا صفت الروح من الاكدار مرت إلى الجوارح سليمة، وجرت بوصف سلامتها في جميع أجزاء الجسد. وإن تكدرت الروح وانزعجت، وفسد مزاجها، أعوج أمر الجسد، وأختلف أمر الجوارح بأسرها، وصار تكدرة منحرفة عن اعتدال المزاج، ومرضت الحواس، وتعطل نظام الجسد، وآل إلى الفساد والهلاك. لأن كل عضو حاسته تأخذ بقسطه من كدر الروح وصفائها. وقال كعب: مثل السلطان والإسلام والناس مثل الفسطاط في العمود والإطناب، الناس لا يصلح بعضهم إلا ببعض. ومع ما نقلناه عن الحكماء من أن السلطان كلما زالت صولته، وظهر قهره، كان أمره في رعيته أتم وأنفذ. فالذي ينبغي على ما ذكره أهل العقول المستقيمة أن يكون السلطان، مع إظهار قهره، رؤفاً، شفيقاً، حليماً، صبوراً، متأنياً غير عجول، ذا بذل وإعطاء، فأن من لا رأفة ولا شفقة ولا حلم عنده آلت رعيته إلى الضعف، وهو مؤد إلى ضعف السلطان، إذ لا سلطان إلا بالملك، ولا ملك إلا بالرعية، ولا

رعية إلا بالعدل، ولا عدل إلا بالرأفة وقلة الطمع، ومن لا يكون متأنياً في الأمور فقد يزل به قدم العجلة، إذ قد يظهر للمرء في بادئ نفسه ما هو حسن، ثم بأدنى تأمل وإمعان فكر يظهر قبحه كما قيل.

قد يدرك المتأني بعض حاجته

وقد يكون من المستعجل الزلل

ومن ليس له بذل وعطاء فقد تنصرف عن محبته قلوب الرعية، ويؤول الأمر إلى عدم الاستقامة. ومما يؤيد هذا ما نقل من أمر علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، مع معاوية بن أبي سفيان، فأن علياً لما كان ضائناً لبيت المال عن الضياع إلا بحق انصرفت عنه قلوب قريش وغيرهم، ومالت إلى معاوية لما عنده من بذل المال، وسعة الحال، مع علمهم بفضل علي ومقامه الأسنى على معاوية، ولقد أجاد من قال:

إذا ملك لم يكن ذا هبة

فدعه فدولته ذاهبة

ولكن، يجب عليه أن لا يكون مبذراً، ولا مقتراً، بل يعطي كل ذي حق حقه، من أهل العلوم، والوزراء، والأمراء، والكتاب، وسائر العونة، والغزاة، والفقراء والمساكين. لأن من يكون بخيلاً فقد انصرفت عنه قلوب الرعية، وصار مكرها عند الناس، وكان في معرض عدم الراحة وعدم استقامة أموره، وطالت عليه ألسّنة الرعية، فيكون موجباً لعدم نفاذ أمره، وحكمه على مقتضى ما يجب ويشاء. ومن أحسن التمثيلات ما قاله بعض الحكماء من أن مثال السلطان مثال النار، ومثال الرعية مثال الخشب، فما كان معتدلاً منها لم يحتج إلى النار، وما

كان اعوج احتاج إليها لتعديل عوجه، فإذا فرطت النار احترق الخشب قبل أن يستقيم عوجه، وان قلت النار لم يستقم الخشب، بل يبقى معوجاً، وإذا كانت النار معتدلة اعتدل الخشب، فكذلك السلطان في أطواره، وأحواله أن افرط اهلك الرعية، وأن فرط لم يستقيموا، وأن اعتدل اعتدلوا. ومما يليق بكل عاقل كامل أن لا يغفل عن خطر السلطان وبليته العامة، وعما يتطرقه من الأمور الشاقة في ضبط جوانب الملك، فيعذره ويشكره على أحواله، فأن السلطان لا يسكن خاطره ولا يصفو قلبه ولا يستقر لبه، فالخلق في شغل منه وهو مشغول، والرجل يخاف عدواً واحداً، وهو يخاف آلف عدو، ويضيق الرجل بتدبير أهل بيته ومعيشة نفسه، وهو مكلف بتدبير سياسة جميع أهالي مملكته، فكلما رتق فتقاً من حواش ملكه انفتق آخر، وكلما قمع عدواً اوصدت له أعداء، مع ما يعانيه من اختلاف طبائع الناس، وله نفس واحدة، ثم يسأل غداً عن جميعهم وهم لا يسألون عنه، وإلى هذا المعنى أشار ﷺ بقوله الشريف: "مالكم والأمراء لكم صفوا أمرهم وعليهم". وروي انه لما حج هارون الرشيد لقيه عبد الله العمري في الطواف، فقال له يا هارون، فقال: لبيك يا عم، فقال: كم ترى ههنا من الخلق؟ قال لا يحصيهم إلا الله تعالى، فقال عبد الله العمري: اعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلهم، فانظر كيف تكون، فبكى هارون وجلس، فجعلوا يعطونه منديلاً للدموع. هذا ولا يخفى على كل ذي لب أن هذا الأمر من اعظم مصائب السلطان، كان الله تعالى في عونه. وقال أبو بكر المالكي الطرطوشي في تفسير قوله تعالى: "لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض" يعني لولا إن الله تعالى أقام السلطان في الأرض لدفع القوي الضعيف، وتواثب الخلق بعضهم على بعض، فلا ينتظم لهم حال، ولا يستقر لهم قرار، فتفسد الأرض ومنْ عليها، ثم امتن الله تعالى بإقامة السلطان. فقال، ولكن الله ذو

فضل على العالمين، يعني في إقامة السلطان، فيأمن به الناس فيكون فضله على الظالم كف يده، وعلى المظلوم أمانة بكف يد الظالم عنه. وروي كثير عن مرة عن النبي ﷺ أنه قال: السلطان ظل الله في أرضه، يأوي إليه كل مظلوم من عباده، فإذا عدل كان له الأجر، وعلى الرعية الشكر، وإذا جار كان عليه الوزر، وعلى الرعية الصبر. وقال بعض العلماء: ليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبي مرسل أو ملك. وقوام أمر السلطان ودوامه، وربط ملكه بقوام العدل والإنصاف، الحاكمة بهما الشريعة المحمدية الجامعة لجميع مصالح العباد، المطابقة أحكامها للعقول المستقيمة، وأن منهما من إمارات الذل والزوال، كيف وهي وضع إلهي، ويظهر شؤم مخالفتهما، ولو بعد مدة طويلة. هذا ومما يلزم على السلطان أن يراعي أهل الفقه والعلم باداء حقهم واحترامهم، فأن في ذلك زينة ملكه، لأن قيام الشريعة بهم، كما ورد في الآثار ومما جرت عليه عادة الملوك الماضية، كيف لا وقد ذكر تعالى الفقهاء، بقوله: "وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون". ومن لوازم السلطان، أن لا يغفل عن أحوال رعيته بالفحص عنها، ولا يحتجب وكلاؤه وأمراؤه عن فقرائهم، بل الأحرى أن لا يحتجب الإمام أيضاً. فإن التحجب غفلة وجهلاً بأحوال الناس. قال بعض الحكماء: يضيع أمر الناس إذا كان الأمير محتجباً وكان الرأي عند من لا يقبل النصح والسلاح عند من لا يستعمله، والمال عند من لا ينفقه، ويجب على السلطان أن يخشى الله تعالى في جميع أفعاله وأقواله وحركاته، وأن يصغي للحق وأن كان مراً، ولا يأمن من آفات الدنيا والأقدار الإلهية جارية غير مأمونة. قال بشر بن السري بينما الحجاج جالس في الحجر إذ دخل رجل من أهل اليمن، فجعل يطوف فوكل الحجاج بعض من معه، فقال: إذا فرغ من طوافه ائتني به، فلما فرغ أتاه به فقال: مَنْ أنت قال:

من أهل اليمن قال: أفلك علم بمحمد بن يوسف قال: نعم قال: فأخبرني عنه قال: لقد تركته أبيض بضاً، سميناً طويلاً، عريضاً، قال: ويلك ليس عن هذا أسألك قال: فعما تسأل قال: عن سيرته وطعمته. قال: فأجور السير وأخبث الطعم، واعدى العداة على الله تعالى في أحكامه. قال: فغضب الحجاج وقال: ويلك أما علمت أنه أخي قال: بلى وأنت أما علمت أن الله تعالى ربي، والله لهو أمنع لي منك اكثر منك لأخيك. فقال: أجل أرسله يا غلام فسكت. فأنظر إلى وقوف الحجاج وخوفه عند ذكر الله تعالى، مع شدة بأسه وجوره وظلمه الذي بلغ عنان السماء.

ومن الأمور المهمة التي ورد بها الشرع الشريف، وأتفق عليها العقلاء، وبها نظام الأمور اللين، وترك الغلظة، ومنها المشاورة وعدم استعمال منْ أظهر الحرص في طلب الولاية على الأعمال والولايات، فأن هذه الخصال من أساس استقامة الملك. أما اللين وترك الغلظة فلقوله تعالى لنبينا الأعظم محمد ﷺ: "فبما رحمةٍ من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك". وقوله تعالى: "واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين". وروي أن النبي ﷺ كان جالساً مع أصحابه، فجاء رجل فقال: أيكم ابن عبد المطلب، فقالوا: هذا الأبيض المتكيء، فقال الرجل: يا ابن عبد المطلب، فقال النبي ﷺ قد أجبتك. فأنظر إلى تواضعه ﷺ، وجلوسه مع أصحابه كأحدهم بحيث لايمتاز بشيء عنهم، ولم يعرفه الرجل بهيئة مخصوصة. وبالجملة أنه قد يبلغ بالتواضع واللين ما لا يبلغ بالكبر والغلظة، ألا ترى أن الرياح بهبوبها لا عنْ شدة تنعطف بها أغصان الأشجار. وإذا اشتدت انكسرت الأغصان بل ربما قلعت أصولها. ومما ذكرناه من الأمر باللين وترك الفظاظة والغلظة لا ينافيه ما ذكر في بعض التواريخ، من أن عمر بن

الخطاب رضي الله عنه لما سمع بأمر معاوية من استعمال شوكة الملوك توجه إلى الشام، ولما رأى معاوية بهيئة الملوك قال له: ما هذا يا معاوية، فقال يا أمير المؤمنين: هذه الروم، يعني أن قرب الروم من بلاد الشام، يقتضي تعاطي هذه الحلة لإظهار شوكة الإسلام وصولتهم، فهو لغرض ديني لا شهواني، فاقره عمر رضي الله عنه على ذلك لما رأى أن مصلحة الدين فيه. ووجه، عدم المنافاة أن اللين وترك الغلظة طور وراء طور الوقار والشوكة لعلمة الدين، وأين هذا من ذلك بل اللائق بحال إمام المسلمين في زماننا هذا، أن يكون في غاية الشوكة والمهابة والصولة لما ترى من تبدل الزمان والأحوال، وكثرة الأعداء وشوكتهم وصولتهم، فلكل مقال ولكل زمان حال. وإما المشاورة وعدم الاستقلال في الرأي فلقوله تعالى خطاباً لأفضل خلقه، وأعلمهم وأعقلهم وأكملهم خلقاً وخلقاً، نبينا محمد ﷺ: "وشاورهم في الأمر". فانظر إلى هذه الإشارة اللطيفة، فأن نبينا ﷺ مع كونه أكمل العالمين عقلاً وفضائل حتى قال بعض العارفين: لو وزن عقله ﷺ بعقول العالمين أجمعين لرجح عقله على الجميع"، أمره بمشاورة أصحابه لما في المشاورة من حسن الأدب مع الجليس ومساهمته في الأمور، لأن نفوس الجلساء تميل إلى ذلك فأدب الله تعالى نبيه به ليكون مأدبة لسائر الملوك والأمراء والجلساء، والاستبداد بالرأي من أقبح ما يوصف به الرجل، ملكاً كان أو غيره. ومن ألطف ما قيل في المشاورة قول بعض الأدباء وقد أجاد:

اقرن برأيك ورأي غيرك واستشر
فالأمر لا يخفى على رأيين
فالمرء مرآة تريه وجهه
ويرى قفاه يجمع مرآتين

وأما عدم استعمال من طلب الولاية فما رواه البخاري ومسلم، أن رجلاً قال: يا رسول الله استعملني، فقال النبي ﷺ إنا لا نستعمل على عملنا من أراده. والسر إن الولاية أمانة وتصرف في أرواح الخلائق وأموالهم، والإسراع إلى الأمانة دليل على الخيانة، وهي تستدعي فساد قلوب الرعية على الملك، لأنه إذا بطلت حقوقهم، وأتلفت أموالهم فسدت نياتهم، وأطلقوا ألسنتهم بالدعاء عليه، والله سبحانه وتعالى عند القلوب المنكسرة، فيؤول الأمراء إلى الاختلال والزوال. وبالجملة، أن هذا أو أن تعسر في زماننا لقلة أهل العفة والاستغناء، إلا من ظهرت عليه إمارة الخيانة، والإرتكاب والجسارة من العمال يجب عدم استعماله، بل يجب على السلطان أن يتحرى في تجربة الرجال، ليكون أقرب إلى امتثال الحديث، وأن قل الأمناء لفساد الزمان، وما لا يدرك كله لا يترك كله. واللائق بحال السلطان أن يكون واعياً متفحصاً عن أحوال رجاله ورعيته، ليضع كل شيء في محله، ويكون مشغولاً بتمرين نفسه وتطبيعها أمهات الفضائل وهي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة. فالحكمة فضيلة القوة العقلية، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية، والعفة فضيلة القوة الشهوانية، والعدالة عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب فيها، وبها يتم نظام جميع الأمور، ولذا قيل بالعدل قامت السموات والأرض. فقوة العدالة حالة للقوى الثلاث في انتظامها على التناسب تحت الترتيب الواجب، فليست قوة العدالة جزء من الفضائل، بل هي عبارة عن الحالة العارضة لجملة الفضائل، فأنه مهما كان بين السلطان وجنوده وأعوانه ورعيته ترتيب حسن يكون السلطان بصيراً، وتكون الجنود والأعوان والرعية ذات انقياد وطاعة.

يُقال إن للسلطان عدلاً، ولا يتم العدل بكون بعضهم بهذه الصفات دون الكل، وكذلك العدل في مملكة البدن، فالعدل في أخلاق النفس يتبعه العدل في المعاملة والسياسة، والعدل في المعاملة وسط بين رذيلتي الغبن والتغابن، وهو أن يأخذ ما له أخذه ويعطي ما له عطاءه. والغبن ما ليس له، والتغابن أن يعطي في المعاملة ما ليس عليه حمد ولا أجر. والعدل في السياسة أن يترتب أجزاء المدينة وفق الترتيب المشاكل لترتيب أجزاء النفس حتى تكون المدينة في أتلافها وتناسب أجزائها، وأركانها على طبق الغرض المطلوب من الاجتماع، وهو التعاون الذي به يحصل نظام العالم، بحيث يكون كالشخص الواحد. وينقسم السكان إلى مخدوم ولا يخدم كالملك، وإلى خادم ليس له مخدوم كالعبد، وإلى من يكون مخدوماً من وجه وخادماً من وجه آخر كأعوان الملك، والمرء مع أهل بيته مثلاً كما في قوى النفس. فأن بعضها مخدوم لا يخدم كالعقل المستفاد، وبعضها خادم ليس بمخدوم كالقوة الدافعة للعضلات، وبعضها خادم من وجه ومخدوم من وجه آخر كالمشاعر الباطنة. وبمثل هذا الترتيب قامت السموات والأرض حتى صار العالم كله كالشخص الواحد، متعاون القوى والأجزاء على الترتيب الحسن بتقديم ما حقه التقدم وتأخير ما حقه التأخر، فليس في الإمكان أبدع مما كان. والإنسان بين أن يحصل الفضائل ويكمل فيلتحق بالمجردات ويقرب من الله تعالى، وبين أن يبقى برذائل الشهوة والغضب والجهل فيلتحق بالبهائم ويهلك في الدارين، على ما تقرر في علم الأخلاق وبالملة أن العدل أعظم الأركان التي بها قوام السلطنة والملك ودوام الدولة، فأن العدل ميزان الله تعالى أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون.

وقد شبهوا الملك بالرجل فأعتبر السلطان رأسه، والوزير قلبه، والأعوان يديه، والرعية رجليه، والعدل وجهه، وهو موجب لاجتماع الرعية على محبته، المقضي إلى استقامة أمره ونظام ملكه. وإذا عدل السلطان فيما قرب منه صلح له ما بعد منه، وعز الملوك بالعدل، كما أن شرفها بالعفو. وعدة السلطان ثلاثة أمور: مشاورة النصحاء وثبات الأعوان، وترويج سوق العدل. ثم العدل ينقسم إلى قسمين: قسم إلهي جاءت به الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن الله تعالى وهو الشرائع، وقسم يشبه العدل وهو السياسة الاصطلاحية، ويستحيل أن يدوم بقاء السلطان أو تستقل رعيته في حال إيمان أو كفر، بلا عدل قائم ولا ترتيب للأمور ثابت. وتوافقت حكماء العرب وغيرهم على هذه الكلمات فقالوا: الملك بناء والجند أساسه فإذا قوي الأساس دام البناء، وإذا ضعف الأساس انهار البناء، فلا سلطان إلا بجند، ولا جند إلا بمال، ولا مال إلا بالعمارة، ولا عمارة إلا بالعدل، فصار العدل أساساً لسائر الأساسات، والعدل النبوي هو العدل الإلهي عبارة عن الأحكام الشرعية المحفوظة بالعلماء الوارثين لعلوم الأنبياء، الذين خصهم الله بكرامة الرفعة، بقوله تعالى: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا بالعلم درجات". فلا مندوحة لأحد عن امتثال أمرهم، لأنهم الموصلون إلى النبي ﷺ الموصل إلى الله تعالى. وكما أن السلطان الحازم لا يتم حزمه إلا بمشاورة وكلائه ووزرائه الحاذقين كذلك لا يتم عدله إلا باستفتائه العلماء الصادقين.

روي أنه استأذن الهرمزان على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولم يجد عنده حاجباً ولا بواباً، فقيل له في المسجد فأتى المسجد، فوجده مستلقياً متوسداً كوماً من الحصى ودرته بين يديه، فقال له الهرمزان: عدلت فأمنت فنمت. وقالت الحكماء: من حرم العدل فلا خير له ولا للناس في سلطانه. وقال يحيى بن اكتم

القاضي: ماشيت المأمون في بستان والشمس عن يساري والمأمون في الظل، فلما رجعنا وقعت الشمس أيضاً علي، فقال المأمون: تحول مكاني وأتحول مكانك حتى تكون في الظل كما كنت واقيك الشمس كما وقيتني، فإن أول العدل أن يعدل الرجل على بطانته، ثم الذين يلونهم، حتى يبلغ العدل الطبقة السفلى، فعزم علي فتحولت. وقال بعض الحكماء: رم ما شئت بالإنصاف، وأنا زعيم لك بالظفر به. ومن الأمور المهمة التي تجب رعايتها على السلطان وأعوانه تقوى الله تعالى، والخوف منه سراً وعلناً، وإذا كان مبتلياً بالمعاصي فعليه أن يتستر ولا يتجاهر بالمعاصي، ولا يهتك محارم الله تعالى، فأن ذلك يكون موجباً لاستخفاف الرعية به، مع كون الفسق موجباً لزوال النعمة، وعما قريب تكون اللذة عذاباً، والعفة عتاباً، فكم ملك أزالت ملكه الشهوات وهدمت قواعد دولته قلة المبالاة بالطاعات.

قال ابو جعفر المنصور: ما زال أمر بني أمية مستقيما حتى أفضي أمرهم إلى أبنائهم المترفين، فكانت همتهم مصروفة في قصد الشهوات وإيثار اللذات، ومن الأمور المهمة عدم تقليد الأعمال المهمة غير أربابها.

سئل بعض الكاملين، ما بال ملك آل ساسان صار إلى ما صار إليه بعدما كان فيه من القوة وشدة الأركان؟ فأجاب بأنهم قلدوا كبار الأعمال صغار العمال، ولهذا أطبق الحكماء على أن موت ألف من الرجال الكاملين أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السفلة. وفي الأمثال زوال الدول باصطناع السفل. وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أظلم الناس لنفسه اللئيم، الذي إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف، وتكبر على ذوي الفضل. وقالت الحكماء: أسرع الخصال في هدم قواعد السلطانة أعظمها في إفسادها، وفي تفريغ الجمع عنه رفع السفلة

وإظهار المحابات، لقوم دون قوم، والميل إلى قبيلة دون قبيلة. وقيل لبعض الملوك بعد زوال ملكه ما الذي اذهب ملكك؟ فقال: رفعي للسفلة، وثقتي بدولتي، واستبدادي ومعرفتي وإغفالي إلى استشاراتي، وإعجابي بشدتي، وأضاعت الحيلة والتدبير في وقت حاجتي، والتأني عند عجلتي، ومن الأمور المهمة اتصال الأخبار، فقد سُئل بعض العارفين مال ذي أذهب ملك بني مروان؟، فقال: تحاسد الأكفاء وانقطاع الأخبار.

روي أن يزيد بن عمر كان يحب أن يضع نصر بن سيار، وكان لا يرفع إلى الخليفة ما يرد عليه من نصر من أخبار خراسان، فلما رأى نصر بن سيار ذلك أنشد يقول:

أرى خلل الرماد وميض جمر
فيوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار من عودين تذكى
وأن الحرب أولها كلام
فقلت تجاهلا يا ليت شعري
أ إيقاظ أمية أم نيام

ومن الأمور التي لا يدوم معها الملك العجب، قال الحكماء: ومن العجب العجاب دوام الملك مع الكبر والإعجاب.

روي عن النبي ﷺ أنه قال للعباس رضي الله عنه: أنهاك عن الشرك بالله تعالى، والكبر، فأن الله تعالى يحتجب منهما. وقال الأحنف بن قيس: ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها في نفسه. ولم تزل الحكماء تتحامى عن الكبر وتأنف منه. ونظر افلاطون إلى رجل جاهل معجب، فقال: وددت أني مثلك في ظنك، وأن

أعدائـي مثلـك في الحقيقـة. وقـال لبعـض الحكمـاء: وقـد يـدوم الملـك مـع معظـم النقائص، فرب جاهل ساد قومه، ورب أحمق رأس عشيرته. فمنهـم الأقـرع بـن حابس، الذي قال فيه النبي: ذلك الأحمق المطاع، ولا يدوم مع الكبر والإعجاب. وقد حرم الله الجنة على المتكبرين، فقال تعالى: "تلك الدار الآخرة نجعلها للذيـن لا يريـدون علـواً في الأرض وإلا فسـاداً". فقـرن الكـبر بالفسـاد، وقـال: أن الكـبر يوجب المقت والمقت البغض، ومـن مقتـه رجالـه لم يستقم حالـه، ومـن أبغضتـه بطانتـه كـان كمـن غـص بالمـاء، ومـن كرهتـه الحمـاة تطـاولت عليـه الأعـداء. والإعجاب يكون سبباً لحمل صاحبه على الاستبداد وترك مشـاورة الرجـال، ومـن الأمور التي لا تدوم مع الملك الكذب.

قال الحكماء العرب: وغـيرهم ست خصـال لا تغتفـر مـن السـلطان: الكـذب والخلف والحسد والحدة والبخل والجبن. إمـا الكـذب فلأنـه إذا كـان كذابـاً، لم يوثق بوعده ووعيده، فلم يرج خيره ولم يخف أحد من بأسه، ولا بهاء لسلطان لا يُرجى خيره ولا يرهب بأسه. وإما الخلف فما ذكره الحكماء من أن خراب البـلاد وفساد العباد مقرونان بإبطال الوعد والوعيد من الملوك. وأما الحسد، فأنه إذا كـان حسوداً لم يشرف أحد به، وإذا ضاعت الأشراف هلكت الأتباع، ولا يصلح الناس إلا بإشرافهم. قال بعض الشعراء:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وأما الحدة، فلأنها تكون موجبة لانفضاض الرعية عنه. وأما البخل، فلأنه إذا كان بخيلاً لم يناصحه أحد، ولا تصلح الولاية إلا بالمناصحة. وإما الجبن، فلأنــه

إذا كان جبانا اجترأ عليه عدوه وضاعت ثغوره. ومن الأمور الموجبة لفساد أمر الرعية وهدم قواعد السلطنة الاحتجاب. قال بعض الحكماء: إذا احتجب السلطان فكأنه مات. وقال بعضهم: لا تزال الرعية ذا سلطان واحد ما وصلوا إلى سلطانهم. فإذا احتجب فهناك سلاطين كثيرة يتصرفون في أرواح الخلائق وأموالهم. على ما يشاؤون. لأمنهم من وصول المظلوم إلى السلطان.

قال بعض الحكماء: من لم يستظهر باليقظة لم ينتفع بالحفظة. واعظم أسباب الخراب أن يكل السلطان أمر رعيته إلى أعوانه. ولا يتفحص عن أحوالهم. وإذا علم خيانتهم لا يصغي إلى شكوى المظلومين. ولا يفتش عن حقيقة تلك الشكوى. وكذلك الوزراء بالنسبة إلى سائر العمال. إلا أن السلطان إذا جرب صدق أحد وكلائه وسداد رأيه وسعيه في مهام الملك. فعليه أن يثق به ويعتمد عليه. وينفذ أحكامه ولا يصغي إلى كلام الواشي عليه ولا يستعجل في عزله.

روي أنه قال معاوية بن أبي سفيان لصعصعة بن صوحان: صف لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقال كان عالماً برعيته. عادلاً في قضيته. عارياً عن الكبر. قبولاً للعذر. سهل الحجاب. مصون الثياب. متحرياً للصواب. رفيقاً للضعيف غير مجاب للقوي ولا جاف للقريب. ومن الكلمات الجامعة ما قاله بعض الحكماء: المنفعة توجب المحبة. والمضرة توجب البغضة. والمضادة توجب العداوة. والمتابعة توجب الألفة. والصدق يوجب الثقة. والأمانة توجب الطمأنينة. والعدل يوجب اجتماع القلوب. والجور يوجب الفرقة. وحسن الخلق يوجب المودة. وسوء الخلق يوجب المباعدة. والانبساط يوجب المؤانسة. والانقباض يوجب الوحشة. والكبر يوجب المقت. والتواضع يوجب الرفع. والجود يوجب الحمد. والبخل يوجب الذم. والتواني يوجب التضييع. والجد

يوجب رجاء الأعمال، والهويناء توجب السلامة، وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة. وبالتأني يسهل المطالبة، وبلين كتف المعاشرة تدوم المودة، وبخفض الجانب تأنس النفوس، وبسعة خلق المرء يطيب عيشه، والاستهانة توجب التباعد، وكثرة الصمت توجب الهيبة، وبعدل المنطق تجلب الجلالة، و بالنصفة تكثر المواصلة، وبالافضال يعظم القدر، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال، وباحتمال المؤن يجب السؤدد، وبالحلم عن السفيه تكثر أنصارك عليه، وبالرفق والتؤدة تستحق اسم الكرام، وبترك ما لا يعنيك يتم لك الفضل.

واتفق حكماء العرب وغيرهم على أربع كلمات: الأولى: لا تحمل نفسك شيئاً ما لا تطبق، الثانية: لا تعمل عملاً لا ينفعك، الثالثة: لا تغتر بالمؤنة، الرابعة: لا تثق بمال وإن كثر. ومن اعظم الأمور التي بها عز السلطان الطاعة.

روي أنه قال ملك فارس لموبذان: أي شئ واحد يعتز به السلطان؟ قال: الطاعة، قال: فما ملاك الطاعة؟ قال: التودد إلى الخاصة والعدل على العامة.

وروى القهري أنه لما دخل سعد العشيرة على بعض ملوك حمير، فقال له ياسعد: ما صلاح الملك؟ قال: معدلة سابغة وهيبة وازعة ورعية طايعة. فإن في المعدلة حياة الأنام، وفي الهيبة نفي الظلام، وفي طاعة الرعية التآلف والالتئام. ويجب طاعة الإمام على الرعية، وطاعته مقرونة بطاعة الله ورسوله ﷺ فأن طاعة الإمام عصمة كل فتنة، ونجاة كل شبهة، وحرز لمن دخل فيها والتجأ إليها من كل مفسدة. وليس للرعية أن تعترض على الإمام في تدبيره من أمور السياسة لحفظ قواعد الإسلام، بل عليها الانقياد والطاعة، وعلى الإمام الاجتهاد بالمعدلة. فالإمامة عصمة للعباد وحياة البلاد، أوجب الله تعالى الطاعة لمن خصه بفضل الإمامة وحمله عبئها، فقرن طاعته بطاعته وطاعة رسوله ﷺ فقال تعالى: "يا أيها

الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم". فمن خرج عن طاعة الإمام فقد انقطت عصمته، وبرئ من الذمة، لأن طاعته حبل الله المتين ودينه القويم. فيجب على كل مسلم الإخلاص والنصيحة الصادقة مع الإمام، فأنه ما مشى قوم على سلطان ليذلوه إلا أذلهم الله تعالى قبل أن يموتوا، وعلى السلطان الاستصلاح لهم، والتعهد لأمورهم بحسن السيرة والعدل فيهم والتعديل بينهم بالرفق والرأفة والشفقة، كما أن حق السلطان عليهم الطاعة والاستقامة والشكر والمحبة والصدق وعدم الخيانة.

قال سليمان بن داود عليهما السلام: الرحمة والعدل يحرزان الملك.

روى بعض المؤرخين أنه لما غزا سابور ذو الأكتاف ملك الروم، وأخرب بلاده وقتل جنوده وأفنى بطارقته، قال له: انك قتلت جنودي واخربت بلادي فاخبرني بالأمر الذي تسببت به حتى قويت على ما أرى وبلغت في السياسة ما لم يبلغه ملك فان كان مما تضبط به الأمور أديت لك الخراج وصرت كبعض الرعية في الطاعة لك. قال له سابور إني لم أزد في السياسة على ثمان خصال لم اهزل في أمر ونهي ولم اخلف في وعد واثبت على العنا لا على الهوى وضربت للأدب لا للغضب وأودعت قلوب الرعية المحبة من غير جزاء والهيبة من غير ضغينة وعممت بالقوة ومنعت بالفضول فأذعن له وأدى إليه الخراج.

روي أنه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمغيرة لما ولاء الكوفة: يا مغيرة ليأمنك الأبرار، ويخلفك الفجار. وقال حكماء الهند: أفضل السلطان من أمنه البرئ، وخافه المجرم، وشر السلطان منْ خافه البرئ وأمنه المجرم. وقالوا: سلطان تخافه الرعية خير الرعية من سلطان يخافها. وقالوا: شر خصال الملوك الجبن عن الأعداء، والقوة على الضعفاء، والبخل عند الإعطاء. وقالوا: الملك

العادل كالنهر الصافي ينتفع به الأخيار والأشرار، وبصلاح السلطان يكون صلاح الدنيا. قال معاوية بن أبي سفيان لابن الكري: صف لي الزمان، فقال: أنت الزمان إن تصلح يصلح، وإن تفسد يفسد. وفي المثل السائر الناس على دين ملوكهم، وكذا قيل الدين والسلطان توأمان.

روي انه قال أردشير لابنه: يا بني إن المُلْك والدين إخوان لا غناء لأحدهما عن الآخر فالدين أساس والملك حارس وما لم يكن له أساس فمهدوم، وما لم يكن به حارس فضائع يا بني اجعل حديثك مع أهل المراتب، وعطيتك لأهل الجهاد، ومشورتك لأهل الدين وسرك لمن عناه ما عناك وليكن من أهل العقل. ومن الأمور المهمة استثناء البلاد القريبة من الثغور لبعض الرعايات، ولاسيما إذا كانت كثيرة القبائل والعشائر، اكثر أهاليها سكان البادية متفرقة الأحوال والأخلاق بعيدة المزاج عن التمدن، بحيث يتعذر ويشق ضبطها إلا بعد ممارستها وتمرينها بزمان طويل. ويصعب إجراء السياسة بينهم إلا برفق ومماشاة، كسواد العراق وذلك يأخذ الأمور معهم بلطف، فات في ذلك من المنافع والمصالح الغائبة ما لا يخفي على منْ نظر من بعيد إلى بعيد. فان الهجوم على المصالح الشاقة دفعة لا ينتج إلا عناء، وتكون مقاصده ناقصة ومطالبه غير سديدة. فإن التأني في الأمور يوجب الظفر، ومعاملة الناس على مقتضى عقولهم من سمات الحكمة، كما ورد. كلم الناس على قدر عقولهم، فإذا تطبعت النفوس سهلت الأمور وحسنت عاقبة الأمور، فالحكيم منْ نطق بالحكمة، وباشر الأمور بالتدريج والاستثناء. إن امتنع وخالف أمور السياسة المعتبرة لدى سلطان العصر، واستلزم وخرق القواعد والقوانين الكلية، فلا بد أن يعتبر بعض لوازمه، فأن الاستثناء ولو مؤقتاً في مثل هذه المواضيع يوجب الظفر في المطالب المهمة.

ومن اعظم الأمور المهمة التعمير بحفر الأنهار المندرسة، والحرث بمساعدة الفلاحين، والتخفيف فيما يرتب عليهم، وحث العامة على تعليم الصنائع والمعارف، بحيث لا يحتاجون إلى صنائع الدول الأجنبية، وبناء المدارس والمكاتب وتعليم الأولاد العلوم الدينية وغيرها، كعلم النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع واللغة والعروض والأنساب والمنطق والحكمة والهيئة والطب والهندسة والحساب، وتعلم سائر الألسن وغيرها من الآلات، التي تزيد العالم قوة ومعرفة بأحكام الدين والسياسة. فإن العالم بالفقه إذا خلا من معرفة هذه العلوم لم يوثق بفقاهته لقصوره عن درك العبارات الدقيقة، من كتب الفقه، بل يستحيل أن يدرك معاني القرآن والحديث والمأمور بإدارة محل إذا كان جاهلا مطلقاً أو عاريا عن اكثر هذه العلوم كانت سياسته ناقصة، وان كان ذا فهم وفطنة، ويجب تعلم علم الفقه والحديث والتفسير والسير وكذا التاريخ. واللايق بالسلطان توسيع الدائرة بترويج المذاهب الأربعة بين القبائل والعشائر، تسهيلا على العباد لان اختلاف الأئمة رحمة في حق الناس، على أن ذلك أقوى أسباب العمارة. لان ترويج المذاهب الأربعة سبباً لحفظ عقائد العامة عن الرفض، وسائر الاعتقادات المخالفة لأهل السنة والجماعة. وإذا كانت الرعية على مذهب أهل السنة كان السلطان أميناً من خيانة رعيته، وميلهم إلى المبتدعة. ألا ترى؟ أن الأمراء والوزراء لما غفلوا عن عشائر العراق، ولم ينصبوا بينهم العلماء، كيف ارتد أكثرهم عن مذهب أهل السنة، وصار ميلهم إلى الرفض اكثر، وإن كانوا من العرب، حتى انهم إذا ضاقت بهم المسالك، ولو وجوههم إلى نحو العجم، وما ذلك إلا لاتحاد المذاهب. وبالجملة، أن الغفلة عن ترويج العلوم الدينية، وعن تثبيت كل عشيرة وقبيلة على أحد المذاهب الأربعة، بإرسال العلماء إليهم وتعليمهم أمور الدين على قواعد أهل السنة وعدم الاعتناء بذلك خطر عظيم، بحسب المآل وترويج المذاهب

الأربعة بين القبائل والبلدان، مع كونه مستلزماً لمصالح مهمة دينية ودنيوية، لا يمنع من اعتبار السياسة العرفية والقوانين النظامية. ألا ترى؟ أن ملوك الإسلام الماضين كيف اعتبروا الأمور الدينية، وروجوا العلم والعلماء لمصالحهم المهمة، ومع ذلك كانت لهم قوانين عرفية في ضبط أمور السياسة بين العباد، ومن أسباب العمارة ترويج التجارة بتسهيل الطرق لخروج الأموال ويحفظ أموالهم ورعايتهم.

ومن أسباب العمارة جلب القبائل والعشائر التي في البادية إلى المدن، وترغيبهم إلى الحرث، وتعلم الصناعة، والمعارف، كما أسكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سبعين ألفاً من أشراف العرب في البصرة، وسببت خزانة العرب رقية الإسلام، والبصرة اليوم بلاقع وذلك إنما يكون بقوة دافعة أو بعطاء ولطف، ومماشاة طويلة. وعلى السلطان ووكلائه ووزرائه تسوية الأحكام بين الخواص والعوام، وبين المسلم وسائر أهل الكتاب في إجراء الأحكام وإظهار الحقوق، كما هو مقتضى شريعتنا المحمدية. وأعلام العوام، بأنه ليس لأحد عليهم سبيل، وأنه لا فرق بينهم وبين أشراف الناس في الحكم، بمقتضى الأمر الإلهي، وأنه لا حاكم عليهم سوى السلطان ووكلائه وأمرائه ونوابه نيابة عن السلطان، فأن ذلك من أعظم أسباب العمارة. نعم، أن لخواص الناس رعاية بإكرامهم واحترامهم وتنزيلهم منازلهم، لا تبصر فيهم في أرواح العامة وأموالهم، فهذا يتعلق بالسلطان. وأما الأمور المتعلقة بالرعايا والمتبعة، فأما الوكلاء والوزراء فيجب عليهم الصدق والعدل والعفة والنصح والخدمة النافعة، وعدم الطمع، فأن ذلك يكون سبباً للفوز في الدارين، على أن عدل ساعة خير من عبادة ألف شهر، والعدل أقوى أسباب نظام العالم والجور أسرع إلى الخراب، واختلال النظام كما سبق. ويجب عليهم التسوية بين الغني والفقير، والشريف والوضيع، في إجراء الأحكام، فأن المحاباة

والميل إلى بعض دون بعض دليل خيانة في الدين والدولة. ويجب عليهم التفحص عن أهل الفضل والمعرفة والعفة والصدق ليقلدوهم أهم الأمور، وإن أبوا عنها فأن أقبح المظالم تقليد القضاء والإمارة والعمالة أرباب الخيانة والكذب والارتكاب والجهل والتكبر والجور. فقد روي عن النبي ﷺ انه قال: من قلد إنساناً وفي رعيته أولى منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين. وروي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال: لا أيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له. فان وجد اثنان أحدهما أروع والآخر افقه فالأروع أولى لأنه يمكنه أن يقضي بعلم غيره على ما ذكر في المضرات. وبالجملة، أن التحري على الوكلاء والوزراء في الحكم بين الرعية، وفي تقليد الأمور واجب، وعليهم أن يتجسسوا عن أحوال الخواص والعوام بأنفسهم خفية، وبأعوانهم المفتشين الصادقين الخالين عن الأغراض من ذوي العفة، الذين لا يفترون على الناس. فأن وزر العباد على الوزراء لا على السلطان، لأنه وكل الأمور إليهم، وهو نفس واحد لا يمكن أن يحيط نفسه بأحوال العباد والبلاد. نعم، علي السلطان أن لا يكل الأمر إلا إلى الوزراء الصادقين، من ذوي العفة والعدل والمروءة والرحمة، حسب التجربة، ومن ظهر منه نوع ارتكاب وجور وعدم إنصاف فعليه أن لا يقلده أمراً من الأمور، فان فعل فهو مسؤول يوم القيامة. وأما القضاة والنواب وأرباب الفتوى فوجب عليهم الحكم بالعدل، وعدم الارتشاء والعفة والورع والديانة والاحتياط، والحكم بالقول الراجح المفتى به دون المرجوح وإجراء أدب القضاء بين الداعي والمدعي عليه، والتسوية بينهما، وان كان أحدهما شريفاً والآخر وضيعاً، وكان أحدهما مسلماً والآخر نصرانياً أو يهودياً أو مجوسياً. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: مَنْ ولي عشرة، فحكم بينهم بما احبوا وكرهوا، جيء به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه، فان حكم بما انزل الله ولم يرتش في حكمه ولم يحف فك الله غله، وان

حكم بغير ما انزل الله وارتشى في حكمه وخاف فيه شدت يساره إلى يمينه، ثم رمى به في جهنم.

وروي عن بريدة عن أبيه عن النبي ﷺ انه قال: القضاء ثلاثة، اثنان في النار وواحد في الجنة، رجل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة، ورجل عرف الحق فلم يقض به وجار في الحكم فهو في النار، ورجل لم يعرف الحق فقضى للناس على جهل فهو في النار. هذا والقضاء من المناصب العالية، وهي من اعظم المصائب على أهل الورع والديانة، لأنه مزلة الأقدام، ولذا اجتنب عنه الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه وصبر على الحبس والسجن حتى مات فيه. وقيل أنه ضرب ولم يقبل القضاء، وقال: البحر عميق كيف اعبره بالسباحة. وقال أبو قلابة: ما وجدت القاضي إلا كسابح بحر، وقد دعي أبو قلابة إلى القضاء فهرب إلى الشام، فوافق موت قاضيها، فهرب إلى اليمامة، واجتنب عنه كثير من السلف. وأما سائر العلماء والمدرسين فأكثرهم قد اعتمد على الرتب والجاه، وصرف النظر عن كسب العلوم، وكثير منهم في سائر البلاد، قد تقلد التدريس مع عدم الاستعداد التام، ولذا قل العلماء الفحول من ذوي التحرير والتقرير في البلاد. فيجب على الولاة أن لا يقلدوا أحداً مدرسة إلا إذا كان عالماً بجميع العلوم، وله قوة التقرير فيها مع التحرير ليروج سوق العلم، وأنت ترى أنه إذا مات عالم في زماننا وترك ولداً جاهلا نصبوه في محل أبيه، ولم ينظروا إلى حرمة العلم ورعايته بنصب أهله. بل يلتفتون إلى كونه ولد العالم المتوفى، والعلم لا يكون موروثاً، بل إنما يكون بالجد والتحصيل. ولو نظرنا إلى جهة كونه ولد العالم المتوفى لآل الأمر إلى زوال العلم، والعلم لم يبق إلى الآن إلا برعاية أهل العلم. ولو روعيت جهة لما وصل إلينا

شيء من العلم. نعم، أولاد العلماء لهم حق الرعاية على الولاة، يحثهم على تعلم العلوم والمعارف، والنسب لا يجدي نفعاً كما قال بعض الكاملين من أهل النسب:

لسنا وان كنا ذوي نسب
يوماً على الأنساب نتكل
نبغي كما كانت أوائلنا
تبغي ونفعل مثل ما فعلوا

وقال بعضهم:

كن ابن منْ شئت واكتسب أدبا
يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنذا
ليس الفتى من يقول كان أبي

واكثر أهل الأنساب في هذا العصر قد اتكلوا على أنسابهمن وتقاعدوا عن طلب العلم والمعارف، فصاروا كأحاد الناس، ولم يتفطنوا أن شرف المرء بالفضل والكمال والمعرفة، لا بالعظام البالية، واللائق بالعاقل أن يحصل الكمالات، ويخرج نفسه من دناءة الجهل، فأن العلم يرفع والخط ينفع والجهل يضع. وأما التجار فحرفتهم التي هي التجارة من الحرف المستحسنة، فقد روى بعض أهل العلم: أن إبراهيم الخليل عليه السلام كان يكتسب بالتجارة، والاكتساب من الحلال من الطاعات، ولذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام يكتسبون. فروي، أن آدم عليه السلام كان يزرع الحنطة، وكان نوح عليه السلام نجاراً، وكان داود عليه السلام يصنع الدروع، وكان سلمان عليه السلام يصنع المكتل، وعيسى عليه السلام يأكل من غزل أمه. ونبينا محمد ﷺ من الغنائم وقد تاجر ﷺ قبل النبوة، فعلم أن

طريق الاكتساب من طرق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولذا قال الفقهاء: الكسب فرض بقدر الكفاية لنفسه وعياله وقضاء ديونه، والكاسب حبيب الله تعالى على ما قيل في المثل المشهور، ثم أن طرق الاكتساب على ما ذكره بعض الفقهاء النجارة ثم الصناعة، والصناعة أنواع كثيرة ويجب على النجار تعلم مسائل المعاملات الشرعية.

روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف السوق ويضرب بعض التجار بالجرة، ويقول لا يبيع في سوقنا من لم يتفقه في الدين، فينبغي لهم أن يتعلموا علم الحساب والدفتر وقواعد التجارة. والنجارة والصناعة فرض كفاية لأنها لو تركت لبطل المعاش وهلكت الناس واختل نظام العالم، فشرع الحكيم المطلق تعالى المبادلة على وجه لا يخل بنظام الكونين، ويجب على المكتسب أن يراعي في معاملته العدل ويجتنب الغش وإخفاء العيب.

حكي عن يونس بن كفديد أنه كان عنده حلل مختلفة الأثمان، فذهب إلى الصلاة وترك ابن أخيه في الدكان، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمائة، فعرض عليه حلة من الحلل التي تقوم بمائتين، فاستحسنها واشتراها بأربعمائة، وذهب فاستقبله يونس ورأى حلته في يده وعرفها، فقال: بكم اشتريتها؟ فقال: بأربعمائة فقال: لا تساوي أكثر من مائتين، فارجع حتى تردها، فقال: هذه لا تساوي في بلدنا خمسمائة وأنا راضي بها ولا أردها، فقال له يونس: إنك وإن نصبتها فأن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها، فرده إلى الدكان ورد عليه مائتي درهم، ثم توجه إلى ابن أخيه وقال له: أما خشيت الله تعالى حتى ربحت مثل الثمن وتركت النصح للمسلمين! فقال له ابن أخيه: والله ما أخذها إلا وقد رضي بها، فقال له: هلا رضيت له ما رضيت لنفسك. وذكر في "شرح المشكاة" أن

أبا حنيفة رضي الله عنه تصدق بجميع ما أتى به وكيله إليه، لما خلط ثمن ثوب معيب بيع مخفياً، قيل وكان المال ثلاثين ألفاً. ويجب على المكتسب أن لا يثني على السلعة، ولا يحلف عليها. ويجب عليه أيضاً أن يصدق في سعر الوقت، ولا يلبس ولا يخون في المقدار ولا يطفف، والمحتكر ملعون.

قال أبو يوسف: كلما يضر بالناس حبسه مأكولا أو غيره، وأن كان ذهباً وفضة فأنه يأثم بالحبس، وأن قلت مدته ومن حبس غلة أرضه لا يكون محتكراً، لكن لو امتنع عن البيع عند شدة احتياج المسلمين إليها يكون مسيئاً، ومن جلب من بلد آخر فقد اختلفوا فيه، والاحتياط أن يبيع بسعر وقته.

وروي عن النبي ﷺ انه قال: منْ جلب طعاماً فباعه بسعر وقته يومه فكأنما تصدق به. وعنه ﷺ: ما من جالب يجلب طعاماً من بلد إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله تعالى منزلة الشهداء، ثم قرأ: "وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله، وآخرون يقاتلون في سبيل الله". فإنه تعالى سوى في هذه الآية بين درجة المجاهدين في سبيل الله، والمكتسبين المال الحلال، فدلت الآية على أن التجارة بمنزلة الجهاد. وأما أرباب الحرف من الصناعة والفلاحة يجب عليهم أيضاً الصدق، وعدم الغش والسعي التام. وبالجملة، أن عالم الدنيا هو عالم الأسباب، ونظامه بنظام الأحكام والصنائع والحرف. فاللائق بحال إخواننا المسلمين، أن يتيقظوا من يوم البطالة والغفلة، فأن سائر الملل، قد حازوا أنواع المعارف والصنائع، بعد أن كانوا من قبل عارين عن كل معرفة. وكان المسلمون من قبل أحسن المسالك في أمور المعاش، وكان غيرهم يحتاجهم، وهم لا يحتاجون غيرهم في شيء. وقد انعكس الأمر في هذا العصر، فيجب عليهم أن ينهضوا من نومة الغفلة، ويتعاضدون على تعلم المعارف والصنائع، ليعودوا إلى

سيرتهم الأولى. ويستغنوا عن غيرهم، ويتحاببوا ويتعاضدوا على تقوية الدين والدولة. وتركوا القال والقيل. ويجتنبوا عن فلان طويل وفلان عريض، ويراعون قوله تعالى: "إنما المؤمنون أخوة". فإن ذلك يكون سبباً لعمارة الممالك الإسلامية وتزداد به قوة الدولة الموجبة لقوة الدين، فأنه لا تقوى الدولة إلا بالعمارة، ولا يقوى الدين إلا بقوة الدولة على ما جرت به عادة الله تعالى.

ومن أقوى أسباب العمارة فتح الأنهار وإجراء السفن والمراكب فيها، وإحداث سكك الحديد. فأنه موجبة لقرب الطريق الموجب لسهولة التجارة والاكتساب الباعث على العمارة. هذا، ويجب على الرعايا إطاعة السلطان ووزرائه في سياستهم وفيما أحدثوه من إضافة السياسة، ولا تشمئز قلوبهم منها، وعما أحدثوه من الأمور السياسية فأن بالسياسة تنضبط أمور الناس على وجه لا يكون لأحد مداخلة في شيء من الأحكام، وسائر الأمور، وتنقطع المحاباة والالتزامات في التصحيحات، وتكسب الرعية والعامة أتم الراحة، وتأمن عن إبطال الحقوق، كما كان يقع في الأزمنة السابقة أنواع السياسات كإحداث المجالس السديدة في سياسة حكامه وغيرها، في زمن الملوك الماضية، فقد ذكر أقضى القضاة أبو الحسن البارودي (لعله الماوردي) في الأحكام السلطانية: إن الديوان محفوظ بحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة، من الأعمال والأموال، ومن يقوم فيها من الجيوش والعمال. وفي تسميته ديواناً وجهان أولهما: أن كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم، فقال ديوانه: أي مجانين، فسمى موضعهم بهذا الاسم، ثم حذفت الهاء لكثرة الاستعمال. والثاني: أن الديوان اسم للشياطين بالفارسية، فسمى الكتاب باسمهم لحذاقتهم بالأمور ووقوفهم.

وذكر العلامة المقريزي في تاريخ مصر أن كتابة الديوان على ثلاثة أقسام: كتابة الجيوش، وكتابة الخراج، وكتابة الإنشاء والمكاتبات. ولا بد لكل من استعمال هذه الأقسام الثلاثة، ثم ذكر ديوان العساكر والجيوش، وقال: أول من وضع ديوان الجند بخيلهم كلهراسب أحد ملوك الطبقة الثانية من الفرس، وأن كيفياد قبله أخذ العشر من الغلات، وصرفه في مصارف جنده. وأما في الإسلام فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "اكتبوا إلى منْ تلفظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل"، الحديث ذكره البخاري في باب كتابة الإمام الناس.

أقول هذا من أقوى الدلائل على أن للسلطان أن يكتب عدد نفوس تبعته، ومن اختلج في نفسه الإنكار، فقد أخطأ وخالف الشرع المبين على أن في كتابة الأنفس إحاطة بمن يصلح للعساكر، ومن يصلح للحرث، ومن يصلح للصناعات، ومن يصلح للرئاسة والعمالة وللكتابة والخدمة وغير ذلك. فيضع كل أحد فيما يليق. واللائق بكل مسلم، مقتدر على الحرب، أن يدخل في سلك العساكر لحماية الدولة، التي بها حماية الدين وسد ثغور الأعداء، بل يجب عليهم. وقد فضل الله المجاهدين على القاعدين، ثم ذكر المقريزي: أن أول منْ أتخذ بيت مال عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ونقل ابن شهاب بن عمر رضي الله عنه أنه أول منْ دون الدواوين، وروى في ذلك روايات منها عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال لعمر رضي الله عنه: كنت بالشام فرأيت ملوكها دونوا ديواناً وجندوا جنوداً، فدون ديواناً وجند جنوداً. فأخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله ودعا عقيلاً بن أبي طالب ومخرقة بن نوفل وجبير بن مطعم، وكانوا كتاب قريش، فقال: اكتبوا الناس على منازلهم فبدأوا ببني هاشم، وكتبوهم، ثم اتبعوهم أولاد أبي بكر

وقومه، ثم القبائل، ثم رفعوا ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما نظر فيه قال: ابدأوا بقرابة رسول الله ﷺ الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمراً حيث وضعه الله. فشكره العباس رضي الله عنه على ذلك، وقال وصلت رحمك.

قيل لما فتح الله تعالى على المسلمين القادسية، وقدمت على عمر رضي الله عنه الفتوح من الشام جمع المسلمين وقال: ما يحل للوالي من هذا المال، فقالوا جميعاً. أما الخاصة فقوته وقوت عياله لا وكس ولا شطط، وكسوتهم للشتاء والصيف، ودابتان إلى جهاده وحوائجه وحملاته إلى حجه وعمرته، والقسم بالسوية، وأن يعطي أهل البلاد على قدر بلادهم، ويبدأ بأهل الفيء منهم. ويفهم من هذا ترجيح العساكر على غيرهم. أقول، وأنت ترى السلطان نصره الرحمن في عصرنا هذا، وقد جعل لكل من العساكر والوزراء والعلماء والأمراء والأشراف والعمال والكتاب وغيرهم من الفقراء، في كل بلدة من بلاد حصة من بيت المال، مع ما له من الخدمات الوافية للحرمين الشريفين وأهلهما من إرسال الصرف وغيره، شكر الله تعالى سعيه وأدام ظله. وقال المقريزي: إنه كانت عادة الخلفاء من أمية وبني عباس والفاطميين، من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تجيء أموال الخراج ثم تفرق. ومن الديوان في الأمراء والعمال والأجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم. وكان يقال لذلك في صدر الإسلام العطاء، وما زال الأمر على ذلك إلى أن كانت دولة العجم، فغيروا هذا الاسم وفرقوا الأراضي اقطاعات على الجند. وأول من فرق الإقطاعات على الجند نظام الملك وزير الب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق، وذلك أن مملكته اتسعت فرأى أن يسلم إلى كل مقطع قرية، أو اكثر أو أقل على قدر اقطاعه، لأنه رأى أن في تسليم الأراضي إلى المقطعين عمارتها لاعتناء مقطعيها بأمرها، بخلاف ما إذا شمل جميع أعمال

المملكة ديوان واحد، فأن الخرق يتسع ويدخل الخلل في البلاد، ففعل نظام الملك ذلك وعمرت البلاد وكثرت به الغلات، واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك. أقول الإقطاع من الأمور المستحسنة الباعثة للعمارة، ولكن إعطائها على الجند والعسكر ليس بجيد، لأن اللائق بحال العسكر أن يكون مشغولا بعلوم الحرب فقط، وان يكون تحت الضبط. فلو كان مشغولا بتعمير الأراضي لفاته على الحرب وخرج عن الضبط والتعمير والحراثة إنما يليق بغير العسكر من سائر الناس. الطابو المرتب في عصر سلطان العصر هو عبارة عن الإقطاع، وهو من جملة أسباب العمارة، إذا كان بطريق غير شاق على المقطعين بأن يكون على سبيل العشر. وإذا كان بأكثر من ذلك كالخمس لم تبق فائدة تامة للمقطع، فلا يرغب ويهتم بالعمارة. وبالجملة، أن أقوى أسباب العمارة تخفيف الرسومات على الفلاحين وعلى أرباب الملك. ثم أن المقريزي ذكر الدواوين التي كانت مرتبة في مصر سابقاً، بقوله: فأولها ديوان المجلس وهو على ما نقله ابن الطوير: اصل الدواوين قديماً، وفيه علوم الدولة بأجمعها، وفيه عدة كتب، ولكل واحد مجلس مفرد وعنده معين أو معينان، وصاحب هذا الديوان هو المتحدث في الإقطاعات، ويلحق بديوان النظر وله المرتبة والمسند والحاجب وغير ذلك، وله الخدمة الخاصة وله دفتر المجلس وصاحبه من الأستاذين، ثم يتولاه اجل كتاب الدولة ممن يكون مترشحاً لرأس الدواوين، ويتضمن ذلك الدفتر وله مكان ديواناً بالقصر الباطن، ويضبط فيه ما ينفق في الدولة من المهمات، وما يرد إليهما من ملوك الدنيا، وما يعطي إلى أرباب الرتب والجهات أهل الصدقات، ويعلم فيه ما بين كل سنة من التفاوت، وما ينفق في مهم فتح الخليج. وما ينفق في سماطي الفطر والنحر، وما يخرج من الأكفان لمن يموت من أرباب الجهات المحتويات، وما ينحر للضحايات، وما

يعطي من الكسوة للأولاد والأقارب، وما ينفق في شهر رمضان وغير ذلك من العطايا.

الثاني: ديوان النظر، قال ابن الطوير: أما ديوان الأموال فان اجلها من يتولى النظر عليهم، وله العزل والولاية ومن يده عرض الأوراق في أوقات معروفة على الخليفة، أو الوزير، ولم ير فيه نصراني إلا الاحترام ويتعلق بنواب الدولة وله المرتبة وبين يديه حاجب من أمراء الدولة.

الثالث: ديوان التحقيق، وهو ديوان مقتضاه المقابلة على الدواوين ولا يتولاه إلا كاتب خبير، وله الخلع والمرتبة والحاجب، ويلحق برأس الديوان يعني متولي النظر.

الرابع: ديوان الجيوش قال ابن الطوير: والخدمة في ديوان الجيوش قسمان: الأول ديوان الجيش، وفيه مستوف أصيل ولا يكون إلا مسلماً، وله مرتبة على غيره لجلوسه بين يدي الخليفة داخل عتبة باب المجلس، وله مسند وبين يديه الحاجب، وترد عليه أمور الأجناد، وله العرض، ولهذا الديوان خازنان، ومن هذا الديوان تعمل أوراق الجزايات. والقسم الثاني من هذا الديوان ديوان الرواتب: ويشتمل على أسماء كل مرتزق وفيه كاتب أصيل، وفيه من المعينين والمبيضين نحو عشرة انفس، والتعريفات واردة عليه من كل عمل باستمرار من استمر ومباشرة من استجد وموت من مات، ليوجب استحقاقه على النظام المستقيم. وفي هذا الديوان عدة عروض العرض الأول: يشتمل على راتب الوزير، وهي في الشهر خمسة آلاف دينار، وراتب غيره من الحواشي على مقتضى مراتبهم. العرض الثاني: حواشي الخليفة، وأولهم الأستاذون على رتبهم وجواري خدمهم، فزمام القصر وصاحب بيت المال وحامل الرسالة وصاحب الدفتر ومساد التاج وزمام

الأشراف وصاحب المجلس، لكل واحد منهم مائة دينار في كل شهر، ومن دونهم ينقص عشرة دنانير حتى يكون آخرهم من له في كل شهر عشرة دنانير، وتزيد عدتهم على ألف نفس، والطبيبان الخاصان لكل واحد منهما خمسون ديناراً، ولمن دونهما من الأطباء برسم المقيمين بالقصر لكل واحد عشرة دنانير. *العرض الثالث*: يتضمن أرباب الرتب بحضرة الخليفة، فأولهم كاتب الدست الشريف وجاريه مائة وخمسون ديناراً، ولكل واحد من كتابه ثلاثون ديناراً، ثم صاحب الباب وجاريه مائة وعشرون ديناراً، ثم حامل السيف وحامل الرمح لكل واحد منهما سبعون ديناراً، وبقية العساكر والسوقان من خمسين إلى أربعين إلى ثلاثين ديناراً. *العرض الرابع*: يشتمل على المستقر لقاضي القضاة ومن يلي قاضي القضاة مائة دينار، وداعي الدعاة مائة دينار. *العرض الخامس*: يشتمل على من يجري مجراهم، وأولهم من يتولى ديوان النظر وجاريه سبعون ديناراً، وديوان التحقيق جاريه خمسون ديناراً، وديوان المجلس أربعون ديناراً، وصاحب دفتر المجلس خمسة وثلاثون ديناراً، وكاتبه خمسة دنانير، وديوان الجيوش وجاريه أربعون ديناراً، والموقع بالقلم الجليل ثلاثون ديناراً.

الديوان الخامس: ديوان الإنشاء والمكاتبات، وكان لا يتولاه إلا اجل كتاب البلاغة، ويخاطب بالشيخ الأجل، ويقال له كاتب الدست الشريف، ويتسلم المكاتبات الواردة مختومة، فيعرضها على الخليفة وهو الذي يأمر بتتزيلها (لعلها بتذيّلها) والإجابة عنها للكتاب، والخليفة يستشيره في اكثر أموره ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه. وهذا أمر لا يصل إليه غيره، وربما بات عند الخليفة ليالي، وكان جاريه مائة وعشرون ديناراً في الشهر، وهو أول أرباب الاقطاعات، وأرباب الكسوة والرسوم والملاطفات، ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه

بالقصر ولا يجتمع بكتابه أحد، إلا الخصوص وله صاحب من الأمراء والشيوخ الفراشون، وله المرتبة والمسند والدواة، لكنها بغير كرسي، وهو من أخص الدواوين ويعملها أستاذاً من أستاذي الخليفة.

الديوان السادس: ديوان التوقيع بالقلم الدقيق، وكان لابد للخليفة من جليس يذاكره ما يحتاج إليه من كتاب الله، وتجويد الخط، وأخبار الأنبياء والخلفاء، فهو يجتمع به في اكثر الأيام ومعه أستاذ مؤهل لذلك، فيكون الأستاذ ثالثهما، ويقرأ على الخليفة ملخص السير ويكرر عليه مكارم الأخلاق، وله بذلك رتبة عظيمة تلحق برتبة كاتب الدست، ويكون عنده دواة محلاة، فإذا فرغ من المجالسة ألقى في الدواة كاغد فيه عشرة دنانير وقرطاس فيه ثلاثة مناقيل من الندم المثلث الخالص، ليتبخر به عند دخوله على الخليفة ثاني مرة، وله منصب التوقيع بالقلم الدقيق، وله سند وفراض يقدم إليه ما يوقع عليه، وله موضع من حقوق ديوان المكاتبات لا يدخل عليه أحد إلا بأذن ،وهو يلي صاحب ديوان المكاتبات في الرسوم والكساوى وغيرها.

الديوان السابع: ديوان التوقيع بالقلم الجليل وهي رتبة جليلة، ويقال لها الخدمة الصغرى، وله المسند بغير حاجب وإنما فراش لترتيب ما يوقع فيه.

الديوان الثامن: ديوان مجلس النظر في المظالم، كانت الدولة إذا خلت من وزير جلس صاحب الباب في باب الذهب بالقصر، وبين يديه النقباء والحجاب، فينادي المنادي بين يديها: يا أرباب الظلامات، فيحضرون، فمن كانت ظلامته مشافهة أرسلت إلى الولاة والقضاة رسالة بكشفها. ومن تظلم ممن ليس من أهل البلد أحضرت قصة بأمره، فيتسلمها الحاجب، فإذا جمعها أحضرها إلى الموقع بالقلم الدقيق، فيوقع عليها، ثم تحمل إلى الموقع بالقلم الجليل، فيبسط ما أشار

إليه الموقع الأول في خريطة إلى الخليفة، فيوقع عليه، ثم تخرج الخريطة إلى الحاجب، فيقف على باب القصر، ويسلم كل توقيع إلى صاحبه. فإن كان له وزير صاحب سيف جلس للمظالم بنفسه وقبالته قاضي القضاة، ومن جانبيه شاهدان معتبران، وعن جانب الوزير الموقع بالقلم الدقيق، ويليه صاحب ديوان المال، وبين يديه صاحب الباب واسفهسلار العساكر، وبين أيديهما النواب والحجاب على طبقاتهم، ويكون الجلوس بالقصر في مجلس المظالم في يومين من الأسبوع. وكان الخليفة إذا رفعت إليه القصة وقع عليها هذه العبارة: يعتمد ذلك إن شاء الله تعالى. ويوقع في الجانب الأيمن منها، فتخرج إلى صاحب ديوان المجلس، فيوقع عليها جليلاً، ويخلي مكان العلامة فيعلم عليها الخليفة، وتثبت. وكانت علامتهم: الحمد لله رب العالمين، وكان الخليفة يوقع في المسامحة والتسوية والتحبيس: قد أنعمنا بذلك أو قد أمضينا ذلك.

الديوان التاسع : صاحب الباب، وينعت صاحب هذه الخدمة أولا بالمعظم، وله نائب، وتسمى الخدمة بالنيابة الشريفة، وأنها مميزة ولا يليها إلا أعيان العدول وأرباب العمائم، وينعت بمدي الملك، وهو الذي يتلقى الرسل الواصلة من الدول، ومعه نواب الباب في خدمته، فيحفظهم وينزلهم بالأماكن المعدة لهم، ويقدمهم للسلام على الخليفة والوزير مع صاحب الباب، فيكون صاحب الباب يميناً وهو يساراً. ويلي رتبة صاحب الباب الاسفهسلار، وهو زمام على زمام، واليه أمور الأجناد.

الديوان العاشر: ديوان قاضي القضاة، وكان من عادة الدولة إذا كان وزير فأن الوزير يقلد القضاء رجلاً نيابة عنه، وهذا حدث من عهد الأمير بدر الجمالي. وإذا كان الخليفة مستبداً ليس له وزير قلد القضاء رجلاً ونعته بقاضي القضاة. ورتبته

أجل رتب أرباب العمائم وأرباب الأقلام، ويكون في بعض الأوقات داعياً، فيقال له (ح) قاضي القضاة وداعي الدعاة، ولا يخرج شيء من الأمور الدينية عنه، ويجلس السبت والثلاثاء، ويجلس الشهود حواليه، يميناً ويساراً، بحسب تاريخ عدالتهم. وبين يديه خمسة من الحجاب، اثنان بين يديه يقابلان اثنين، وله كرسي الدواة، وهي دواة محلاة بالفضة، تحمل إليه من خزائن القصور، ولها حامل بجا مكية في الشهر على الدولة. ويقدم له من الاصطبلات برسم ركوبه على الدوام بغلة شهباء، وهو مخصوص بهذا اللون من البغال، دون أرباب الدولة، وعليها من خزانة السروج سرج محلي تقبل وراءه دفتر فضة، ومكان الجلد حرير، وتأتيه في المواسم الأطواق، ويخلع عليه الخلع المدهشة، بلا طبل ولا بوق، إلا إذا كان ولي الدعوة مع الحكم. فأن الدعوى في خلعها الطبل والبوق والبنود الخاص نظير البنود الخاص التي يشرف بها الوزير. وحوالي قاضي القضاة القراء، وبين يديه المؤذنون، يعلنون بذكر الخليفة والوزير. ويحمل بنواب الباب والحجاب ولا يتقدم عليه أحد في محضر هو حاضره من صاحب سيف وقلم، ولا سبيل إلى قيامه لأحد في مجلس الحكم، ولا يعدل شاهد إلا بأمره، ويجلس بالقصر في يومي الاثنين والخميس، أول النهار. وللسلام على الخليفة ونوابه، لا يفترون عن الأحكام ويحضر إليه وكيل بيت المال، وكان له النظر في ديوان الضرب ليضرب من الدنانير. وكان يحضر مباشرة التعليق بنفسه، ويختم عليه، ويحضر لفتحه، وكان القاضي لا يصرف إلا بجنحة. ولا يعدل أحد إلا بتزكية عشرين شاهداً، عشرة من مصر وعشرة من القاهرة، ولا يحتمي أحد على الشرع، ومن فعل ذلك أدب. والسقيف للخليفة، وهي موضوع من جملة القصر الكبير، يقف عنده المتظلمون. وكانت عادة الخليفة أن يجلس هناك كل ليلة لمن يأتيه من المتظلمين، فإذا ظلم أحد وقف تحت السقيفة، وقال بصوت عال: لا إله إلا الله محمد رسول

الله فيسمعه، الخليفة فيأمر بإحضاره، ويفوض أمره إلى الوزير أو القاضي أو الوالي. وكان الكُتّاب إلى الأعمال نصارى.

أقول إذا علمت ما نقلناه لك من هذه المجالس المرتبة على تلك الترتيبات، ارتفع عن خاطرك أيها الواقف على ترتيب المجالس في هذا العصر على الوجه المخصوص بما يختلج فيه شائبة الإنكار، لأن لكل سلطان أن يخترع في سياسة الملك ما يليق بعصره مع رعاية الشرع الشريف، والشرع ولله الحمد في غاية الرعاية لدى السلطان، كما هو معلوم من نصب شيوخ الإسلام والنواب والمفاتي في دار الخلافة وغيرها من البلاد. وغاية الأمر أنهم جعلوا للنواب مجالس وهو من الأمور الحسنة إلى النائب، بعد هذا سدت عليه سبب الارتشاء، وإبطال الحقوق بالمحاباة، كما شاهدناه من أكثر نواب عصرنا قبل هذا، حتى أن بعض القضاة الجهلة كان يتوسط وكلاء المحكمة بعمل أحكام الشرع ملعبة، عاملهم الله تعالى بعدله، ولله الحمد على زوال تلك الحلة الشنيعة، التي كانت تخزي الإسلام لدى سائر الملل. ولا بأس بتسمية القاضي مفتش الأحكام، كما أنه لا بأس بتسمية داعي الدعاة في زمن ملوك مصر الماضين، لأن مفتش الأحكام، بمعنى أنه ناظر على حكام الشرع ونوابه، ومفتش عن أحوالهم وأحكامهم. وهو حسن نعم يجب أن يكون المفتش والنائب من العلماء الأعلام، وكذا من يجلس معهما، ثم إن جميع ما ذكرته إنما هو لأجل إيقاظ الرعية من الغفلة وحثهم على الاهتمام والسعي في الحرث وكسب العلوم والمعارف، والتشبث بأسباب العمارة وترك ما لا يعني من القال والقيل والبطالة، وحث الوزراء والأمراء على التشبث بأسباب العمارة وحث الناس عليها، ورعاية الرعايا بتخفيف الأثقال عنهم. فقد ذكر المقريزي في تاريخ مصر نقلا عن أبي قبيل: إنه روي عن بعض مشايخ مصر أن

الذي كان يعمل به بمصر على عهد ملوكها أنهم كانوا يقرون القرى في أيدي أهلها، كل قرية بكري معلوم لا ينقص عنها إلا في كل أربع سنين من اجل الظمأ، وتنقل البسار، فإذا مضت أربع سنين نقض ذلك وعدل تعديلاً جديداً، فيرفق بمن استحق الرفق، ويزداد على من احتمل الزيادة، ولا يحمل عليهم من ذلك ما يثني عليهم، فإذا بني الخراج جمع وكان للملك من ذلك الربع خالصاً لنفسه يصنع به ما يريد، والربع الثاني لجنده ومن يقوى به على حرب عدوه وجباية خراجه ودفع عدوه، والربع الثالث في مصلحة الأرض وما تحتاج إليه من جسورها وحفر خلجها وبناء قناطرها، والقوة للزراعين على زرعهم، وعمارة أرضهم، والربع الرابع يخرج منه ربح ما يصيب كل قرية من خراجها، فيدفن ذلك لنائبة تنزل أو حاجة بأهل القرية، والذي يدفن في كل قرية من خراجها هو كنوز فرعون. ومن عمارة بعض ملوك مصر أنه أرسل وبه فتح إلى اسفل الأرض، وإلى الصعيد في وقت تنظيف الأرض والترع من العمارة، فلم يوجد لها أرض فارغة تزرع فيها، وانه كان عند تناهي العمارة يرسل أربع وقيات برسيم إلى الصعيد، وإلى اسفل الأرض، والى أي كورة. فان وجد لها موضعاً خالياً فزرعت فيه ضرب عنق صاحب الكورة، وكانت مصر يومئذ عمارتها متصلة أربعين فرسخاً في مثلها، والفرسخ ثلاثة أميال والبريد أربعة فراسخ. ولم تزل الفراعنة تسلك هذه المسالك إلى أيام فرعون موسى، فأنه عمرها عدلا وسماحة، وتتابع الظمأ ثلاث سنين في أيامه، فترك لأهل مصر خراج ثلاث سنين، وانفق على نفسه وعساكره من خزانته. ولما كان في السنة الرابعة اضعف الخراج واستمر فاعتاض ما انفق، وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى عمرو بن العاص (وردت العباس) رضي الله تعالى عنه: أن اسأل المقوقس عن مصر من أين تأتي عمارتها وخراجها، فسأله عمرو، فقال له المقوقس: عمارتها وخراجها من وجوه خمسة: أن يستخرج

خراجها في أبان واحد عن فراغ أهلها من زرعهم، ويرفع خراجها في أبـان واحـد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم، ويحفـر في كـل سـنة خلجاتهـا، وتسـد ترعهـا وجسورها، ولا يقبل مطل أهلها بريد البغي. فإذا فعل هذا فيها عمرت، وأن عمل فيها بخلافه خربت. وقـال عمـرو بـن العـاص (وردت العبـاس) رضـي الله عنـه للمقوقس أنت وليت مصر فبم تكون عمارتها؟ فقال: بخصال أن تحفروا خلجانهـا وتسد جسورها وترعها ولا يؤخذ خراجها إلا من غلتهـا، ولا يقبـل مطـل أهلهـا، ويوفى لهم بالشروط، ويدر الأرزاق على العمـال لئـلا يرتشـوا، ويرتفـع عـن أهلـه المعاون والهدايا ليكون قوة فبذلك تعمر ولا يرجى خرابها.

ولما استبطأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخراج من قبل عمـرو بـن العـاص كتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنـين إلى عمرو بن العاص، سلام الله عليك، فإني احمد الله الـذي لا إلـه إلا هـو، أمـا بعد، فإني فكرت في أمرك والذي أنت عليـه فـإذا أرضـك تـرض واسـعة عريضـة رفيعة، وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة في بـر وبحـر، وأنهـا قـد عالجتهـا الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مـع شـدة عتوهـم وكفرهـم، فعجبـت مـن ذلـك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديـه مـن الخـراج قبـل ذلـك على غير قحط ولا جدب، ولقد أكـثرت مـن مكـاتبتك في الـذي علـى أرضـك مـن الخراج، وظننت أن ذلك سـيأتينا علـى غـير نـزر، ورجـوت أن نفيـق فـترفع إلي ذلك، فإذا أنت تأتيني بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذي في نفســي، لسـت قـابلا منك دون الذي كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك. ولست أدري، مع ذلـك مـا الذي نفرك من كتـابي وقبضـك، فلئـن كنـت مجرمـاً كافيـاً صحيحـاً مـن الـبراءة النافعة، وأن كنت مضيعاً نطعاً. أن الأمر لعلى غير مـا تحـدث بـه نفسـك، وقـد

تركت أن ابتلى ذلك منك في العام الماضي، رجاء أن تفيق وترفع إليَ ذلك، وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن أعمالك أعمال السوء، وما توالى عليك وتلفف. واتخذوك كهفاً، وعندي بأذن الله تعالى دواء فيه شفا عنا أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق، وتعطاه، فأن النهر يخرج الدر والحق ابلج، ودعني وما عنه تلجلج فأنه قد برح الخفاء والسلام.

فكتب إليه عمرو بن العاص: باسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله أمير المؤمنين من عمرو بن العاص، سلام الله عليك، فأني احمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فقد بلغني كتابك يا أمير المؤمنين في الذي استبطاني فيه من الخراج، والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلي، وعما به من خراجها على أيديهم، ونقص ذلك منها مذ كان الإسلام، ولعمري الخراج يومئذ أوفر والأرض أعمر، لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا مذ كان الإسلام. وذكرت أن النهر يخرج الدر فجلبتها حلباً قطع درها، وأكثرت في كتابك وأنبت وعرضت أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر، فجئت لعمري بالمقطعات المقدمات، ولقد كان لك من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق، وقد عملنا لرسول الله ﷺ ولمن بعده، فكنا نحمد الله مؤدين لأماناتنا حافظين، لما عظم الله من حق أمتنا، ترى غير ذلك قبيحاً، والعقل به شيئاً، فنعرف ذلك لنا ونصدق فيه قلبنا معاذ الله من تلك الطعم. ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأنم، فأمض في عملك فأن الله قد نوهني عن تلك الطعم الدنيئة والرغبة فيها، بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضاً، ولم تكرم فيه أخاً، والله يا ابن الخطاب، لا تلحين براد ذلك مني اشد غضباً لنفس ولها إنزاها وإكراما. وما عملت من عمل أروى عليه فيه متعلقاً، ولكني حفظت ما لم تحفظ، ولو كنت من يهود يثرب ما زدت. يغفر الله لك ولنا

وسكت عن أشياء كنت بها عالماً، وكان اللسان بها مني ذلـولاً، ولكـن الله اعظـم من حقك ما لا يجهل إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، سـلام الله عليـه، فـأني احمـد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فأني قد عجبـت مـن كـثرة كتـبي إليـك في إبطـائك بالخراج، وكتابك إلى بينات الطرق، وقد علمت أني لست أرضى منك إلا بـالحل المبين، ولم أقدمـك إلى مصر اجعلهـا لـك طعمـة ولا لقومـك. ولكـني وجهتـك لمـا رجوت مـن توفـيرك الخـراج وحسـن سياسـتك، فـإذا أتـاك كتـابي هـذا فـاحمل الخراج، فإنما هو فيء المسلمين، وعندي من قد تعلم قوم محصورون، والسلام.

فكتب إليه عمرو بن العاص: بسم الله الرحمن الرحيم لعمر بـن الخطـاب مـن عمرو بن العاص، سلام الله عليك، فأني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أمـا بعـد، فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يستبطئني في الخراج، ويزعم أني أحيد عن الحـق، وانكب عن الطريق، وأني والله ما أرغب عن صالح مـا تعلـم، ولكـن أهـل الأرض استنظروني إلى أن تدرك غلتهم، فنظرت للمسلمين، فكان الرفق بهم خيراً مـن أن نخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غناء بهم عنه، والسلام.

وكتب عمر بن الخطاب رضـي الله عنـه إلى عمـرو بـن العـاص: أن أبعـث إلي رجلاً من أهل مصر، فبعث إليه رجلاً من القبط، فأستخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن مصر وخراجها قبل الإسلام. فقال: يـا أمير المؤمـنين كـان لا يؤخـذ منها إلا بعد عمارتها، وعاملك لا ينظر إلى ذلك، بل يأخذ ما ظهـر لـه، كأنـه لا يريدها إلا لعام واحد. فعرف عمر بن الخطاب رضي الله عنـه مـا قـال وقيـل مـن عمرو، وما كان يتعذر به. هذا، وكان من خير أراضي مصر بعـد نـزول العـرب في أريافها، واستيطانهم فيها، واتخاذهم الزرع معاشاً وكسباً.

أن متولي خراج مصر كان يجلس في الوقت الذي تتهيأ فيه قبالة الأراضي، وقد جمع الناس من القرى والمدن، فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات، وكتاب الخراج بين يدي متولي الخراج، يكتبون ما ينهى إليه مبالغ الكور والصفقات على منْ ينقلها من الناس. وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين، فإذا انقضى هذا الأمر خرج من تقبل أرضاً وضمنها إلى ناحيته وزرعها وأصلح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله، ويحمل ما عليه من الخراج في أبانه على أقساط، ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه بتلك الأراضي، ما ينفقه على عمارة جسورها، وسد ترعها وحفر خلجها بضرابة مقدرة في ديوان الخراج. ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين. ويقال لما تأخر من مال الخراج البواقي، وكانت الولاة تشدد في طلب ذلك مرة وتسامح به مرة، فإذا قضي من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة وراكوا البلاد كلها وعدلوها تعديلاً جديداً، فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد، ونقص فيما يحتاج إلى التنقيص منها. ولم يزل عملهم جارياً على هذا المجرى. ولما رأى محمد بن فاتك البطائحي اختلال أحوال الرجال العسكرية والمقطعين وتضورهم من كون اقطاعاتهم قد خسرت نفقاتها، وساءت أحوالهم، لقلة المحصول منها. وأن اقطاعات الأمراء قد تضاعف ارتفاعها، وازدادت مخاطب الأفضل ابن أمير الجيوش، في أن يحل الاقطاعات جميعها، وعرفه المصلحة في ذلك تعود على المقطعين والديوان، فأجابه إلى ذلك وحل جميع الاقطاعات وراكها. واخذ كل من الأقوياء والمتجبرين يتضورون ويذكرون أن لهم بساتين وأملاكاً في نواحيهم، فقال: من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل في هذا الاقطاع، إن شاء باعه وإن شاء اجره. فلما حلت الاقطاعات أمر الضعفاء أن يتزايدوا فيها فوقعت الزيادة في اقطاعات الأقوياء، إلى أن انتهت إلى مبلغ معلوم، وكتبت السجلات وصار بقائها في أيديهم إلى مدة

ثلاثين سنة. لا يقبل عليهم فيها زائد. واحضروا أقوياء وقال لهم: ما تكرهون من الاقطاعات التي كانت بيد الأجناد؟ قالوا كثر تغيرها وقلة متحصلها وخرابها، وقلة الساكن. فقال لهم: ابذلوا في كل ناحية ما تحمله وتقوى رغبتكم فيه، ولا تنظروا في العبرة الأولى. فعند ذلك طابت نفوسهم وتزايدوا فيها إلى أن بلغت إلى الحد الذي يرغب كل منهم فيه. فاقطعوا فيه. وكتب لهم السجلات فشملت المصلحة الفريقين. وطابت نفوسهم. ولما انتهى إلى المأمون ما يعتمد في الدواوين من قبول الزيارات وفسخ عقود الضمانات وانتزاعها ممن كابد فيها المشقة والتعب، وتسليمها إلى باذل الزيادة من غير كلفة ولا نصب. أنكر ذلك ومنع ارتكابه ونهى عن الولوج في بابه. وخرج أمره بإعفاء الكافة. وتضمن ذلك منشور قُرأ في الجامعين الأزهر بالقاهرة والعتيق بمصر، وفي ديوان المجلس الخاص. ومما لا غنى للأراضي عنه الجسور وهي على قسمين: سلطانية وبلدية. فالجسور السلطانية هي العامة النفع. وأما الجسور البلدية فأنها عمارة مما يخص نفسها ناحية دون ناحية. ويتولى إقامتها المقطعون والفلاحون من أهل الناحية.

قال أبو بكر بن وحشية (وردت وحنية) في كتاب الفلاحة، وذكر أن مصر إذا زرعوا يخرج من المد ثلثمائة مد. والعلة في ذلك حرارة هواء بلادهم مع سمن أرضهم وكثرة دورة ماء النيل. وكان يزرع الشعير في أثر القمح وغيره في الأرض التي غرقت. وهي رطبة وتتقدم زراعته على زراعة القمح بأيام، وكذلك حصاده فانه يحصد قبل القمح. ويحتاج الفدان من الذرة إلى ثلاث وقيات. ويتحصل من فدانه ما بين عشرين أردبا. ويزرع العدس والحمص، والحلبان لا يزرع إلا في ارق الأراضي حرثاً من الأراضي العالية. ويبذر في كل فدان من الحمص من اردب إلى ثمان وقيات. ومن الحلبان من اردب إلى أربع وقيات، ومن العدس من وقيتين إلى

ما دونهما. والكتان إذا زرع يحتاج إلى أن يسبخ بتراب سباخ، وهو إذا طال قد يقلع قضباناً وينشر في موضعه حتى يجف، فإذا جف صقل وعزل جوزه، فيخرج منه بذر الكتان، ويستخرج منه الزيت الحار، ويحتاج الفدان أن يبذر فيه من البذر ما بين اردب وثلث إلى ما دون ذلك، ويخرج من الفدان ما بين ثلثين شدة إلى ما دون ذلك، وأجود ما يكون الكتان إذا زرع في البرنس الجنوبية، وهذه من الأصناف الشتوية.

وأما الأصناف الصيفية، فاللوبياء والبطيخ والقطن وقصب السكر. ويحتاج القصب إلى أرض جيدة، قد شملها الري وعلاها الماء، وقلع ما بها من غلة الحلفاء، ونظفت ثم برشت بالمقلقلات: وهي محاريث كبار لها ستة وجوه. وتجرف حتى تتمهد ثم تبرش سنة وجوه أخرى وتجرف. ومعنى البرش: الحرث، فإذا أصلحت الأرض وطابت ونعمت، وصارت تراباً ناعماً، وتساوت بالتجريف شقت (ح) بالمقلقلات. ويرى فيها القصب قطعتين، قطعة خشناء وقطعة مفردة، بعد أن تجعل الأرض أحواضاً، وتفرز لها جداول يصل الماء منها إلى الأحواض، ويكون طول كل قطعة من القصب ثلاثة أنابيب كوامل، وبعض أنبوبة من أعلى القطعة، وبعض أخرى من أسفلها، ويختار ما قصرت أنابيبه، وكثرت كعوبه من القصب، فإذا أكمل نصاب القصب أعيد التراب عليه، ولابد في النصبان تكون القطعة ملقاة لا قائمة، ثم يسقى من حين نصبه في أول صيف الربيع، لكل سبعة أيام مرة، فإذا أنبت القصب وصار أوراقاً ظاهرة نبتت معه الحلفاء، والمقلدة الحلفاء. فعند ذلك تفرق أرضه. ومعنى الفراق: أن تنكمش أرض القصب وتنظف ما نبت مع القصب، ولا يزال يتعاهد ذلك حتى يغرز القصب، ويقوى ويتكاثف. ومجموع ما يسقى بالقادوس ثمانية وعشرون ماء، ويدخل حتى

يعلو على أرض القصب، نحو شبر، ثم يقطع عنه الماء، ويترك فوق الأرض، قدر ساعتين أو ثلاث، ثم يصرف من جانب آخر حتى ينضب كله، ويجدد عليه ماء آخر. كذلك يتعاهد ما ذكرناه مراراً في أيام متفرقة، بقدر معلوم، ثم يفطم بعد ذلك، فإذا عمل ما قلنا في القصب حقه، وإن نقص عن ذلك شيء حصل فيه الخلل. ولابد للقصب من القطران قبل أن يحلو، ولابد من حرق آثار القصب بالنار، ثم سقيه وغرقه كما تقدم، فينبت قصباً يقال له الخلفة، ويسمى الأول الرأس، وقنود الخلفة أجود من قنود الرأس، غالباً. ويحصل من الفدان ما بين أربعين ابلوجة قندالي ثمانين ابلوجة، والبلوجة تسع قنطار، فما حوله. وسبب أتضاع مزاج مصر بعد أن كان بحيث لا يحصى أن الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان ينفق في كلف عمارة الأرض، فأنها تحتاج إلى أن ينفق عليها ما بين ربع متحصلها إلى ثلثه، هذا ما كان في عصر المقريزي.

أقول، وأما مصر في هذا العصر فإنها على ما شاهدتها وتتبعت ما فيها. أما من حيث العلم، ففيها العلماء الأعلام من ذوي التقرير والتحرير. وأما من حيث طلبة العلم، فقد بلغوا مراتب الألوف، ولهم المصنفات العديدة في كل فن، وحق لها أن تسمى اليوم بدار العلم كالنجف قرب بغداد. وأما من حيث التجارة فذلك غني عن البيان على ما يشهد به كمرك الاسكندرية، وتوارد التجار إليها من الدول الأجنبية. وأما من حيث المطابع فهو معلوم من الكتب المطبوعة فيها، الواردة إلى جميع البلدان، كتحفة العلامة ابن حجر، وحاشية الدار للطنطاوي، وحاشيته لابن عابدين الدمشقي، مع فتاواه، والخيرية وغيرها من الكتب الفقهية، على مذهب الإمام الأعظم والإمام الشافعي رضي الله عنهما. وكالأغاني وشرح الناموس، وشرح مجمع الأمثال، وإحياء العلوم، وتاريخ ابن خلدون، وابن خلكان،

والمقريزي، وشرح المواهب اللدنية والموطأ للزرقاني، والمزهر للحافظ السيوطي وغيرها من كتب الدين والأدب، والالات والتواريخ المعتبرة.

وأما من حيث الحراثة والزراعة وحفر الأنهار والخلج وإجراء السفن فهو مما لا يحصى. وإني لما سافرت إلى حج بيت الله الحرام، وزيادة خير الأنام عليه وعلى آله وصحبه افضل الصلاة والسلام من مصر على طريق السويس رأيت العجب من ذلك. وأما من حيث سكك الحديد فمشاهد ومسموع ما ينقل فيها من أموال التجارة والحجاج وسائر الواردين، مما يتعجب منها الناظر. ولقد ركبت سكة الحديد من الاسكندرية إلى مصر ومنها إلى السويس فشاهدت خلائق كثيرة وأموالا عظيمة، وتعجب من ذلك غاية العجب. هذا، وأنت إذا دخلت مصر واسكندرية ونواحيها لا تجد أحداً بلا عمل، إلا بعض الغرباء، فهي مشحونة بالأعمال والحراثة والصنائع والمطابع، والعساكر، والمصارف، والعلم والعلماء، والطلبة والكتاب، والتجار والمهندسين والحساب، وأهل الكسب من كل صنف، زادها الله تعالى عمارة لنفع الدين والدولة. إذا تقرر هذا فليعلم الناس إنه يجب عليهم خدمة الدين والدولة والصدق، ويبذل الجهد والسعي والإعانة بالأنفس والأموال، ولا تكون همتهم البطالة فأن بذلك تكون قوة الدولة الموجبة لقوة الدين.

روى المقريزي: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتاه اناس من أهل الشام فقالوا: أصبنا دواباً وأموالا. فخذ منها صدقة تطهرنا بها، فقال: كيف افعل ما لم يفعل من كان قبلي؟ وشاور، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا بأس به أن لم يأخذه من بعدك، فأخذ عن العبد عشرة دراهم، وكذلك عن الفرس، وعن الهجين وعن البرذون، والبقل خمسة.

أقول الظاهر من أخذ عمر رضي الله عنه إلى قول علي رضي الله عنه أن لم يأخذه من بعدك، وأداء اجتهاده إلى الأخذ لمصلحة بيت المال. ومع ذلك، فلو كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه في عصرنا هذا، ورأى مضايقة بيت المال وسعة العساكر والمصارف اللازمة، مع قوة سائر الدول المخالفة للإسلام لحكم بالأخذ لسعة خزائن بيت المال، حفظاً لبيضة الإسلام. كما لا يخفى على من دقق النظر وأنص وأول من وضع على الحوانيت الخراج في الإسلام أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور في سنة سبع وستين ومائة، وولي ذلك سعيد الجرسي. وأول من احدث مالا، سوى مال الخراج بمصر، احمد بن محمد بن مدبر، لما ولي خراج مصر سنة خمسين ومائتين، فأنه كان من دعاة الناس وشياطين الكتاب، فأبدع في مصر بدعا استمرت من بعده، وقرر على الكلأ الذي ترعاه البهائم مالاً سماه المراعي، وقرر على ما يخرج من البحر وسماه المصائد، إلى غير ذلك. ولما ولي أمير المؤمنين أبو العساب أحمد بن طولون عمارة مصر، وأضاف إليه أمير المؤمنين المعتمد على الله الخراج والغفور (لعلها الثغور) الشامية تنزه عن ادناس المعاون، وكتب بإسقاطها إلى جميع الأعمال، وكانت تبلغ بمصر خاصة مائة ألف دينار في كل سنة، ثم أعيدت المعاون في ابتناء الدولة الفاطمية عندما ضعفوا، ولما استند السلطان الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف ابن أيوب لملك مصر أمر بإسقاطها، وتسمى مكوس مصر، فكتب له القاضي الفاضل مرسوماً بذلك. وأصل ذلك في الإسلام أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلغه أن تجاراً من المسلمين يأتون أرض الجند فيأخذون منها العشر، فكتب إلى أبي موسى الاشعري، وهو على البصرة، أن خذ من كل تاجر يمر بك من المسلمين من كل مائتي درهم خمسة دراهم، وخذ من كل تاجر من تجار العهد، يعني أهل

الذمة، من كل عشرين درهماً درهماً، ومن تجار الحرب من كل عشرة دراهم درهماً، فاحدث الولاة بعد ذلك أموالا شيئاً بعد شيء، وسموها الأموال الهلالية.

وأما الأموال الخراجية فما يؤخذ من الأراضي التي تزرع نخلا وعنباً وفاكهة وحبوباً، ويؤخذ من الفلاحين مثل الغنم والدجاج والكشك وغيره على طريق الهدية. وكان مكس البهار ثلاثة وثلاثون ألفاً وثلثمائة وأربعة وستون ديناراً، ومكس البضائع والقوافل تسعة آلاف وثلثمائة وخمسون ديناراً، والنحاس والمرجان خمسة آلاف ومائة وثلاثة وتسعون ديناراً، ورسوم دار القند ثلاثة آلاف ومائة وثمانية دنانير، ورسوم الخشب الطويل والملح ستمائة وستة وسبعون دينارا، ورسوم فندق القطن ألف دينار. وسوق الغنم وعبور الأغنام والكتان والأبقار بباب القنطرة ألف ومائة دينار، وما ورد من الكتان الحطب إلى الصناعة مائتا دينار، ورسوم الغلات كالحبوب وغيرها ستة آلاف دينار، ومكس الأغنام مائة وتسعون ديناراً، وما يرد من الكتان من القبلة ومن البضائع الواردة من الفيوم وغيره أربعة آلاف ومائة وستون ديناراً، ومكس الورق المجلوب إلى الصناعة ورسم التفتيش مائتا دينار، والحصة بساحل الغلة والأقوات سبعمائة وثمانية وستون ديناراً. ودار التفاح والرطب بمصر والعرصة بالقاهرة ألف وسبعمائة دينار، ودار الجبن ألف دينار، ورسم الحلي الوارد من الوجه البحري والقطن ألف وعشرون ديناراً، ورسم الحمام بساحل الغلة خمسمائة وأربعة وثلاثون ديناراً، والحلفاء الواردة في البرد ثمانمائة دينار، ورسم الفحم الوارد إلى القاهرة عشرة دنانير، ورسوم الدلالة ثلثمائة دينار، ودكان الدهن ومعصرة الشيرج (هكذا وردت)، والخل بالقاهرة خمسمائة دينار، وبيوت الغزل والمصطبة ثلثمائة وخمسون ديناراً، وذبائح الأبقار ألف دينار، وسوق السمك بالقاهرة ومصر(وردت مصرف) ألف ومائتا دينار، ومربعة

العسل مائتا واثنان وثلاثون ديناراً، ومعادن جزيرة الذهب وغيرها ثلثمائة دينـار، وخاتم الشمع بالقاهرة ثلاثة وستون ديناراً، وضريبة الذبيحة سبعمائة دينار، وحمولة السلجم ثلثمائة وثلاثون ديناراً، ودكة الدباغ ثمانمائة دينار، وسوق الدقيق خمسمائة دينار، ومعمل الطير مائتان وأربعون ديناراً، وتنور الشوي مائة دينـار، ومطابخ السكر مائة وخمسة وثلاثون ديناراً، وسوق الدواب بمصر والقاهرة أربعمائة دينار، وسوق الجمال مائتان وخمسون ديناراً، وقبان الحناء ثلاثون ديناراً، وطاقات الأدم ستة وثلاثون ديناراً، ومنغلت الخام بالشاشين ثلاثة وثلاثون ديناراً، وانولة القصار أربعون ديناراً، وبيوت الفروخ ثلاثون ديناراً، والشعر أربعة دنانير، ورسوم الصبغ والحرير ثلثمائة وأربعة وثلاثون ديناراً، ووزن الطفل مائة واربعون ديناراً، ومعمل البزر أربعة وثمانون ديناراً، والفاخور بمصر والقاهرة مائتان وستة وثلاثون ديناراً.

وذكر ابن أبي علي أن الذي أسقطه السلطان صلاح الدين، وسامح به مبلغاً عن نيف ألف ألف ديناراً، وألفي ألف أردب سامح بذلك وأبطله من الدواوين، وأسقطه عن العاملين، رغبة غي مساعدة الرعايا، وتعمير البلاد بالحرث والتجارة والصنائع وغير ذلك، مما يوجب النفع مع راحة العباد. وسلك هذا المسلك الحسن بعض ملوك الفاطمية بمصر، ويدل عليه المنشور الذي كتبه قاضي القضاة جلال الملك أبو الحجاج، يوسف بن أيوب المغربي، وهو قد علم الكافة ما عراه من إفاضة سحب العدل عليهم والإحسان والنظر في مصالح كل قاص ودان. وإنا لا ندع ضرراً يتوجه إلى أحد من الرعية إلا حسبناه، ولا نعلم صلاحاً يعود نفعاً إلى أحد إلا قوينا سببه، ووصلناه حسبما يتعين على رعاة الأمم، وعملاً بالواجب وسلوكاً لمحجة الدولة الفاطمية واستمراراً على قضاياها وسجاياها الكريمة. وكما

نرى النظر في مصالح الرعايا أمراً واجباً، ونصرف إلى سياستهم عزماً ماضياً ورأياً ثاقباً، كذلك نرى النظر في أمور الدواوين واستيفاء حقوقها المسروقة إلى حماية البيضة، والمحاماة عن الدين والجهاد ليكون ما نراعيه وننظر فيه جارياً عن سنن الواجب، محروساً عن الخلل بأذن الله تعالى من جميع الجوانب. ومن الله نستمد مواد التوفيق في الحل والعقد، ونسأله الإرشاد إلى سواء السبيل والقصد، وما توفيقنا إلا بالله عليه نتوكل، وهو حسبنا ونعم الوكيل. وكان القاضي الرشيد من الزبير أيام مشارفته الصعيد الأعلى، قد طالع المجلس الافضلي بحال أرباب الأملاك هناك، وأنهم قد استضافوا إلى أماكنهم من أملاك الدواوين، أراضي اغتنموها ومواضع مجاورة لأملاكهم تعدوا عليها ، وخلطوها وحازوها، ورسم له كشفها وقسم المشاريع بها وارتجعها إلى الدواوين، يعتمد في ذلك ما يوجبه حكم العدل المثبت في كل قطر ومكان. ويؤخر ذلك ميرنا من الباب من يكشف ذلك على حقيقة وإنهائه على طيته، فاعتمدوا ما أمرونا به من الكشف في هذه الأملاك، ووردت المطالعة منهم بأنهم التمسوا ممن بيده ملك أو ساقية ما يشهد بصحة ملكه ومبلغ فدنه، وذكر حدوده. فلم يحضر أحد منهم كتاباً، ولا أوضح جواباً، وأصدروا إلى الديوان المشاريع بما كشفوه وأوضحوه، وجدوا التعدي فيه ظاهراً، والشرع يوجب وضع اليد على من هذه حالة ومطالبة صاحبه بربحه، واستغلاله، ولا سيما وليس بيده كتاب يشهد بصحة الملك رأساً، ولا يستند في ذلك إلى حجة ادخرها. ولكن نحكم بما نراه من المصلحة المرعية والعدل، والذي أقمنا مناره وأحيينا معالمه وآثاره مع الرعية في تعمير البلاد ومصالح أحوالها واستنباط الأرضين الدائرة، وإنشاء العروش وإقامة السواقي.

أمرنا بكتابة هذا المنشور وتلاوته بأعمال الصعيد الأعلى، بإقرار جميع الأملاك والأرضين والسواقي بأيدي أربابها الآن، من غير إنتزاع شيء منها، ولا ارتجاعه، وأن يقرر عليها من الخارج ما يجب تقريره. ويشهد الديوان على أمثالهم بمثله إحساناً إليهم، لم يزل نتابع مثله ونواليه، وإنعاماً ما برحنا نعيده عليهم، ونبديه. وقد أنعمنا وتجاوزنا عما سلف، ونهينا منْ يستأنف، وسامحنا منْ خرج عن التعدي إلى المألوف، وجرينا على سنتنا في العفو والمعروف، وجعلناها نوبة مقبولة من الجماعة الجانين، ومنْ عاد من الكافة أجمعين، فلينتقم الله تعالى منه، وطولب بمستأنفه رأسه وبرأت الذمة من ماله ونفسه، وتضاعفت عليه الغرامة والعقوبة، وسدت في وجهه أبواب الشفاعة والسلامة. وقد فسحنا مع ذلك لكل من يرغب في عمارة أرض حلفاء، دائرة وإدارة بئر معطلة مهجورة في أن يسلم إليه ذلك ويقاس عليه، ولا يؤخذ منه خراج إلا في السنة الرابعة من تسليمه إياه، وأن يكون المقرر على كل فدان ما توجبه زراعته لمثله خراجاً مؤيداً وأمراً مؤكداً. فليعتمد ذلك النواب وحكام البلاد ومنْ جرت العادة بحضوره عند المجلس وإحضار جميع أرباب الملاك والسواقي، وأشعارهم ما شملهم من هذا الإحسان الذي تجاوز آمالهم في إجابتهم إلى ما كانوا يسألون فيه، وتقرير ما يجب على الأملاك المذكورة من الخراج على الوضع الذي مثلناه، ويجيز الديوان تقريره ويرضاه مع تضمين الأراضي الدائرة والآبار المعطلة، لمن يرغب في ضمانها ونظم المشاريع بذلك وإصدارها إلى الديوان ليخلد فيه على حكم أمثالها بعد ثبوت هذا المنشور.

ولما سرت هذه المصالح إلى جميع أهل هذه الأعمال حصل الاجتهاد في تحصيل مال الديوان، وعمارة البلاد. وقد كان للنظر في المظالم ديوان أفرد للمتظلمين

بالتناصف مع الرعية، وزجر المتنازعين على التجاحد بالهيبة. وكان من شرط الناظر في المظالم أن يكون جليل القدر، نافذ الأمر، عظيم الهيبة، ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع لأنه لا يحتاج في نظره إلى سطوة الحماة، وتشبث القضاة، فيحتاج إلى الجمع بين صفتي الفريقين، وأن يكون بجلالة القدر، وهي خطة جعلت لفساد الناس، وهي كل حكم يعجز عنه القاضي، فينظر فيه من أقوى منه يداً. وأول من نظر في المظالم من الخلفاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأول من افرد للظلامات يوماً، يتصفح فيه قصص المظلومين من غير مباشرة النظر عبد الملك بن مروان، فكان إذا وقف منها على مشكل واحتاج فيها إلى حكم ينفذ رده إلى قضابه (لعلها قضاته). ابن إدريس هو المباشر، وعبد الملك الأمير، وعمر بن عبد العزيز أول من ندب نفسه للنظر في المظالم وردها ثم جلس لها خلفاء بني العباس. وأول من جلس منهم المهدي محمد، ثم الهادي موسى، ثم الرشيد هارون، ثم المأمون، وآخر من جلس منهم المهتدي بالله محمد بن الواثق. وأول من أعلم، أنه جلس بمصر من الأمراء للنظر في المظالم الأمير أبو العباس أحمد ابن طولون. ولما قدم المعز لدين الله إلى مصر، وصارت دار خلافة استقر النظر في المظالم مدة يضاف إلى قاضي القضاة، وتارة ينفرد بالنظر فيه أحد عظماء الدولة، ولما ضعف جانب المستنصر بالله أبي نعيم معد بن الظاهر. وكانت الشدة العظمى بمصر قدام أمير الجيوش إلى بدر الجمالي الفاخرة، وولي الوزراء فصار أمر الدولة كله راجعاً إليه، واقتدى به من بعده من الوزراء، وكان الرسم في ذلك أن الوزير يجلس للمظالم بنفسه ويجلس قبالته قاضي القضاة، وبجانبه شاهدان معتبران، ويجلس بجانب الوزير الموقع بالقلم الدقيق ويليه صاحب ديوان المال، ويوقف بين يدي الوزير صاحب الباب واسفهسلار العساكر، وبين أيديهم الحجاب والنواب على طبقاتهم، ويكون هذا الجلوس يومين في الأسبوع. وآخر من

تقلد المظالم في الدولة الفاطمية رزبك بن الوزير الأجل الملك الصالح طلائع بن رزبك في وزارة أبيه، وكتب له سجل عن الخليفة. وكان السلطان يجلس في ديوان دار العدل بكرة الاثنين والخميس طول السنة، إلا شهر رمضان، للنظر في المظالم، وفيه تكون الخدمة العامة واستحضار رسل الملوك غالباً. فإذا جلس للمظالم كان جلوسه على كرسي إذا قعد عليه يكاد تلحق الأرض رجله، وهو منصوب إلى جانب المنبر، الذي هو تحت الملك وسرير السلطنة. وكانت العادة أولاً أن يجلس قاضي القضاة من المذاهب الأربعة رضي الله عنهم عن يمينه، أكبرهم الشافعي وهو الذي يلي السلطان، ثم إلى جانب الشافعي الحنفي، ثم المالكي، ثم الحنبلي، وإلى جانب الحنبلي وكيل بيت المال، ثم الناظر في الحسبة بالقاهرة. ويجلس على يسار السلطان كاتب السر، وقدامه مناظر (لعلها ناظر) الجيوش وجماعة الموقعين المعروفين بكتاب الدست، وموقعي الدست تكملة حلقة دائرة. فأن الوزير من أرباب الأقلام كان بين السلطان وكاتب السر، وإن كان الوزير من أرباب السيوف كان واقفاً على بعد مع بقية أرباب الوظائف، ويقف من وراء السلطان صفان عن يمينه ويساره من السلحدارية والجمدارية والخاصكية، ويجلس على بعد بقدر خمسة عشر ذراعاً عن يمينه ويسرته، ذوو السن والقدر من أكابر الأمراء وأرباب الوظائف، وهم وقوف وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء الشورى. ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان والحجاب والدوادارية لإعطاء قصص الناس، وإحضار الرسل وغيرهم من الشكاة وأصحاب الحوائج والضرورات، فيقرأ كاتب السر وموقعوا الدست القصص على السلطان. فإن احتاج إلى مراجعة القضاة يراجعهم فيما يتعلق بالأمور الشرعية والقضايا الدينية، وما كان متعلقاً بالسكر، فإن كان القصص أمراء لاقطاعات قرآها ناظر الجيش، وإن احتاج إلى مراجعة في أمر العسكر تحدث مع الحاجب وكاتب الجيش فيه. وما عدا ذلك يأمر فيه

السلطان بما يراه، وكانت العادة الناصرية أن تكون الخدمة في هذا الديوان على ما تقدم ذكره في بكرة الاثنين. وأما بكرة يوم الخميس فأن الخدمة على مثل ذلك، إلا أنه لا يتعدى السلطان فيه لسماع القصص. ولا يحضره أحد من القضاة، ولا الموقعين ولا كاتب الجيش، إلا أن عرضت حاجة إلى طلب أحد منهم. وقد تغير بعد الأيام الناصرية هذا الترتيب. فصارت قضاة القضاة تجلس عن يمنة السلطان ويسرته. فيجلس الشافعي من يمينه، ويليه المالكي، ويليه قاضي العسكر، ثم محتسب القاهرة، ثم مفتي دار العدل الشافعي. ويجلس الحنفي عن يسار السلطان ويليه الحنبلي. ويقبل الأمراء الأرض بين يديه دون القضاء. ثم اعلم، أن الملوك في زماننا، بل وفي الأزمنة السابقة بعد الدولة العباسية، يرون الأحكام على قسمين: حكم الشرع وحكم السياسة. فالشريعة هي ما شرع الله من الدين، وأمر به كالصلاة والصيام والحج وسائر أعمال البر والأوامر والنواهي، وأحكام المعاملات والأنكحة، والحلال والحرام وسائر أحكام الشرع المبسوطة تفاصيلها في كتب الفقه، المدونة على المذاهب الأربعة رضي الله عنهم. والسياسة نوعان: سياسة عادلة توجب عمارة البلاد وراحة العباد، فهي أيضاً شرعية اعتبرها الخلفاء الراشدون رضي الله تعالى عنهم وألف فيها العلماء الأعلام، كالقاضي أبي الحسن الماوردي وغيره كتباً متعددة، وسياسة ظالمة توجب خراب البلاد، وعدم راحة العباد، بل تؤدي إلى انقراض الدولة على ما علم ذلك بحسب التجربة، كما لا يخفى على من نظر إلى كتب تواريخ الدول، وتفصيل هذا البحث في تاريخ المقريزي. هذا، والسياسة العادلة من اعظم أسباب العمارة الموجبة لقوة الدولة، الباعثة لقوة الدين. وللحكماء أنظار لطيفة في ترتيب أسباب السياسة، وان لم يكونوا على دين من أديان أهل الكتب، إلا أنهم لقوة نظرهم وكمال عقولهم، استنبطوا أموراً عجيبة، وعلوماً غريبة، ومع ذلك فقد نزهوا واجب

الوجود عن كل نقص، مع عدم إتباعهم النواميس السماوية، فكأنهم صاروا كالعقول المجردة. وقد حصل لهم كمال الإدراك، وبكمال الإدراك يكون حسن التدبير في ملك البدن وفي تدبير السياسة. لأن مراتب الإدراك متفاوتة على أربعة: الأول الحسن فانه يجرد نوعا من التجريد، إذ لا تخيل الصورة في الحس بل مثالها، فلو غاب عنه أو حدث حجاب لم يكن مدركا. والثاني: إدراك الخيال وتجريده، أتم قليلا وابلغ تحصيلا، لأنه لا يحتاج إلى المشاهدة بل يدرك مع الغيبوبة، لكن مع اللواحق الجسمانية. والثالث: إدراك العزم وتجريده، أتم واكمل مما سبق، لأنه يدرك المعنى المجرد من اللواحق وحواشي الأجسام، كالمحبة والعداوة، إلا انه لا يدرك محبة كلية بل يدرك الجزئية، بأن يدرك أن هذا الرجل محب وهذا عدو. والرابع: إدراك العقل، وذلك هو التجريد الكامل من كل غاشية، وعن جميع لواحق الأجسام، بل جناب إدراكه منزه عن أن يحزم بين لاحق من لواحق الأجسام، كالأين والكم والكف وغيرها من الأغراض الجسمية، ويدرك معنى كلياً لا يختلف بالأشخاص، وجدت الأشخاص قريبة أو بعيدة أم عدمت، فأنه ينفذ في أجزاء الملك والملكوت، وينتزع الحقائق منها ويجردها عما ليس منها. إن كان المدرك محتاجاً إلى التجريد فأن كان مجرداً في نفسه أدرك كما هو اكتفى عن مؤونة التجريد. والحكماء قد حازوا من العقل ما ترك من آثاره العجب العجاب. ولما أشرت إلى بيان إدراك العقل ناسب بيان مراتبه، فأقول أن للعقل مراتب بعضها يخدم بعض فانك تجد العقل المستقل بيناً مطلقاً، يقدمه الكل وهو الغاية القصوى، ثم العقل بالفعل يخدمه العقل بالملكة. والعقل الهيولاني بما فيه من الاستعداد يخدم العقل بالملكة، ثم العقل العملي يخدم الجميع، لأن العلاقة البدنية إنما هي لأجل تكميل العقل النظري، فالعقل العملي مدير تلك العلاقة، ثم العقل العملي يخدمه الوهم، تخدمه قوتان: قوة

بعده، وقوة قبله، فالقوة التي بعده هي القوة التي تحفظ ما أداه الوهم، والقوة التي قبله هي القوة الحيوانية، ثم التخلية تخدمها قوتان، فالقوة النزوعية تخدمها بالائتمار، لأنها تبعثها على التحريك، والقوة الخيالية تخدمها الحس، والقوة النزوعية تخدمها الشهوة، والغضب تخدمها القوة المحركة في العضل، والقوة الحيوانية تخدمها في الجملة القوة النباتية، أولها المولدة ثم المرئية تخدم المولدة، ثم الخافية تخدمها، ثم القوى الطبيعية الأربع تخدم العازمة. ويقال للقوى الطبيعية الهاضمة وتخدمها الماسكة من جهة، والجاذبة من جهة أخرى وتخدمها الدافعة، وتخدم جميعها الكيفيات الأربع. لكن الحرارة تخدمها البرودة، وتخدم كليهما الرطوبة والبيوسة، وهناك آخر درجات القوى.

قال بطليموس الحكيم صاحب الطلسمات والغرائب والأسرار والعجائب: أن أول ما دل بكلمة الله تعالى المطاعة العقل، ودل العقل على الحركة، والحركة دلت على الحرارة، فكانت الحرارة أول الجواهر الأربعة. ولما انقضت الحركة جاء السكون عند فنائها، ودل السكون على البرد، ولما كانت الحركة في نشأتها على هيئة التدوير انعطف ما على ما سفل فحل الحار البارد، فحصل منه اللين فأسرع اللين إلى الحر لشبهه به، فظهر اليبس في البرد بانحلال الرطوبة منه، فكلمت (ح) الجواهر الأربعة ثم أن الحركة أخذت صعوداً للحرارة، التي حدثت بها من كثرة اضطرابها، فصعدت بقدر قوتها مقدار ستين ألف سنة ومائتين وخمسين سنة، فكان ما صعد مما بقى حتى صعد اللطيف كله، وما بقي ما برد وغلظ، فاستقل مقدار سبعمائة وخمسين سنة. وكان ذلك في مقدار ثمانية وأربعين ساعة، وقد علت الحركة وتباسطت وأسندت وتقطعت، فكانت كلما علا منها شيء كان اشد حرارة مما سفل منه، فكانت تلك القطع والفصول اثني عشرة قطعة قطعة،

واثني عشر فصلا، ثم أن الجزء الأسفل الساكن اشتهى الحركة واللحوق بالجزء الأعلى، لأنه خرج منه وهو إليه أحوج، فلما دام الحر مطلاً مغطياً لذلك الجزء الأسفل، سخن ما يليه منه فتحرك فأخذ بالصعود ولم يقدر لثقله بما صعد قبله. فلذلك علمنا أن علة الحركة الحرارة، وعلة السكون البرودة، وعلة الصعود الخفة، وعلة المكث وعدم الصعود الثقل، وعلة الخفة البساطة، وعلة الثقل التركيب (لعلها التركيب)، والعلة في كون مقدار صعودها ستين ألف سنة ومائتين وخمسين سنة، إنما هي لقوة الحر في سوسها الذي له قوة الصعود، والعلة في استقال الجزء الذي بقي مقدار سبعمائة وخمسين سنة، إنما هي لضعف القوة المحركة له عن تسخينه وتلطيفه وتخفيفه. وأما علة كينونة هذا البناء العظيم في مقدار ثماني وأربعين ساعة، وهو مقدار قليل فهي اللطافة، فلذلك أسرع انفعاله وأنها كانت القطع اثني عشر قطعة، لأن الحرارة ليست فيها على سواء، بل هي اثنتا عشرة طبقة، فكلما كان منها أخف كان أسرع صعوداً، ثم يتبعه الذي يليه جزء بعد جزء، وكذلك الحرارة التي في هذا العالم ليست صنفاً واحداً، وإن كانت عقولهم لا تدرك ذلك، وإنما قويت عقولهم على إدراك ما اتصل بهم في خلقتهم. فلما لم تكن الحرارة صنفاً واحداً في هذا العالم اختلف الخلق، فصارت تلك القطع الأثني عشرة علة لعدد البروج الأثني عشر التي في الفلك، ثم انه لما علا ما سفل انفصل فصلين آخرين، ثم انفصل كل منهما على سبعة، فكان على أربعة عشر فصلا، فلذلك علة السموات السبع والأرضين السبع، فخلق الزمان من ذلك الصعود، وجعل عمر العالم سبعين ألف سنة، حتى ينفذ فلا يبقى عالم ولا زمان انتهى ما ذكره بطليموس.

أقول، بعد حمد الله الذي تفجرت ينابيع حكمه البالغة من ألسنة الكاملين من عباده، وتاهت عقول ذوي الأنظار في بيداء معرفة بدائع مصنوعاته، لما جرى بحث الحكمة اقتضى تعيينها وبيان أقسامها تكميلا للفائدة. فالحكمة علم يبحث فيه عن أحوال أعيان الموجودات على ما هي عليه في نفس الأمر، بحسب الطاقة البشرية، وعرفها الشيخ الرئيس ابن سينا بأنها صناعة نظر يستفيد منها الإنسان ما عليه الوجود كله في نفسه وما عليه الواجب، مما ينبغي أن يكتسب لتشرف نفسه وتستكمل بتصور الأمور، والتصديق بالحقائق النظرية والعلمية بحسب الطاقة البشرية. ثم أن الحكمة تنقسم إلى نظرية وعملية، فالنظرية: ما يترتب عليها حصول الاعتقاد اليقيني بحال الموجودات، التي لا تعلق لوجودها بفعل الإنسان والغرض منها حصول الرأي. وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام العلم الأسفل، وهو العلم الطبيعي، والعلم الأوسط وهو العلم الرباني، والعلم الأعلى وهو العلم الإلهي. لأن الأمور التي يبحث عنها في الحكمة النظرية أما أن تكون حدودها ووجودها ومتعلقاتها بالمادة الجسمانية والحركة، كأجرام الأفلاك والعناصر، وما يتكون منها وما يحدث من أحوالها المختصة بها، كالحركة والسكون، والتغير والسكون، والفساد والملي، والنشوء والقوى، والكيفيات وما يشبهها من الأحوال، فهو العلم الطبيعي. وأما أن يكون وجودها متعلقاً بالمادة والحركة من دون حدودها، كالتربيع والتدوير والكروية والمخروطية والعدد وخواصه. فإنك تفهم الكرة مثلاً من غير أن تحتاج إلى فهم أنها من خشب أو غيره، ولا تفهم الإنسان إلا وأنت محتاج إلى أن تفهم أن صورته من لحم وعظم. وكذلك تفهم التقعير ولا تحتاج في فهمه إلى فهم ماهية الشيء، الذي فيه التقعير، ومع هذا فالتدوير وما شاكله مما سبق لا يوجد إلا في الأجرام المتحركة، فهي العلم الرياضي. وأما أن يكون وجودها وحدودها غير مفتقرين إلى المادة والحركة، كذات الله تعالى

وصفاته، وما كان على هذا المنوال من المعاني، فهو العلم الإلهي. ولما كانت الموجودات منحصرة في هذه الأقسام الثلاثة كانت الحكمة النظرية منحصرة في الأقسام الثلاثة، والحكمة العملية أيضاً تنقسم إلى ثلاثة أقسام، لأن تدبير الإنسان أما يكون بشخص واحد، أو لا، والثاني هو الذي يتم بالشركة أما بحسب الاجتماع، منزلي أو مدني. فكانت العلوم العملية ثلاثة: الأول منها، وهو الخاص بالشخص الواحد ما يعرف به، أن الإنسان كيف ينبغي أن تكون أخلاقه وأفعاله، بحيث تكون حياته الأولى والآخرة سعيدة، والمتكفل لبيان هذا القسم كتاب أرسطاطاليس في علم الأخلاق. والثاني، ما يعرف فيه أن الإنسان كيف ينبغي أن يكون تدبيره للمنزل المشترك بينه وبين زوجه وولده ومملوكه، حتى تكون حاله منتظمة، ويشتمل على هذا القسم كتاب اروس في تدبير المنزل. والثالث، ما يعرف به أصناف السياسات والرئاسات والاجتماعيات المدنية الفاضلة والرديئة، ويعرف به وجه استيفاء كل واحد منها، وعلة زواله، وجهة انتقاله، وما كان يتعلق من ذلك بالملك والمتكفل، لبيان هذا القسم بما تقتضيه الحكمة حسب الطاقة، كتاب افلاطون وارسطو في السياسة، وما كان يتعلق من ذلك بالنبوة والشريعة، فتشتمل عليه كتب النواميس السماوية التي بها السعادة الأبدية، لأنها على مقتضى الأمر الإلهي الذي هو مقتضى الحكمة بحسب نفس الأمر، لأنه تعالى هو المطلع على ما يليق بالحال وعلى ما هو في نفس الأمر. وأما علم ما سوى الله تعالى من أصناف البشر، فأنها هوس وظنون وأوهام وخبط عشواء، إلا ما تلقيناه من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام والله الموفق.

والحكمة الطبيعية تنقسم إلى قسمين: الأول ما يقوم مقام الأصل. والثاني ما يقوم مقام الفرع. فأن ما يقوم مقام الأصل فثمانية أقسام: القسم الأول ما تعرف به

الأمور العامة لجميع الطبيعيات، ويشتمل عليه كتاب الكيان. والقسم الثاني ما يعرف به أحوال الأجسام التي هي أركان العالم، وهي العناصر وطبائعها وحركاتها وموضعها، ويشتمل عليه كتاب السماء والعالم. والقسم الثالث ما يعرف حال الكون والفساد والتوليد والنشوء والبلاء والاستحالة، ويبين فيه عدد الأجسام القابلة لهذه الأحوال، ولطيف صنع الله تعالى في ربط الأرضيات بالسموات، ويشتمل عليه كتاب الكون والفساد. والقسم الرابع ما يبحث فيه عن الأحوال التي تعرض العناصر قبل الامتزاج لما يعرض لها من أنواع الحركات والتخلخل والتكاثف بتأثير السموات، وما يبحث فيه عن العلامات والشهب والغيوم والأمطار والهالة وقوس قزح والصواعق والرياح والزلزال والبحار والجبال، ويشتمل على هذا القسم كتاب الآثار العلوية. والقسم الخامس ما يعرف به الكائنات النباتية المعدنية، ويشتمل عليه كتاب المعادن. والقسم السابع ما يعرف به حال الكائنات الحيوانية، ويشتمل عليه كتاب طبائع الحيوان. والقسم الثامن ما يعرف به النفس والقوى الدراكة التي في الحيوانات، ولا سيما قوى الإنسان، وعدم موت قوة النفس بموت الإنسان، وأنها جوهر روحاني، والمتكفل لبيان هذا القسم بلا مزيد عليه، كتاب النفس والحس والمحسوس.

وأما ما يقوم مقامه الفرع فسبعة (عدد المؤلف خمسة منها فقط) أقسام: الأول الطب، والغرض منه معرفة مبادئ البدن الإنساني وأحواله من الصحة والمرض وأسبابهما ودلائلهما، ليدفع المرض وتحفظ الصحة، واحسن كتاب صنف فيه على عهد الحكماء الإسلام قانون الشيخ الرئيس ابن سينا، وهو علم تخميني، والغرض فيه الاستدلال بقياس بعض الكواكب إلى بعض وبقياسها إلى درج البرج، وبقياس جملة ذلك إلى الأرض، وعلى ما يكون من أحوال أدوار العالم، والملك

والممالك والبلاد والمواليد والتحاويل والاختبارات وغير ذلك من المطالب. والقسم الثاني علم التعمير، والغرض منه الاستدلال بالمتخيلات الحكمة على ما شاهدته النفس من عالم الغيب، فضيلته القوة المخيلة بمثال غيره. والقسم الثالث علم الفراسة، والغرض منه الاستدلال من الخلق على الخلق. والقسم الرابع علم الطلمسات، والغرض منه تمزيج القوى السماوية وقوى بعض الأجرام العلوية، ليتألف من ذلك قوة تفعل فعلا غريباً في عالمنا الأرضي، لتحدث عنها قوة يصدر عنها فعل غريب، والتكفل لأنواع هذا الفن كتاب أبي القاسم، فأنه مشتمل على أبواب كثيرة عجيبة. والقسم الخامس علم الكيمياء، والغرض منه سلب الجواهر المعدنية خواصها وإفادتها كذا خواصاً وإفادة بعضها خواص بعض آخر، والمتكفل بهذا الفن كتاب جابر الحكيم، فأنها بديعة الأسلوب خفية الإشارات والرموز، وقل من وقف على حقيقة هذا العلم، ولذا أنكره بعض الناس، والظاهر أن له حقيقة يخص الله به من يشاء من عباده، والكيمياء العملية من فروع هذه الكيمياء. فهذه جملة أقسام الحكمة الطبيعية الأصلية والفرعية. وأما أقسام الحكمة الرياضية الأصلية فهي أربعة: علم العدد، وعلم الهندسة، وعلم الهيئة، وعلم الموسيقى. فأما علم العدد فهو الذي يعرف به حال أنواع العدد وخاصة كل نوع في نفسه، وحال النسب بعضها من بعض. وعلم الهندسة يعرف منه حال أوضاع الخطوط وأشكال السطوح وأشكال المسطحات والنسب إلى المقادير وذوات الأشكال والأوضاع. ويشتمل عليه كتاب اقليدس "علو الهيئة" ما يعرف به حال أجزاء العالم في أشكالها وأوضاع بعضها بالنسبة إلى بعض، ومقاديرها وأبعاد ما بينها وحال الحركات التي للأفلاك والكواكب وفرض الدوائر والكرات والأس التي بها تتم الحركات ،ويشتمل عليه كتاب المجلسي وهو كتاب عظيم في هذا الفن. وعلم الموسيقى ما يعرف به حال النغم والعلة في اتفاقها واختلافها، وحال الأبعاد

والأجناس والجموع والانتقالات والإيقاع، وكيفية تألف ومعرفة الملاهي كلها بالبراهين. ولفظ الموسيقى معناه الألحان واحسن كتاب وقفت عليه من كتب هذا الفن كتاب "المدخل إلى صناعة الموسيقى" لأبي نصر محمد بن محمد الطوخاني. وأما أقسام الحكمة النظرية الفرعية فكثيرة، فمن فروع علم العدد: عمل الجمع والتفريق بالهندي، وعمل الجبر والمقابلة وغير ذلك. ومن فروع الهندسة عمل المساحة، وعمل جسر الأثقال، وعلم الأوزان والموازين، وعلم الآلات الجزئية، وعلم القناطر والمريا، وعلم نقل المياه. ومن فروع علم الهيئة الزيج الزايرجات والتقاديم. ومن فروع علم الموسيقى اتخاذ الآلات العجيبة المطربة. والأقسام الأصلية للعلم الإلهي خمسة: الأول النظر في معرفة المعاني العامة لجميع الموجودات، من الهيبة والوحدة والكثرة والوفاق والخلاف والتضاد والقوة والفعل والعلة والمعلول. والثاني النظر في الأصول والمبادئ مثل علم الطبيعيين والرياضيين، وعلم المنطق ومناقشة الآراء الفاسدة فيها. والثالث النظر في إثبات الحق الأول وتوحيده والدلالة على تفرده وربوبيته، وامتناع مشاركة موجود في مرتبة وجوده، وأنه وحده واجب الوجود بذاته، ووجود ما سواء يجب به، ثم النظر في صفاته وأنها كيف تكون صفاته، وأن المفهوم من لفظ كل صفة هو أن الألفاظ المستعملة في صفاته مثل الواحد والموجود والقديم والعالم والقادر، يدل كل واحد منها على معنى آخر، وأن هذه الصفات له تعالى لا توجب كثرة في ذاته تعالى، ولا تفدح (لعلها تقدح) في وحدانيته إذ أنه الحقيقة. والرابع النظر في إثبات الجواهر الاول الروحانية، التي هي مبدعاته واقرب مخلوقاته منزلة عنده، والدلالة على كثرتها واختلاف مراتبها وطبقاتها، وهذه مرتبة الملكة الكروبيين، ثم في إثبات الجواهر الروحانية وطبقاتها، وهذه مرتبة الملائكة الموكلة بالسموات وحملة العرش، ومدبرات الطبيعة ومقرها ومتعهدات ما يتولد في عالم الكون والفساد. والخامس في

تسخير الجواهر الجسمانية التي بعضها عاملة، وبعضها آمرة عن رب العالمين. والدلالة المبلغة وارتباط الكل بالأمر الذي ما هو إلا واحد لمح البصر، والكل لا تفاوت فيه، ولا فطور، ولا في أجزائه، وأن مجراه الحقيقي على مقتضى الخير المحض، وأن الشر فيه ليس بمحض، بل هو الحكمة والمصلحة، وهو ينبع في جهة خير. فهذه أقسام الفلسفة الأولى، اعني الإهي، ويشتمل عليه كتاب "ماطانوسقا "(كذا في الأصل والاصح ماطافوسفا) فانه عرف جميع هذا بالبرهان وفروع علم الإلهي منها معرفة كيفية نزول الوحي، والجواهر الروحانية، التي تؤدي الوحي، وان الوحي كيف يتأدى حتى يصير مبصراً مسموعاً، وأن الذي يأتيه الوحي تصدر عنه المعجزات المخالفة لمجرى الطبيعة، ويخبر بالغيب، وأن الأبرار الأتقياء كيف يكون لهم إلمام وكرامات، تشبه المعجزات، وأن الروح الأمين جبريل عليه السلام من طبقات الجواهر الروحانية، وأن الإنسان لم يخلق سدى يذهب إلى ما يشاء بوهمه، بل لا بد له من التدين بدين صحيح، يعرف بدلائله البديهية المسلمة المقدمات لدى من ألقى السمع وهو شهيد وترك التعصب وموافقة هوى النفس في تقليد أبيه وجده من غير نظر صحيح دقيق. فان الأثر يدل على المسير، والحق أبلج والله الموفق إلى إتباع دين الإسلام المبني على توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل نقص، وعما لا يليق بمقام الربوبية، وعلى الإيمان بجميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وبكتبهم المنزلة عليهم، من اعتقاد والعصمة فيهم وتنزيههم من العيوب مع التكليف بالعبادات الكثيرة ليلا ونهاراً، المشروطة بالطهارة والنظافة والنهي عن كل منكر. فمن انصف بعد مطالعة كتب الإسلام القوية الأركان وجد من نفسه حلاوة لدين الإسلام، واستقامة في مناهجه، وعدلا في أحكامه، والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل. والطرق الصحيحة الموافقة لكتاب الله تعالى وسنة نبيه الأعظم سيدنا محمد ﷺ، وما عليه الأئمة الأربعة

رضي الله تعالى عنهم من أهل السنة والجماعة، المبنية أقوالهم على الكتاب والسنة البرية عن الأكاذيب الظاهرة، لا ما ذهب إليه الرافضة من الآثار الشنيعة والهذيانان (لعلها الهذيان) القبيحة، التي ما انزل الله بها من سلطان، ولم توجد في شريعة من الشرائع من لدن آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد ﷺ، إنما زورها المنافقون، ومن وقف على كتب هذه الفئة وسائر الخوارج والرافضة، واطلع على ما فيها من الهذيان، والشنائع المخالفة لقواعد الإسلام، ودقق النظر، تيقن أن الحق مع ما عليه أهل السنة والجماعة، ومن يضلل الله فلا هادي له. (ثم اعلم) أن الرسالة عطية إلهية لا تكتسب بجهد، ولا تنال بكسب، فالله اعلم حيث يجعل رسالته، ولكن الكسب في إمداد النفس لقبول آثار الوحي بالعمادات والمعاملات الخالصة عن الرياء من لوازم الرسالة. وكما أن النوع الإنساني متميز عن سائر الحيوانات بنفس ناطفة هي فوقها بأفضلية العقلية. كذلك نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تميزت عن عقول الناس بعقل كامل مهدي، هو فوق العقول كلها بالفضيلة البانية. فأن النبي وإن شارك الناس في البشرية والإنسانية من حيث الصورة، فقد يأتيهم من حيث المعنى، إذ بشريته فوق بشرية الناس، لاستعداد بشريته لقبول الوحي. وقد أشار الله تعالى إلى جهة المشابهة من حيث الصورة، بقوله: إنما أنا بشر مثلكم. وإلى جهة المباينة من جهة المعنى، بقوله: يوحى إلي. فالنبي وإن شارك الناس من حيث أصل الإنسانية والبشرية، إلا أن إنسانيته معقله فوق سائر البشريات والعقول. فإن مراتب العقول متفاوته، وهي على تفاوتها لم تبلغ في النوع الإنساني إلى حد الكمال، إلا في الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فأنهم قد أوتوا الكمال في حدس القوة النظرية، حتى استغنوا عن المعلم البشري، وأوتوا للقوة المختلية (لعلها المتخيلة) استقامة وهمة، حتى تشاهد العالم النفساني بما فيه من أحوال العالم، فيصير العالم وما يجري

فيه متمثلا لها، ويكون لقوته النفسانية، أن يؤثر في عالم الطبيعة حتى تنتهي إلى درجة النفوس السماوية، ثم بعدهم الذي له الأمر له الأمران الأولان، وليس له الأمر الثالث، ثم الذي له هذا التهيأ الطبيعي في القوة النظرية لا تهيء ولا اكتساء تكلفي، ولكن له النهي في القوة العملية. فالرئيس المطلق والملك الحقيقي الذي يستحق بذاته أن يملك، هو الأول الذي إن نسب نفسه إلى عالم العقل وجد كأنه يتصل به دفعته، وإن نسب نفسه إلى عالم النفس وجد كأنه من سكان ذلك العالم، وان نسب نفسه إلى عالم الطبيعة كان فعالا فيه ما يشاء. والذي تبلوه أيضاً رئيس كبير، وبعده في المرتبة والباقون هم أشراف النوع الإنساني وكرامه. وأما الذين ليس لهم استكمال شيء من القوى، إلا انهم يصلحون الأخلاق، ويقتنون الملكات الفاضلة، فهم الأذكياء، من النوع الإنساني، ليسوا من ذوي المراتب العالية، إلا أنهم مميزون عن سائر أصناف الناس. هذا، وفي إثبات النبوة والرسالة طرق، منها الذي أنشئ من الحركات الاختيارية، وهي أقسام ثلاثة فكرية وقولية، والحركة الفكرية يدخلها الحق والباطل، والقولية يدخلها الصدق والكذب، والعملية ويدخلها الخير والشر. ولا شك، إنها على تضادها واختلافها ليست واجبة التحصيل بجملتها، فإن من أفتى بهذه الفتوى يكون مستحق القتل بفتواه المذكورة، لأن قتله من جملة المحركات، وهو قد أفتى بأن تحصيل كل حركة واجبة، أي واجب الفعل، وليس كلها واجب الترك، لأن مَنْ أفتى بوجوب ترك كل حركة فظهر من هذا إن بعض الحركات واجب الفعل، وبعضها واجب الترك، وإذا ثبت هذا فقد ثبت حدود في الحركات، اعني الحق والباطل والصدق والكذب والخير والشر، فما كان حقاً وصدقا وخيراً كان واجب التحصيل، وما كان باطلا وكذبا وشراً كان واجب الترك. والتمييز بين الحركات بحدودها المذكورة لا يخلو: أما أن يعرفه كل أحد أو لا يعرفه أحد، لوجود من

يعرفه من الخواص، وبطلان أن يعرفه كل أحد لكثرة منْ لا يعرفه من العوام، فظهر إن الصحيح إنما هو أن يعرفه أحد دون أحد، فثبت بالتقسيم الأول حدود في الحركات، وثبت بالتقسيم الثاني أصحاب حدود يعرفونها، وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، أصحاب الشرائع المؤيدة عقولهم بالوحي، الذي لا يحتمل الخطأ الذي به حفظ نظام العالم، فثبتت النبوات بضرورة الحركات، وقد أقيمت أدلة كثيرة على إثبات النبوات، استوفيتها في الكتاب المسمى بـ"الصراط المستقيم" في الرد على النصارى أو اليهود.

ومن فروع العلم الإلهي: إن الأرواح البشرية حادثة، حدثت عند استعداد النطفة لقبول النفس من واهبها، كما قال الله تعالى: فإذا سويته ونفخت فيه من روحي. والدليل العقلي على ذلك أن الأرواح لو كانت موجودة قبل الأبدان لكانت إما كثيرة وإما متحدة، وكل منهما باطل، فبطل وجودها قبل الأبدان. أما بطلان الوحدة فلأنها بعد التعلق بالأبدان أما أن تبقى الروح على وحدتها، أو تكدر وكل منهما باطل أيضاً. أما بطلان بقاء الوحدة بعد التعلق بالأبدان فلأن الواحد إنما يقبل القسمة والكثرة، إذا كانت من المقادير كالجسم، فأنه لكونه ذا مقدار يمكن تقسيمه وتبعيضه وتكثيره، وأما إذا لم يكن من المقادير كالروح فأنه لا يقبل القسمة ولا التكثير. هذا وأما استحالة كثرة الوحي قبل التعلق بالأبدان فلأنها أما أن تكون متماثلة أو مختلفة، وكل منهما محال. أما استحالة التماثيل فلأن وجود المثلين محال في الأصل، ولذا يستحيل وجود سوادين في محل، وجسمين في مكان واحد، لأن الأينينية تستدعي المغايرة، ولا مغايرة ههنا بخلاف وجود سوادين في محلين أو في محل واحد في زمانين، فأنه جائز غير مستحيل، فليس في الوجود مثلان مطلقا، بل بالإضافة كقولك زيد مثل عمرو في الانسانية،

او الجسمية سواد الحبر والغراب مثلان في السوادية. وأما استحالة التخالف والتغاير فلأن التغاير على نوعين: أحدهما باختلاف العوارض التي لا تدخل في الماهية، كتغاير الماء البارد للماء الحار، فإن كان تغاير الأرواح البشرية بالنوع والماهية، فهو محال لأن الأرواح البشرية متفقة بالحد والحقيقة، وهو نوع واحد، لأن الحد وهو حيوان ناطق يشملها وإن كانت متغايرة بالعوارض، فهو أيضاً محال، لان الحقيقة الواحدة إنما تتغاير عوارضها إذا كانت متعلقة بالأجساد، منسوبة إليها بنوع ما، ولا تعلق لها بالأجسام قبل وجود الأبدان. فكان الاختلاف محال لأن الاختلاف إنما هو في أجزاء الجسم ضرورة، فإن قيل، فكيف تكثرت الأرواح وتغايرت بعد مفارقة الأجسام لا تعلق لها (رح) بالأجسام. قلنا: إنها قد اكتسبت بعد التعلق بالأبدان أوصافاً مختلفة، من العلم والجهل والصفاء والكدورة وحسن الأخلاق وقبحها، فبقيت متغايرة بسبب تلك الأوصاف، فعقلت كثرتها بعد المفارقة بخلافها قبل تعلقها بالأبدان. فإنه لا سبب لتغايرها العلم الإلهي.

ومن فروع اعتقاد المعاد الجسماني فأنه يقال لو لم يبعث الإنسان ببدنه لكان له ببقاء وجه بعد موته ثواب وعقاب غير بدنيين، وكانت الروح النقية التي هي النفس المطمئنة الصحيحة الاعتقاد العاملة للخير، الذي يوجبه الشرع والعقل، فائزة بسعادة ألذ من كل سعادة، ولم يخالف العقل في أنها تكون للبدن أيضاً. إلا (وردت لا) أن البدنية لا يفي بوصفها إلا الوحي والشريعة دون العقل، وان جوزها لا يفي بوصفها إذ لا مجال له في وصفها، لأن الوصف لا يكون إلا بالأخبار النبوية الصادقة، بخلاف السعادة والشقاوة الروحانيين، فأن العقل طريق إليهما. هذا، وأقسام المنطق الذي هو آلة إلى كسب الحكمة النظرية، والعملية الصائنة عن الخطأ في الفكر تسعة:

الأول: بحث أقسام اللفظ والمعانى من حيث هي مفردة ومركبة، وهو كتاب "ايسافوجي" تصنيف كذا، والأصح "فرفريوس" المعروف بالمدخل. الثاني: بحث المعاني المفردة الذاتية الشاملة لجميع الموجودات، من غير شرط تحصلها في الوجود أو قوامها في العقل، ويشتمل عليه كتاب ارسطو المعروف "بقاطغورياس" أي المقولات. الثالث: تبيين تركيب المعاني المفردة بالسلب والإيجاب، حتى تصير قضية وخبراً يلزمه الصدق والكذب، ويشتمل عليه كتاب ارسطو المسمى بـ"العبارة". الرابع: تبيين تركيب القضايا حتى يتألف منها القياس في تأليف القضايا التي هي مقدماته، ويشتمل عليه كتاب ارسطو المعروف "آنولوطيقي". الخامس والسادس: ما يشتمل على تعريف القياسات النافعة في المخاطبات والمواضع، التي تكتسب منها الحجج في الجدل من السائل، والمجيب ويشتمل عليه كتاب ارسطو الموسوم بـ"ديالقطيقي" أي الجدل، وبهذا تعرف القياسات الاقناعية في الأمور الكلية. السابع: ما يشتمل تعريف المغالطات، التي تقع في الدلائل والمجاز والسهو، وتعديدها بأسرها، والتنبيه على وجه الاحتراز عنها، ويتضمنه كتاب ارسطو المعروف بـ"سوفسطيقا"، أي نقض شبه المغالطين. الثامن: ما يشتمل عليه تعريف المقاييس الخطابية النافعة، في مخاطبات الجمهور، على سبيل المخاصمة والمشاهرة والمدح والحيل النافعة في الاستعطاف والإغراء، وتصغير الأمر وتعظيمه، والمعاينة ووجوه ترتيب الكلام في كل قصة وخطبة، ويتضمن كتاب ارسطو المعروف بـ"روطوريقي" أي الخطابة. التاسع: ما يشتمل على الكلام الشعري أنه كيف يجب أن يكون، وما أنواع النقص فيه، ويشتمل عليه كتاب ارسطو المعروف بـ"عرنيطقا"، ويقال "برايطقا"، ويقال "رطوريقي"، أي الشعر. فهذه ثلاثة وخمسون علماً، وهي عدة العلوم الحكمية على ما ذكرها الشيخ الرئيس ابن سينا .وقال بعد عدها: فقد دللت على أقسام الحكمة، فظهر إنه

ليس شيء منها ما يخالف الشرع، فإن الذين يدعونها ثم يزيغون عن منهاج الشرع إنما يصلون من تلقاء أنفسهم ومن عجزهم وتقصيرهم، لأن الصناعة توجيه فأنها بريئة منهم.

أحـوال بغـداد

المسلك الأول

في بيان فضائل بغداد، وبنائها وبانيها، وانهارها وجسورها، وعشائرها واكابرها القديمة، وبيان سواد العراق، وعشره وخراجه وغير ذلك، مما يتعلق باحوال بغداد وفيه عدة ابواب.

الباب الأول في فضائلها

روى أبو بكر النيسابوري عن يونس بن عبد الأعلى، أنه قال له الشافعي رضي الله عنه: يا يونس هل دخلت بغداد، قال: قلت له لا، قال: ما رأيت الناس، ولا رآك الناس. وروى أحمد بن أبي طاهر أنه قيل لرجل: كيف رأيت بغداد؟ قال: الأرض كلها بادية وبغداد حاضرتها. وروى ابن سلامة عن ابن علية إنه قال: ما رأيت قوماً أعقل في طلب الحديث من أهل بغداد. وروى الشافعي رضي الله عنه أنه قال: ما دخلت بلداً قط إلا عددته سفراً، إلا بغداد فأني حين دخلتها عددتها وطناً. روي عن ابن مجاهد المقري إمام الزمان إنه قال: رأيت أبا عمرو بن العلاء، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: دعني مما فعل الله بي، منْ أقام ببغداد على السنُة والجماعة، ومات نُقل من جنة إلى جنة. وقال أبو بكر بن عياش: الإسلام ببغداد، وإنها لصيادة تصيد الرجال، ومن لم يرها لم ير الدنيا.

وقال أبو عثمان الجاحظ في وصف البلاد: الصناعة بالبصرة، والفصاحة بالكوفة، والخير ببغداد، والغدر بالري، والحسد بهراة، والجفاء بنيسابور، والبخل بمرو، والطرقدة بسمرقند، والمروءة ببلخ، والتجارة بمصر. ونقل الحافظ السيوطي في حسن المحاضرة عن تذكرة الصلاح الصفدي أنه قال: كان الشيخ تاج الفزاري يقول: إن الحكماء وأهل التجارب ذكروا: أنه منْ أقام ببغداد سنة وجد في عمله زيادة، ومنْ اقام بالموصل سنة وجد في عقله زيادة، ومنْ اقام بحلب سنة وجد في نفسه شحاً، ومنْ اقام بدمشق سنة وجد في طباعه غلظة، ومنْ اقام بمصر سنة وجد في نفسه أي في اخلاقه رقة وحسناً.

ونقل عن مباهج الفكر أنه روي عن كعب إنه قال: لما خلق الله تعالى الاشياء قال العقل: أنا لاحق بالشام (وردت في أغلب المصادر بالعراق)، فقالت الفتنة:

وأنا معك وقال الخصب: أنا لاحق بمصر، فقال الذل: وأنا معك، وقال: الشقاء أنا لاحق بالبادية، فقال الفقر: وأنا معك. ونقل عن محمد بن حبيب إنه قال: لما خلق الله تعالى الخلق خلق معهم عشرة أخلاق، الايمان والحياء باليمن، والنجدة والفتنة بالشام، والكبر والنفاق بالعراق، والغنى والذل بمصر، والفقر والشقاء بالبادية.

ونقل عن بعضهم أنه قال: إن الله تعالى جعل البركة عشرة اجزاء: تسعة منها في قريش، وواحدة في سائر الناس، وجعل المكر عشرة اجزاء: تسعة منها في القبط وواحداً في سائر الناس، وجعل الجفاء عشرة اجزاء: تسعة منها في البربر، وواحداً في سائر الناس، وجعل النجابة عشرة اجزاء: تسعة منها في الروم، وواحدة في سائر الناس، وجعل الصناعة عشرة اجزاء: تسعة منها في الصين وواحدة في سائر الناس، وجعل الشهوة عشرة اجزاء: تسعة منها في النساء وواحدة في الرجال، وجعل العمل عشرة اجزاء: تسعة منها في الأنبياء وواحداً في سائر الناس، وجعل الحسد عشرة اجزاء: تسعة منها في اليهود وواحداً في سائر الناس.

وحكي عن الحجاج أنه سأل ابن القرية عن طبائع أهل البلاد، فقال: أهل الحجاز أسرع الناس إلى الفتنة، وأعجزهم عنها، رجالها حفاة ونساؤها عراة. وأهل اليمن أهل سمع وطاعة ولزوم الجماعة. وأهل عمان عرب أستنبطوا. وأهل البحرين نبط أستعربوا. وأهل اليمامة اهل جفاه واختلاف آراء. وأهل فارس أهل بأس شديد وعز عتيد. وأهل العراق أبحث الناس عن صغيرة وأضيعهم للكبيرة. وأهل الجزيرة أشجع فرسان واقتل للأقران. وأهل الشام اطوعهم لمخلوق واعصاهم لخالق. وأهل مصر عبيد لمن غلب، اكيس الناس صغاراً واجهلهم كباراً.

أقول: أهل اليمامة أحق بأن يكونوا أهل بأس شديد، لقوله تعالى في حقهم: ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد. فما ذكر ابن القرية ليس في محله. ونقل عن ابن القرية إنه قال: الهند بحرها در، وجبلها ياقوت، وشجرها عود وورقها عطر.

وكرمان ماؤها وشل، وتمرها دقل، ولصها بطل. وخراسان ماؤها جمد جامد، وعدوها جاهد. وعُمان حرها شديد، وصيدها عتيد. والبحرين كناسة بين المصرين. والبصرة ماؤها ملح، وحربها صلح، مأوى كل تاجر، وطريق كل عابر. والكوفة أرتفعت عن حر البحرين، وسفلت عن برد الشام. وواسط جنة. والشام عروس بين نساء جلوس. ومصر هواؤها راكد وحرها متزايد، تطيل الأعمار وتسود الأبشار.

هذا وقال أبو بكر الديلمي: سافرت الآفاق، ودخلت البلدان من حد سمرقند إلى قيروان، ومن سرنديب إلى بلاد الروم، فما وجدت بلداً أفضل ولا أطيب من بغداد. وذكر الخطيب البغدادي في تاريخه: أن بغداد سميت مدينة السلام، فليس في الأرض مدينة على هذا الأسم غيرها. قال: وكان بعض أخوتنا إذا ذكرها يقرأ قوله تعالى: "بلدة طيبة ورب غفور". وقد أختصت بغداد، من بين البلاد شرقاً وغرباً، باتصاف أهلها بالأخلاق الكريمة الحميدة، والسجايا المرضية بالمياه العذبة والفواكه الكثيرة، والأحوال الجميلة، وبفطنة أهلها وذكائهم، واجازة علمائها للعلوم النقلية والعقلية والفنون الأدبية. ولهم المهارة التامة في نقد الشعر الجيد من الرديء. ودقة شعرهم لا تخفى على منْ له معرفة بنقد الشعر، ولا فرق بين شعرهم وشعر أهل الأندلس، في الرقة والمعاني البديعية، ولهم المعرفة الصحيحة بأنساب العرب وأخبارهم، ولهم المؤلفات الكثيرة المفيدة في كل فن.

ومن أخلاق أهل بغداد، انك إذا جلست مع أحدهم ثم غبت عنه فقدك، وإذا رآك لازمك، وان لم يكن من قبل عرفك، يقرون الضيف ويؤثرون على أنفسهم بكل سابقة، وخير كما هو مشهود من أحوالهم، ومسلم لدى من سافر إلى بغداد.

وأما ما ورد من الأحاديث المبشرة بكون بغداد غير مباركة، كحديث جرير بن عبد الله البجلي عن النبي ﷺ أنه قال: "تبنى مدينة بين دجلة ودجيل، وصراة وقطربل، تجئ إليها كنوز الأرض، ويجتمع إليها كل إنسان، فهي أسرع ذهاباً من الأرض"، الحديث. وكحديث أبي الأسود الدؤلي عن علي بن أبي طالب رضي

الله عنه، قال: سمعت حبيبي محمد ﷺ يقول: "سيكون لبني عمي مدينة من قبل المشرق بين دجلة وقطربل والصراة، يشيد فيها بالخشب والآجر والجص والذهب، يسكنها أشرار خلق الله تعالى وجبابره. أما أن هلاكها على يد الفيافي، كأني بها والله قد صارت خاوية على عروشها. فقد قال الشيخ الإمام أبو بكر: كل هذه الأحاديث التي ذكرت في بغداد واهية الاسانيد، عند أهل العلم والمعرفة، لا يثبت بامثالها حجة غير محفوظة، إلا من هذه الطرق الفاسدة. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سئل أبي، يعني أحمد رضي الله عنه، عن حديث جرير تبني مدينة (الخ)، فقال: ما حدث به إنسان ثقة، وجميع أهل الحديث، الثقات العدول، الذين عليهم المدار في تصحيح الاحاديث قد اطبقوا على أن الاحاديث الواردة في بغداد واهية الاسانيد، لا تحفظ متونها إلا من تلك الاسانيد الواهية الفاسدة.

وقطربل، بفتح القاف وسكون الطاء المهملة وضم الراء المهملة والباء الموحدة المشددة ويجوز تخفيفها، موضع بالعراق ينسب إليه الخمر، وليس له اليوم أثر. وروى النويري في تاريخ بغداد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ : اللهم بارك لنا في صلعنا وفي مدنا وفي شامنا وفي يمننا وفي حجازنا. قال: فقام إليه رجل فقال يارسول الله وفي عراقنا فأمسك النبي ﷺ، فلما كان في اليوم الثاني قال مثل ذلك، فقام إليه الرجل فقال: وفي عراقنا فأمسك النبي ﷺ، فلما كان في اليوم الثالث قام إليه الرجل، فقال يا رسول الله وفي عراقنا؟ فأمسك النبي ﷺ، فولى الرجل وهو يبكي فدعاه النبي ﷺ فقال: أمن أهل العراق أنت؟ قال: نعم، قال: إن إبراهيم عليه السلام هم أن يدعو عليهم فأوحى الله تعالى إليه: أن لا تفعل فأني جعلت خزائن علمي فيهم، وأسكنت الرحمة قلوبهم، الحديث.

وكفى بفضل العراق وأهله هذا الحديث الناطق بأن فيهم خزائن علم الله تعالى، وأن في قلوبهم الرحمة، وهو كما أخبر الصادق الأمين ﷺ فأن علماء العراق قد

حازوا العلوم. النقلية والعقلية. بأنواعها وأصنافها. ولم يتركوا علماً إلا وقد تبحروا فيه. ولهم التآليف المفيدة في كل فن.

وبالجملة. لا يخلوا العراق عن العلماء الأعلام في المنقول والمعقول. ولا سيما في المعقول فأنه مخصوص بأهل العراق. كما لا يخفى على المنصف. وغالب المجتهدين العظام من أهل العراق. كأبي حنيفة وسفيان الثوري وأبن حنبل وأبي يوسف ومحمد وغيرهم. وعن ابن الكلبي أنه قال: سُميت بغداد بلسان الفرس. لأنه أهدي لكسرى عبد خصي من المشرق. فأقطعه بغداد. وكان لأهل المشرق صنم يعبدونه يسمى بغ. فقال العبد المشرقي بغ داد أي عطية الصنم. والفقهاء يكرهون هذا الاسم من أجل هذا. وسماها أبو جعفر المنصور مدينة السلام. لأن دجلة كان يُقال لها وادي السلام.

وعن الأصمعي. يقال بغداد ومغدان وبغدان. وبعض الأعاجم زعم أن معنى بغداد بستان رجل. فبغ بستان وداد اسم رجل. وأنشد أبو سعيد الهمداني لنفسه في مدح بغداد:

فدى لك يا بغداد كل قبيلة من الأرض حتى خطتي ودياريا
فقد طفت في شرق البلاد وغربها وسيرت رحلي بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغداد منزلا ولم أرَ مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرق شمائلا وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا
وكم قائل لو كان ودك صادقاً لبغداد لم ترحل فكان جوابيا
يقيم الرجال الاغنياء بأرضهم وترمي النوى بالمقترين المراميا

وقال طاهر الخازن في مدحها:

سقى الله صوب الغاديات محلة ببغداد بين الكرخ فالخلد فالجسر
هي البلدة الحسناء خصت بأهلها بأشياء لم يجمعن قد كن في مصر
هواء رقيق في إعتدال وصحة وماء له طعم ألذ من الخمر

ودجلتها شطان قد نظما لنا بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر
ثراها كمسك والمياه كفضة وحصباؤها مثل اليواقيت والدر

الباب الثاني

في بنائها وبانيها وجسورها

روى النويري في تاريخ بغداد عن جرير: ان أبا جعفر المنصور بويع له سنة ست وثلاثين ومائة، واستتم البناء سنة ست وأربعين ومائة وسماها مدينة السلام. وقال القرماني في تاريخه: "وفي سنة تسع وأربعين ومائة فرغ من بناء بغداد. قال الشيخ ابوبكر: بلغني أن المنصور لما عزم على بنائها أحضر المهندسين، فمثل لهم صفتها التي في نفسه، ثم أحضر الفعلة والصناع من النجارين والحفارين والحدادين وغيرهم، وأجرى عليهم الارزاق، وكتب إلى كل بلد في حمل منْ فيه ممن يفهم شيئاً من أمر البناء، ولم يبتدىء في البناء حتى تكامل بحضرته من أهل الصناعات ألوف كثيرة، ثم اختطها وجعلها مدورة، ويُقال لا يعرف في اقطار الدنيا مدينة مدورة سواها، ووضع اساسها في وقت اختاره له نوبخت المنجم".

قال الخوارزمي: فرغ أبو جعفر من بنائها ونزلها مع جنده، وسماها مدينة السلام بعد مائة سنة وخمس أربعين سنة وأربعة أشهر وثمانية أيام من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلوات والسلام. وحكى ابن عرفة الازدي عن بعض المنجمين: انه قال للمنصور لما فرغ من مدينة السلام: خذ الطالع، فنظر في مطالعها وكان المشتري في القوس، فأخبرته بما تدل عليه النجوم من طول زمانها وكثرة عمارتها وانصباب الدنيا إليها، وفقر الناس إلى ما فيها، ثم قلت له، وأبشرك يا أمير المؤمنين بأن الله تعالى أكرمك بخلة أخرى من دلائل النجوم، أنه لا يموت فيها خليفة من الخلفاء ابداً، فرأيته تبسم لذلك فقال: الحمد لله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم بناؤها، على ما قاله أبو الفداء إسماعيل الأيوبي في تاريخه: ان المنصور كره مسكن الهاشمية، التي بناها

بنواحي الكوفة، فأنه كان لا يأمنهم على نفسه فخرج يرتاد له موضعاً يسكنه، فأختار موضع بغداد سنة خمس وأربعين ومائة. وقال أحمد البربري: مدينة أبي جعفر المنصور ثلاثون ومائة جريب، خنادقها وسورها ثلاثون جريباً، وأنفق عليها ثمانية عشر ألف ألف، وبنيت سنة خمس وأربعين ومائة.

وروى أبو الفضل عن بدر غلام المعتضد أنه قال: أمر أمير المؤمنين أن ينظروا كم مدينة أبي جعفر فنظرنا فوجدنا وحسبنا، فإذا هي ميلان مكسران في ميلين. وقال الشيخ أبو بكر: رأيت في بعض الكتب أن أبا جعفر المنصور أنفق على مدينته، وجامعها وقصر الذهب والأبواب والأسواق، إلى أن فرغ من بنائها أربعة آلاف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهماً، مبلغها من الفلوس مائة ألف فلس وثلاثة وعشرون ألف فلس، وذلك أن الأستاذ من الصناع كان يعمل يومه بقيراط إلى خمس حبات، والروزجاري يعمل بحبتين إلى ثلاثة حبات. وفي مبلغ النفقة على المدينة قول آخر بينه وبين هذا القول تفاوت كثير.

وروى الفضل بن مخلد عن ابن رستم أنه قال: رأيت في زمن أبي جعفر كبشاً بدرهم، وجملا بأربعة دوانيق، والتمر ستين رطلاً بدرهم، والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم، والسمن ثمانية ارطال بدرهم.

وروى ابن سلام المسواق عن أبي نعيم الفضل بن دكين أنه قال: كان ينادى على لحم البقر في جبانة كندة تسعين رطلاً بدرهم، ولحم الغنم ستين رطلاً بدرهم، وكانت بغداد إذ ذاك في غاية السعة والرخاء والبركة.

وقال أبو النصر المروزي: سمعت أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول: بغداد من الصراة إلى باب التبن. وقال الشيخ أبو بكر عن أحمد بن حنبل: مدينة المنصور وما لاصقها وأتصل ببنائها خاصة، لأن أعلى البلد قطيعة أم جعفر دونها الخندق، يقطع بينها وبين الماء المتصل بالمدينة، وكذلك أسفل البلد من محال الكرخ وما يتصل به، يقطع بينه وبين المدينة الصراة، وهو حد المدينة وما أتصل

بها طولاً، وأما حدها عرضاً فمن شاطئ دجلة إلى الموضع المعروف بالكبش والاسد الآن صحراء، مزروعة وهي على مسافة من البلد.

وروى أبو إسحاق البغوي: عن رباح البناء، وكان ممن يتولى سور مدينة المنصور قال: كان بين كل باب من أبواب المدينة إلى الباب الآخر ميلا -كذا- في كل ساف من أسواف البناء مائة ألف لبنة وأثنتان وستون ألف لبنة من اللبن الجعفري، فلما بنينا الثلث من السور صيرنا في الساف مائة وخمسين ألف لبنة، فلما جاوزنا الثلثين صيرنا في الساف مائة وأربعين ألف لبنة إلى أعلاه.

وروى محمد بن خلف عن الثوري أنه قال: هدمنا من السور الذي يلي باب المحول قطعة فوجدنا فيها لبنة مكتوباً عليها: وزنها مائة وسبعة عشر رطلاً، فوزناها فوجدناها كذلك. قال محمد بن خلف: وبنى المنصور مدينته وبنى لها أربعة أبواب: باب الكوفة، وباب البصرة، وباب الشام، وباب خراسان. وجعل كل باب مقابلاً إلى مصر، وبنى على كل باب قبة، وبين كل باب ثمانية وعشرون برجاً، إلا بين باب البصرة وباب الكوفة، فأنه يزيد واحداً، وجعل الطول من باب خراسان إلى باب الكوفة ثمانمائة ذراع، ومن باب الشام إلى باب البصرة ستمائة ذراع، ومن أول باب المدينة إلى الباب الذي يشرع إلى الرحبة خمسة أبواب حديد.

وذكر وكيع في وجه بناء المنصور مدينته المدورة لها معان لا توجد في غيرها، منها أن المدورة كالدائرة، إذا كان الملك في وسطها كان المركز لا يزيد هذا الطرف على ذلك الطرف، بالنسبة اليه. قال وكيع: وعمل فيها فصيلين بين كل بابين فصيلان، والسور الداخلي أطول من الخارج، وأمر أيضاً أن لا يبنى في الفصيل الثاني مع السور النازل، لأنه أحصن للسور، ثم بنى القصر والمسجد الجامع. وكان في صدر قصر المنصور إيوان، طوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، وفي صدر الإيوان مجلس عشرون ذراعاً في عشرين ذراعاً، وسمكه عشرون ذراعاً،

وسقفه قبة، وعليه مجلس مثله فوق القبة الخضراء، وسمكه إلى أول حد عقد القبة عشرون ذراعاً، فصار من الأرض إلى رأس القبة الخضراء، وترى من أطراف بغداد.

وروى أبو القاسم التنوخي: أنه سمع جماعة من شيوخه يذكرون أن القبة الخضراء كان على رأسها صنم، على صورة فارس في يده رمح، فكان الخليفة إذا رأى ذلك الصنم قد أستقبل بعض الجهات، ومد الرمح نحوه علم أن بعض الخوارج قد ظهروا من تلك الجهة، وقد سقط رأس القبة في ليلة مطر عظيم، رعدها هائل، وبرقها شديد، وكانت هذه القبة تاج بغداد وهي من آثار بني العباس العظيمة. وكان بين بنائها وسقوطها مائة ونيف وثمانون سنة، وعرض السور من أسفله عشرون ذراعاً، وعلى كل أزج من أزاج الأبواب مجلس له درجة على السر يرتقي إليه منها، وعلى هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة إلى السماء، سمكها خمسون ذراعاً مزخرفة على رأس كل قبة، منها تمثال تديره الريح. وكان المنصور إذا أحب النظر إلى الماء، وإلى منْ يقبل من ناحية خراسان، جلس على هذه القبة العظيمة، وإذا أحب النظر إلى الأرياض جلس على باب الشام، وإذا أحب النظر إلى الكرخ، ومن أقبل من تلك الناحية جلس على باب البصرة، وإذا أحب النظر إلىالبساتين والضياع جلس على باب الكوفة. وعلى كل باب من أبواب المدينة الأوائل والثواني باب حديد عظيم المقدار.

روى محمد بن علي الوراق: ان أبا جعفر المنصور نقل تلك الأبواب من واسط، وهي أبواب الحجاج التي وضعها في واسط، وأن الحجاج وجدها على مدينة كان قد بناها سليمان بن داود عليهما السلام بازاء واسط، كانت تعرف بزندرود. وابتنى المنصور قصره الذي سماه بالخلد على دجلة، وتولى ذلك أبان ابن صدقة والربيع، وأمر المنصور أن يعقد الجسر عند باب الشعير.

قال الشيخ أبو بكر: سمي القصر خلداً تشبيهاً له بجنة الخلد، لما فيه من كل منظر رائق، ومطلب فائق، وغرض غريب، ومراد عجيب، وكان موضعه وراء باب

خراسان. وروى ابن عياش التميمي عن جده أنــه قــال: كـان علـى أبـواب الشـام سليمان بن مجالد في ألف رجل، وعلى باب البصرة أبو الأزهر التميمـي في ألـف، وعلى باب الكوفة خالد الصكي في ألف، وعلى باب خراسان مسلمة بـن صهيـب نعساني في ألف. وكان لا يدخل أحد من بني عم الخليفة أبـي جعفر المنصـور ولا من غيرهم من الناس من هذه الأبواب سوى داود بن علـي العباسـي عـمّ المنصـور، فانه كان يدخل متفرساً، وكان يحمـل في عقبـه محمـداً المهـدي ابنـه. وروى أبـو إسحاق التميمي: ان المنصور جلس يوماً في قصر الخلد، وكـان عنـده رومـي فقـال الرومي: يا أمير المؤمنين انك بنيت بنـاء لم يبنـه أحـد قبلـك، ولكـن فيـه ثـلاث عيوب، قال وما هـي: قـال الأول بُعـده عـن المـاء، والثـاني أن العـين تشـتاق إلى الخضرة، وليس في بنائك هذا بستان، والثالث رعيتك معك في بنائك، وإذا كـانت الرعية مع الملك في بنائه فشا سره. فأجابه الخليفة أبو جعفر المنصور، بقوله: أمـا قولك في الماء فحسبنا من الماء بل شفاهنا، وأما قولك البستان فإنا لسنا ممن صرف أوقاته في اللهو واللعب، بل الرماح والسيوف لدينا أحـب مـن أغصـان الاشـجار، وأما قولك في إفشاء سري فمالي سر دون رعيـتي، فبهـت الرومـي. ثـم أن المنصـور وجه خالداً وشبيباً على أن يحفرا محفراً، ويمدا قناتين من دجلة. قال الشيخ ابــو بكر: مدّ المنصوور قناة من نهر دجيل الآخذ من دجلة، وقناة من أسـفلها محكمـة بالآجر والصاروج من أعلاها، وكان كل من القناتين المذكورين يدخل مدينة بغداد، وينفذ في الشوارع والأرياض ويجري صيفـاً وشـتاءً لا ينقطـع ماؤهمـا في وقـت مـن الاوقات أبداً.

وذكر الحارث بن أبي أســامة أن المنصـور فـرغ مـن بنـاء الرصافـة سـنة أربـع وخمسين ومائة. وذكر محمد بن موسى المنجم أن المعتصم وابن أبي دواد أختلفا في مدينة أبي جعفر المنصور والرصافة، أيهما أعلى قال: فأمرني المنصــور فوزنتهمـا، فوجدت المدينة أعلى من الرصافة بذراعين ونحو من ثلثـي ذراع. قـال الشـيخ أبـو

بكر: وربع الرصافة يسمى عسكر المهدي، وإنما سمي بذلك لأن المهدي عسكر به عند شخوصه إلى الري.

أقول: والرصافة. وربعها الذي عسكر به المهدي، هي بغداد في عصرنا هذا، وهي الجانب الشرقي من دجلة. وأما مدينة بغداد الموصوفة بتلك الأوصاف، التي ذكرناها. فهي واقعة في الجانب الغربي من دجلة، ولم يبق منها إلا بعض من محلة الكرخ وما يتصل به، وقد خربت واندرست آثارها، فلم تبق قصورها ولا سورها ولا قنواتها ولا أبوابها، وصارت بلاقع والله الباقي.

وكان أبو جعفر المنصور قد جعل المسجد الجامع في المدينة ملاصقاً قصره، المعروف بقصر الذهب وهو الصحن العتيق. وبناه باللبن والطين ومساحة القصر أربعمائة ذراع في أربعمائه ذراع، ومساحة المسجد الأول مائتا ذراع في مائتي ذراع، ولم يزل المسجد الجامع في المدينة على حاله إلى وقت هارون الرشيد، فأنه أمر بهدمه ونقضه وإعادة بنائه بالآجر والجص، ففعل ذلك وكتب عليه اسم الرشيد. قال ابن الاعرابي: وتحتاج القبلة إلى أن تحرف إلى باب البصرة قليلاً، وأن قبلة الرصافة أصوب منها، ولم تكن تقام صلاة الجمعة بمدينة السلام إلا في مسجد المدينة والرصافة، إلى خلافة المعتضد. فلما استخلف المعتضد أمر بعمارة القصر المعروف بالحسني على دجلة، وأنفق عليه مالاً عظيما وهو القصر الموسوم بدار الخلافة وأمر ببناء مطامير في القصر فرسما له أُسسها للصناع. فبنيت بناء لم يرْ مثله وجعله محابس للاعداء، وكان الناس يصلون الجمعة في دار الخلافة، وليس هناك رسم لمسجد وإنما يؤذن للناس في دخول الدار وقت الصلاة، ويخرجون عند إنقضائها. فلما استخلف المكتفي ترك القصر وأمر بهدم المطامير، وجعل موضعها مسجداً جامعاً في داره، يصلي فيه الناس. وكانت جسور بغداد كثيرة.

روى ابن درستوية: ان أبا جعفر لما بنى قصره، المعروف بالخلد، عقد الجسر عند باب الشعير، كما سبق. وروى أحمد بن الخليل بن مالك عن أبيه قال: كان

المنصور قد أمر بعقد ثلاثة جسور، أحدها للنساء، ثم عقد لنفسه وحشمه جسرين بباب البستان، وكان بالزندرود جسران عقدهما محمد (الأمين). وكان قد عقد الرشيد عند باب الشماسية جسرين، وكان لأبي جعفر جسر عند سويقة قطوطا. فلم تزل هذه الجسور إلى أن قتل محمد ثم عطلت، وبقي منها ثلاثة إلى أيام المأمون. ثم عطل واحد قال ابن شاذان: أدركت ببغداد جسور أحدها محاذي السوق، والثاني بباب الطاق، والثالث بأعلى البلد محاذي الميدان، وذكر غيره. إن الجسر الذي كان محاذي الميدان نقل إلى العرصة بباب الطاق، فصار هناك جسران تمضي الناس على أحدهما، ويرجعون على الآخر. وقال هلال بن المحسن: عقد جسر بمشرعة القطانين، فمكث مدة ثم تعطل، ولم يبق ببغداد بعد ذلك سوى جسر واحد بباب الطاق إلى أن حول سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، فعقد بين مشرعة الروايا من الجانب الغربي وبين مشرعة الحطابين.

هذا، وأما في عصرنا منذ أدركتُ وزارة، المرحوم المشير العلامة الحاج، داود باشا البغدادي طاب ثراه إلى يومنا هذا فليس في بغداد سوى جسر واحد، بين مشرعة الروايا ومشرعة الحطابين كما سبق، إلا أن مشرعة الحطابين اليوم أدخلت في الكمرك ورأس الجسر من الجانب الشرقي، مقابل الجامع المسمى بالآصفية، والمسمى بالمولى خانة، قبل أن يبنيه، المشير العلامة الحاج، داود باشا المشار إليه جامعاً، ورأسه الآخر في الجانب الغربي، مقابل المسجد بناه، المشيرالعلامة الحاج، داود باشا المشار إليه ايضاً في الجانب الغربي، وقد بلغني أن المشير الكامل اللوذعي مدحت باشا كان بصدد تحويل الجسر إلى موضع آخر، وانشاء جسر ثاني خارج البلد، وهو من المحسنات.

ونقل بعض المؤرخين عن محمد بن يحيى النديم أنه قال: كان عدد الحمامات ببغداد، في ذلك الوقت، ستين ألف حمام، وقال أقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر، يخدم في الحمام حمامي وقيم وزبال ووقاد وسقا، فيبلغ ذلك إلى

ثلاثمائة ألف رجل. وذكر أنه بازاء كل حمام خمسة مساجد، فيكون ذلك ثلثمائة ألف مسجد، وأقل ما يكون في كل مسجد خمسة أنفس، فيبلغ ذلك إلى ألف وخمسمائة ألف رجل.

وروى هلال في تناقض الحمامات أنها آلت في أيام عضد الدولة إلى خمسة آلاف حمام وكسر.

قال الشيخ ابو بكر في تاريخ بغداد: لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها، وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها، وتمييز خواصها وعوامها، وعظم أقدارها، وسعة أطرافها، وكثرة دورها ومنازلها، ودروبها وشوارعها، ومحالها وأسواقها، وسككها وأزقتها، ومساجدها، وحماماتها، وطرزها، وخاناتها، وطيب هوائها، وعذوبة مائها، وضرب ظلها وأفيائها، وإعتدال صيفها وشتائها، وصحة ربيعها وخريفها، وزيادة عدد سكانها. وأكثر ما كانت معمورة في أيام هارون الرشيد، إذ الدنيا في أيامه كانت قارة المضاجع، دارة المراضع، خصبة المواقع، موروده المشارع. وكانت أيامه كلها خيراً، وكأنها من حسنها عروس.

ثم حدثت فيها الفتن، وتتابعت على أهلها المحن فخربت عماراتها، وانتقل قطانها، ومع ما فيها من كثرة تغيير الاحوال فهي أطيب الامصار، وأعذب من سائر الديار، كأنها كاعب عذراء في غاية الحسن والبهاء. ومن أعظم المصائب التي حدثت فيها استيلاء التتر عليها، وإنقراض الدولة العباسية في أول سنة ست وخمسين وستمائة، فأنه قصد هولاكو ملك التتر بغداد، وملكها في العشرين من محرم، وقتل الخليفة المستعصم بالله. وسبب ذلك: أن وزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي كان رافضياً، وكان أهل الكرخ أيضاً روافض، فجرت فتنة بين السنة والرافضة، فأمر ابو بكر ابن الخليفة ركن الدين رئيس العسكر فنهبوا الكرخ، وهتكوا النساء وركبوا منهم الفواحش، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي وكاتب

التتر وأطمعه في ملك بغداد، وكان عسكر الخليفة يبلغ مائة الـف فـارس فقطعهـم المستعصم ليحمل متحصل اقطاعاتهم إلى التتر فصار عسكر بغداد أقل مـن عشرين ألف فارس، وأرسل ابن العلقمي إلى التتر يستدعيه، فجاء بعسكر عظيم، وخـرج عسكر الخليفة لقتالهم، ومقدمهم ركن الدين المذكور، والتقوا علـى مرحلتـين مـن بغداد، واقتتلوا قتالا شديداً، وانهزم عسكر الخليفة ودخل بعضهـم بغـداد، وسـار بعضهم إلى جهة الشام. ونزل هلاكو على بغداد من الجانب الشرقي، ونزل باجو، وهو مقدم كبير، في الجانب الغربي على القرية قبالة دار الخلافة، وخـرج الوزيـر ابن العلقمي إلى هلاكو ليوثق منه نفسه، وعـاد إلى الخليفـة المسـتعصم، وقـال: إن هلاكو قد يبقيك في الخلافة، كما فعل بسلطان الروم، ويريـد أن يـزوج أبنتـه مـن ابنك أبي بكر، وحسن له الزواج إلى هلاكو. فخرج المسـتعصم في جمـع مـن أكـابر أصحابه فانزل في خيمة، ثم استدعى الوزير الخبيـث العلمـاء والفقهـاء والمدرسـين والأشراف والأماثل. وكان من أجل العلماء محي الدين ابن الجوزي، فخرجـوا إلى التتر، ولم تزل تخرج طائفة بعد طائفة، فلما تكاملوا قتلهم هلاكو عن آخرهم. ثـم مدوا الجسر، وعبر باجو بعسكره وبذل السيف في بغداد، وقتلوا جميع منْ كان في بغداد، إلا منْ كان صغـيراً، فأنـه أخـذ أسـيراً، وهدمـوا دار الخلافـة ودام القتـل والنهب في بغداد أربعين يوماً. وأما الخليفة، فإنهم قتلـوه ولم يقـع الاطـلاع علـى كيفية قتله، فقيل خُنق، وقيل وضع في عدل ورفسوه بأرجلهم حتى مـات، وقيـل غرق في دجلة والله أعلم بحاله.

وكان المستعصم ضعيف الرأي، قد غلب عليه امراء دولته لسـوء تدبيره، تـولى الخلافة بعد موت أبيه المستنصر في سنة أربعـين وسـتمائة، فكـانت مـدة خلافتـه نحو ست عشرة سنة تقريباً. وهو آخر الخلفاء العباسيين، وكان ابتداء دولتهم سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وهي السنة التي بويع فيها السـفاح للخلافـة، وقتـل فيهـا

مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية. وكانت مدة خلافة العباسيين خمسمائة وأربعة وعشرين سنة تقريباً، وعدد الخلفاء العباسيين سبعة وثلاثون خليفة.

وقد اتفق للرشيد، على ما قاله الجاحظ: ما لم يجتمع لغيره، و وزراؤه البرامكة، وقاضيه أبو سيف، وشاعره أبو نؤاس ومروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس ابن محمد بن عم أبيه، وزوجته زبيدة المعروفة بالخيرات العظيمة بنت عمه (وفاتها سنة 216 هـ، ودفنت بجوار قبر موسى الكاظم عند قبر أبنها الأمين)، ومغنيه إبراهيم الموصلي، وحاجبه الفضل بن الربيع، أبهى الناس واعظمهم. والرشيد (ولادته 148هـ، ووفاته 193هـ، في طوس بجانب الرضا) من أجل ملوك الأرض. وقد بلغ رتبة الاجتهاد، وله النظر التام في العلوم والآداب، أخذ الحديث عن سفيان الثوري وغيره من الأئمة، وروى الحديث عنه ابنه المأمون، وكان يصلي في كل يوم وليلة مائة ركعة، ويحج عاماً ويغزو عاماً، ويتصدق من خالص ماله كل يوم بألف درهم، وكان كثير البكاء عند الوعظ، وكان كثير المحبة لسفيان الثوري، وكان سفيان يعظه فيبكي لوعظه، وكان يحب العلم ويوقر أهله.

وروى الإمام الغزالي، رحمه الله تعالى، في احياء العلوم وغيره عن أبي معاوية الضرير إنه قال: أكلت مع الرشيد يوماً، ثم صب على يدي الماء رجل لا أعرفه، ثم قال الرشيد: أتدري منْ يصب الماء على يديك قلت: لا، قال: أنا الرشيد إجلالا للعلم وأهله. وأخبار الرشيد يطول شرحها، ومحاسنه لا تحصى. وأما ما ينسب إليه من اللهو فهو من دسائس الرافضة، وكذا ما ينسب إلى أكثر العباسيين حاشاهم عن ذلك.

وكان الرشيد أبيض طويلاً جميلاً مليحاً عبل الجسم، قد خطه الشيب. ولد بالري حين كان أبوه أميراً عليها، وعلى خراسان في سنة ثمان وأربعين ومائة، وأمه الخيزران البربرية، بويع له بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادي في

الليلة، التي توفي أخوه فيها، وولد له تلك الليلة ولده المأمون. وكانت ليلة عجيبة لم يرْ مثلها في بني العباس، مات فيها خليفة وولي فيها خليفة وولد فيها خليفة. ونقش خاتمة العظمة والقدرة لله عز وجل، مات في الغزو بطوس من خراسان، ودفن فيها في ثالث جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة، وله خمسة وأربعون سنة، وصلى عليه ابن صالح، وكانت مدة ملكه ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين ونصف.

وأبو جعفر المنصور، الذي بنى بغداد، اسمه عبد الله (ورد السفاح) الذي هو ثاني (وردت أول) الخلفاء العباسيين، وكان السفاح قد ولى أخاه أبا جعفر المنصور إمارة الحج، أتاه خبر الخلافة بمكان يعرف بالصافية، فقال: صفا أمرنا إن شاء الله تعالى. فلما حج بهم ورجع بهم إلى الهاشمية بايعه الناس البيعة العامة. وكان فحل بني العباس، وكان طويلاً أسمر خفيف اللحية، رحب الوجه، كأن عينيه لسانان ينطقان، وأمه سلامة بشير البربرية، نقش خاتمه "أتق الله تزدد فتعلم". وكان ذا هيبة وشوكة وعظمة وشجاعة وجبروت، كثير الجمع للمال، متجنباً عن اللهو واللعب، كامل العقل تام الفهم داهية، قتلَ ظلماً كثيراً حتى إستقام أمره وملكه.

وأول منْ قتل أبا مسلم الخراساني، وضرب أبا حنيفة على القضاء، فأمتنع أبو حنيفة عن تقلد القضاء، ثم حبسه فمات بعد أيام، ولُقب بالدوانيقي لمحاسبته العمال والصناع على الدوانيق والحبات، وهو أبو الخلفاء العباسيين كلهم، أول خليفة قرب المنجمين، إليه وعمل باحكام النجوم، وأول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والعجمية بالعربية، كـ (كتب) اقليدس.

قال الذهبي في تاريخه: وفي سنة ثلاث وأربعين ومائة شرع علماء الاسلام في هذا العصر في تدوين الحديث، والفقه، والتفسير، فصنف ابن جرير بمكة، ومالك الموطأ بالمدينة، والاوزاعي بالشام، وابن ابي عمرويه وحماد ابن سلمة وغيرهما

بالبصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة، وصنف ابن اسحاق المغازي، وصنف أبو حنيفة الفقه. ثم بعد مدة قليلة كثر تدوين الكتب والعلم، ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ، وكانت الأئمة في هذا العصر تتكلم من حفظها.

وفي سنة ثمان وأربعين توطأت الممالك كلها للمنصور، وعظمت هيبته في نفوس الناس، ودانت له الأقطار والبلاد، ولم يبق قطر خارج عن ملكه، سوى جزيرة الأندلس فقط، فأنها كانت قد غلب عليها عبد الرحمن بن معاوية الأموي، وبقيت في يد أولاده إلى ما بعد الأربعمائة.

وفي سنة ثمان وخمسين ومائة شكا الناس ضيق المسجد الحرام، فاشترى المنازل التي حوله وأضافها إليه، وعمر مسجد الحنيف بمنى، ورخم الحجر وهو أول من رخمه. وسبب وفاته أنه لما عزم على الحج وكان يريد قتل سفيان الثوري، ووصل إلى بئر ميمون، بعث إليه اناساً، وقال: إن رأيتم سفيان الثوري فاصلبوه. وكان سفيان جالساً بفناء الكعبة، ورأسه في حجر فضيل بن عباس، ورأس فضيل في حجر سفيان بن عيينة، فقيل لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله قم فاختف، فتقدم سفيان إلى استار الكعبة وأخذها بيده، ثم قال: برئت منه إن دخلها أبو جعفر، ورجع إلى مكانه. فركب أبو جعفر من بئر ميمون، فلما كان بينها وبين الحجون سقط من فرسه، ودفن هناك وهو ابن ثلاث وستين سنة. وكانت مدة خلافته احدى وعشرين سنة واحد عشر شهراً واربعة عشر يوماً.

الباب الثالث

في بيان البيوت القديمة من ذوي العلم والسيف والقلم والتجارة في بغداد في عصرنا هذا

فمن بيوتها، ذات المجد الرفيع أقر بفضله جميع اهل العراق ولا فخر، بيتنا السادة الحيدرية، وهو أعظم بيت علم في بغداد. وكان افتاء الحنفية والشافعية منحصراً في الحيدرية، قبل طاعون بغداد. والآن أنحصر افتاء الشافعية فقط فيهم، وجميع إجازات علماء العراق تنتمي إلى الحيدرية، بل بعض إجازات اليوم ايضاً تنتمي إلى جدنا العلامة أحمد بن حيدر، صاحب المحاكمات، كما وقفتُ على إجازة المرحوم السيد أحمد صدقي أفندي، قاضي بغداد وغيره، وشهرتهم تغني عن بيانهم. ويتصل نسبنا، ولله الحمد، بموسى الكاظم رضي الله تعالى عنه، إلى سيد الرسل ﷺ. وكان جدنا الأعلى الشريف، المشهور بأحمد الاعرابي، في بادية الحجاز، وهو من أكابر أهل المدينة. وكانت أجدادنا تأخذ جزية اليهود والنصارى والصبة (الصابئة المندائية)، السيد عبد الغفور مفتي الشافعية ببغداد من خزينة البصرة، وكان لنا قرى كثيرة: كشهربان، وهبهب، وشروين قرب بغداد. وكان لنا وابني عمي في نواحي شهرزور وحرير مقدار ثلاثين قرية، في أيام السلاطين الأولين من الدولة العلية العثمانية من لدن السلطان، الغازي قهرمان الزمان، سليمان خان عليه الرحمة والرضوان، إلى أيام جدي في أيام المرحوم السلطان عبد الحميد خان الأول، والمرحوم السلطان سليم، والمرحوم السلطان مصطفى، والمرحوم السلطان محمود، ووالدي في أيام بعض السلاطين الموما إليهم إلى أيام المرحوم السلطان عبد المجيد خان.

وكادت الآن باب المجد أن تنسد، وقواعد الفضل أن تنهد، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، والسلطان حسن الطويل المشهور، الذي ملك بغداد وآمد وخراسان، هو جدنا من جهة الأم، وقد تفرق بعض أولاد جدنا الشريف أحمد الاعرابي إلى نواحي ما وراء النهر، ثم تولدت منه السلطنة الصفوية، وتتصل مع الصفوية في الشيخ صدر الدين بن القطب، الشيخ صفي أبي الفتح إسحاق. وأول منْ ترفض من الصفوية إسماعيل شاه الصفوي، بالقاء بعض الزندقة إليه، بواسطة هذا التعصب الشنيع، تكون لعساكره وبلاده حمية القتال مع المرحوم السلطان سليم خان الأول، ويحصل له التفوق والغلبة، على ما قاله بعض المؤرخين، فصار ممن خسر الدنيا والدين نعوذ بالله من سوء المنقلب.

وقد روى رواية شهيرة: أن الشيخ صفي الدين رأى في المنام، أن قد خرج من يده اليمنى نور أمتد إلى عنان السماء، ومن يده اليسرى كلب، فلما أفاق قص الرؤيا على أحد المعبرين. فأول النور بأنه سيكون له ولد، يتناسل منه العلماء إلى إنقراض الدنيا، وأما الكلب، فأنه سيولد له ولد يتناسل منه اناس رفضة خوارج عن جادة الكتاب والسنُّة. وقد وقع ذلك لأن الحيدرية من لدن صفي الدين إلى يومنا هذا، ولله الحمد، لم تنقطع العلماء منهم، بل ورثوا العلم من أب وجد ولا فخر. واسأل الله تعالى أن يمد ذلك إلى قيام الساعة، كما أول ذلك. والملوك الصفوية أرتدوا على أعقابهم وترفضوا، وتركوا مذهب آبائهم أهل السنة والجماعة، فنعم الجدود، ولكن بئس ما خلفوا.

ومنهم بيت السادة القادرية الكيلانية، وشهرتهم تغني عن مدحهم، وهم بيت فضل وسيادة ومشيخة وارشاد، وجدهم الغوث عبد القادر الكيلاني (470 – 561هـ)، أنفسنا الله تعالى بعلومه، وبركاته، ومناقبه لا تحصى، وقد نشأ فيهم علماء أعلام، منهم: العلامة اللوذعي، السيد عبد الرحمن النقيب، فأنه أخذ العلم عن جدنا، أفضل المتأخرين العلامة الفهامة المحقق، السيد صبغة الله الحيدري،

وكذا عمه الفاضل الهمام السيد على النقيب أخذ العلم عن جدنا المشار اليه، ونقباء بغداد من أهل هذا البيت المرفوعة قواعده إلى كيت وكيت. ولكن كانت النقابة منحصرة ومشروطة في أولاد السيد عبد الرزاق بن القطب الكيلاني إلى أيام علي باشا، ثم أنقرضوا، ولم يبق منهم إلا بعض الفقراء، فانتقلت إلى بعض الفقراء، فأنتقلت إلى بعض أولاد الشيخ عبد العزيز بن القطب الكيلاني.

ومنهم: بيت المجد آل شاوي العبيدي الحميري، وهو بيت فضل وعلم وشجاعة وكرم ورئاسة ونجابة وأدب وحسب ونسب، وكانت لهم الكلمة النافذة في جميع قبائل العراق، ورياسة العرب لدى وزراء بغداد، كالنعمان بن المنذر عند كسرى. وقد حازوا العلم والسيف والقلم والشجاعة والرياسة وسائر المفاخر، وكان يعيش في كنفهم خلق كثير من كل صنف، ولهم الصولة القاهرة بين القبائل، وجدهم الأعلى شاوي بك من آل شاهر شيوخ قبيلة العبيد. وكان لشاوي بيك ولد يسمى عبد الله بيك وهو أحنف وقنه، وكانت له الرياسة الكبرى، والصولة العظمى وله من الخيرات، والكرم ما لا تحصيه الأقلام، وقد ولد له اثنا عشر ولداً، كل منهم أمير عالم فاضل كريم شجاع شاعر أديب، وكانوا ملجأ الخواص والعوام في بغداد، وصدقاتهم وعطاياهم للعلماء والشعراء والفقراء، كعطايا البرامكة وهم أهل الحل والعقد، وإليهم تنتهي الأمور، وأجلهم قدراً وأعظمهم فخراً، العلامة النحرير والأسد الغضنفر الكريم الشهير الأمير بن الأمير، الحاج سليمان بك الشاوي الحميري، خال والدي طاب ثراهما، وكان شاعره محمد كاظم الأزري البغدادي، وقد مدحه بقصائد كثيرة جمعت ديواناً كبيراً، وله وقايع عظيمة في الكرم والشجاعة، وكانت عشيرة العبيد حينئذ تبلغ خمسة عشر ألف فارس، وهم جميعهم وسائر القبائل الزبيدية، كالجبور والدليم والعزة وعزيز وغيرهم، في طاعته وأمره فهو نعمان عصره، وقد غار مع قومه على تيمر(تيمر أو تيمور والعرب تقول: تمر باشا استئناساً بالمألوف من الأسماء أو تحقير له "الأب انستاس

الكرملي") باشا الملي من العراق إلى نواحي اورقا ودمره، وفرق جمعه وأخذ أمواله وقد كاد أن تنطفي نار هذا البيت، وبقي منهم رجال في بغداد وفي البادية بين عشيرة العبيد، ومن أولاده عبد العزيز بيك، الذي ولدَ له ولد سماه باسم سعود.

وأجل منْ بقي منهم، الفاضل الأديب والكامل الفطن اللوذعي النجيب، أحمد بيك نجل عبد الحميد بيك، نجل أحمد بيك، نجل الأمير، العلامة الحاج، سليمان بيك آل شاوي العبيدي الحميري، المشار إليه، ولهذا الفتى النجيب نظم ونثر رائق، ونقد بالشعر الجيد، وله آثار حسنة في الآداب. هذا، وقد نظم المرحوم الحاج سليمان بك، المشار إليه، "القطر في النحو لابن هشام، وشرح لامية العرب شرحاً لطيفاً. ومن أخوته، أحنف وقته علماً وعقلاً ورأياً وتدبيراً، محمد بيك بن عبد الله بيك الشاوي، وكذا أخوه الفاضل عبد العزيز بيك، رحمهم الله تعالى. وتفصيل مآثر رجال هذا البيت لا يسعه المقام.

ومنهم بيت كوسه دفتردار، وهو بيت سيادة وفضل ومجد وسيف وقلم، من البيوت المشيدة الأركان لهم الخيرات الوافية، والمبرات الكافية، وهم من أهالي اسلامبول.

ومنهم بيت القلعبند، وهو بيت علم وفضل، من البيوت القديمة، وكان فيهم رجال أكابر، وقد سدت باب بيتهم، فلم يبق منهم إلا رجل صالح من طلبة العلم، وهو في غاية الحاجة، اسمه عبد الغني، فسبحان، الذي لا يفنى عزه. وقد أخذ الفاضل القلعبند العلم عن جدنا العلامة السيد صبغة الله الحيدري.

ومنهم بيت سميكة، بالتصغير، وهو بيت علم وتقوى وصلاح وخيرات وتجارة، وكان منهم العالم الفاضل الكامل العامل الورع الزاهد الحاج سميكة، مفتي الحنبلية ببغداد، وأخذ العلم عن جدنا العلامة السيد حيدر الحيدري، مفتي الحنفية ببغداد، وعن جدنا الولي العلامة السيد عبد الله الحيدر، وكان تاجراً عظيماً، يزكي كل سنة من ماله مقداراً يفي بأكثر أهل العلم وغيرهم، وكان

ينفق على أهل القلم من الملبوس والمأكول ما يطول شرحه، وما رد سائلاً مدة عمره. وكان إذا دخل الجامع في يوم الجمعة حمل بيده اناءاً مملوءاً من دهن الورد، ورشه على الجماعة بمنديل ليفوح الجامع طيباً، على ما حدثني والدي. وكان يدرس في مدرسة مرجان، من طلوع الشمس إلى صلاة الظهر، كل فن، ويدرس كتب المذاهب الأربعة رضي الله تعالى عنهم، ويقصده طلبة الحنابلة من نواحي نجد لرواية مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، فإذا صلى الظهر ذهب إلى الخان للتجارة إلى صلاة العصر، وله من المناقب الجليلة ما يحتمل مجلداً رحمه الله تعالى، وقد خمدت نارهم ولم يبق منهم الآن أحد، وعلى الدنيا السلام.

وآخر من أدركت منهم الكامل الفقيه الأديب النجيب درويش، نجل العالم التقي و يس عصره الحاج، إبراهيم سميكة، شقيق الحاج موسى المشار إليه (وفاته سنة 1231هـ) وقد انزوى الحاج إبراهيم المذكور في بيته أربعين سنة، فلم يخرج منه إلى أن خرجت جنازته رحمه الله تعالى.

ومن البيوت القديمة بيت الحاج إسماعيل المفتي، وهو بيت علم وفضل ومجد وقبول بين الناس، ويا له من بيت! كانت قواعده مرفوعة، وأركانه مشيدة ممنوعة، وهو بيت الافتاء. ولبيتنا معهم قرابة من جهة النساء، ولم يبق منهم الآن أحد، وصارت ديارهم بلاقع، وعلى الدنيا السلام، وهم من أهالي سر من رأى.

ومنهم بيت العلامة الشريف أحمد المفتي الطبقجلي وهو بيت علم وسيادة وفضل، وقد أخذ الطبقجلي المذكور العلم عن جدنا العلامة الشريف السيد صبغة الله الحيدري، وكان من أجل تلاميذه، ولم يبق منهم أحد.

---

[1] ولد سنة 1150هـ، وينتهي نسبه إلى ابن عمّ السيد أحمد الرفاعي، وتوفي سنة 1213هـ، ودفن في مقبرة الشيخ عبد القادر الكَيلاني.

ومنهم بيت الفاضل محمد سعيد المفتي[1] المشهور ببيت مفتي الحلة، وهو بيت علم وفضل وسيادة، وقد أخذ محمد سعيد المفتي المذكور العلم عن جدي، العلامة السيد الشريف، أسعد المفتي ببغداد الحيدري، وبقي منهم بعض الطلبة، وهم بنو عمّ الطبقجلي من أهالي حديثة من نواحي عانة.

ومنهم بيت الفاضل العلامة عبد الله بن مرتضى المفتي، وهو بيت علم وفضل، وقد أخذ العلم عن جدنا العلامة النحرير السيد صبغة الله الحيدري، وكان لعبد الله المفتي المذكور ولد فقيه، يسمى عبد الفتاح الفقيه، وكان افقه أهل عصره، ويدعى بأبي يوسف الثاني، وله أخ يسمى الحاج أحمد نائب بغداد، وآخر مَنْ أدركت من رجال هذا البيت الكامل الفقيه درويش، النائب ببغداد نجل أحمد النائب، ولم يبق منهم أحد سوى بعض العصبة من أهل الكسب، وهم من أهالي بهرز من قرى بغداد (حالياً من قرى بعقوبة).

ومنهم بيت الرحبى، وهو بيت علم، وقد نشأ فيهم رجال أجلهم الشيخ عبد العزيز الرحبي شارح كتاب الخراج لأبي يوسف، ولم يبق منهم إلا بعض العامة وهم من أهالي الرحبة.

ومنهم بيت الخطيب، وهو بيت فضل وسيادة، وهم خطباء الجامع الأعظمي، وآخر منْ أدركت منهم الكامل الداهية السيد أحمد الخطيب، ولم يبق منهم إلا بعض العامة، وهم من أهالي سر منْ رأى.

وأما بيت جميل فهم بيت علم وفضل، وآخر منْ أدركت من هذا البيت عبد الغني وأخوته عبد الجليل، وعبد الحميد وعبد المحسن. وأما عبد الغني فقد قرأ

---

[1] هو سعيد أفندي بن السيد محمد أمين، كما جاء ثبت أسمه في كتاب المسك الأذفر، وهو الأخ الصغير لمحمد سعيد افندي مفتي الحنفية في بغداد، وتوفي بالحلة في 20 رمضان 1271 هـ، يوم الإسهال ودفن بمقبرة قرب الوردية، خارج بلدة الحلة. وقيل إنها ليست قرب الوردية، بل هي الباب المعروف بباب الخيف (الشيخ ياسين آل باشا عيان).

على جدي الفاضل محمد أسعد، مفتي الحنفية الحيدري، على ما حدثني بذلك والدي طاب ثراه، ثم تقلد عنه عبد الغني إفتاء بغداد في أيام علي رضا باشا، فهيج أهالي بغداد على الوزير المشار إليه، وبعد مدة اصطلح معه الوزير المذكور. ومن البيوت القديمة، بيت الشيخ ياسين المفتي، وهو بيت علم وفضل، ولم يبق منهم أحد.

ومنهم بيت رفه، وهو بيت فضل وسيادة وتجارة، وبقي منهم بعض التجار، ومنهم بيت السويدي، وهو بيت على الحديث والفضل، وقد نشأ فيهم رجال أجلهم الشيخ عبد الرحمن السويدي، محشي تحفة ابن حجر، ولم يبق منهم إلا بعض المكتسبة. ومنهم، بيت الراوي، وهو بيت فضل وتجارة، ولم يبق منهم إلا بعض المكتسبة، ونشأ فيهم علماء، وهم من أهل راوة من نواحي عانة.

ومنهم بيت الشواف، وهو بيت فضل وأدب، وقد نشأ فيهم رجال كالفاضل اللوذعي الشيخ عبد العزيز الشواف رحمه الله، فأنه كان الآية الكبرى في الفهم والذكاء. وآخر منْ أدركت منهم أخوه الفاضل الأديب عبد الرزاق الشواف رحمه الله تعالى، وخلف الشيخ عبد الرزاق نجله الكامل الأديب طه أفندي وفقه الله تعالى. وقد أخذ الشيخ عبد العزيز العلم عن عدة علماء، أعلام فأخذ عن جدي العلامة السيد أسعد المفتي ببغداد الحيدري، وكمل على الفاضل صبغة الله الزيادي، وهم من أهالي الدير أي دير الزور. ومنهم، بيت العلامة بكتاش أفندي، وقد أخذ العلم عن جدنا السيد صبغة الله الحيدري، وهو من أجل تلاميذه، وكانت له الفكرة الثاقبة، ولم يبق منهم أحد. ومنهم، بيت مدلج، وهو بيت فضل وتقوى، ولم يبق منهم إلا بعض ذوي الأرحام.

ومنهم بيت شطي، وهو بيت علم وتقوى وتجارة، من البيوت القديمة ببغداد، ولم يبق منهم إلا بعض السكان في الشام. ومنهم، بيت أحمد النائب، وهو بيت فضل، ولم يبق منهم أحد.

ومنهم بيت العلامة الفهامة النحرير، أفضل المتأخرين الشيخ عبد الرحمن الروزبهاني طاب ثراه، فأنه كان شيخ العلماء في عصره، وأخذ عنه كثير من العلماء الفحول، لا يحصى عددهم، من جملتهم عمّنا العلامة السيد عبد الله المفتي الحيدري، ومنهم، علامة الدنيا سند المدققين الخطي وشيخنا العلامة الزاهد العابد، أحمد الكلالي، وشيخنا العلامة الزاهد إبراهيم الرمكي وغيرهم من الفحول، وقد أدركته واستفدت منه كثيراً من المنقول والمعقول، وكان جليل القدر عند الناس مهاباً ذا حيثية، أي منزلة وقدر عظيمة، أخذ العلم عن العلامة صبغة الله الزيادي عن عمّنا العلامة الولي السيد صالح الحيدري، وكان في زاوية، حضرة مولانا وشيخنا المجدد قطب العارفين بالله مولانا الشيخ خالد النقشبندي قدس سره، وكان هو وحضرة مولانا خالد كأنهما إخوان، ولهما صحبة عجيبة من زمن تحصيل العلم إلى إكمالها، ولنا مع هذا قرابة نساء، وحق هذا البيت التقدم على البيوت، إلا أن القلم زل بتأخيره في الذكر، وقد خلف نجله، الكامل اللوذعي الصالح حبيبي، أحمد أفندي طال عمره، وهم من أولاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومنهم بيت الحاج أسعد أفندي، وهو بيت علم وفضل، وكان للحاج أسعد أفندي المشار إليه شأن عظيم ورياسة كبرى، في زمن العلامة الحاج داود باشا والى بغداد، وقد أخذ العلم من جدي العلامة النحرير السيد أسعد أفندي المفتي الحيدري، وعن العلامة الشيخ عبد الرحمن الروزبهاني المشار اليه، وأخذ جدهم الفاضل الصالح عيسى العلم عن جدنا، العلامة الفهامة، السيد صبغة الله الحيدري، وهذا البيت أيضاً من حقه التقديم. ومنهم، الآن الكامل اللوذعي حبيبي أحمد أفندي، وأخوه العالم الفاضل العامل والورع حبيبي وأخي، منذ نشأت ونشأ مصطفى أفندي، وهم من أولاد ابان بن عثمان بن عفان(في هامش بعض النسخ إشارة إلى إشتهار هذا البيت باسم نائب زائدة).

ومنهم بيت فرهاد، وهو بيت تجارة وخيرات ومبرات كثيرة، وهم من أولاد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان من هذا البيت الرفيع العماد المرحوم الحاج سليمان، صاحب الخيرات والطاعات فأنه بنى جامعاً في بلدة كركوك، ومدرسة جعل فيها كتباً كثيرة نفيسة موقوفة، ووقف عدة أملاك على الجامع والمدرسة لنفقة طلبة العلم، وخدمة الجامع وأصلهم من كركوك، والأصل الأول من عبدلان في نواحي الاكراد.

ومن البيوت الرفيعة العماد بيت اللوذعي عبد الباقي العمري، وهو بيت، فضل وأدب، وقد نشأ منهم شعراء وادباء، وأجل منْ أدركت منهم، وصحبته ولازمت مجالسته، اللوذعي المبتكر عبد الباقي المشار إليه، وابن أخته، الفاضل اللوذعي الأديب، محمد أمين العمري كاتب العربية، وهذا البيت في الأصل من الموصل(وفاته في رجب 1278هـ، وهو شاعر مجيد له ديوان مطبوع، وأشهر قصائده تخميسه الهمزية، كيف ترقى الخ). ومن البيوت القديمة، بيت عبد الرحمن أفندي الأعظمي المشهور ببيت الجلبية، وهو بيت مجد، ونشأ فيهم عبد الرحمن المشار إليه، وكان داهية، ولنا معهم قرابة نساء، وبقى منهم بعض الناس، وهم من القصبة الاعظمية. وممن نشأ في هذا البيت الشيخ الحاج عبد الرزاق أفندي، وكان عليه الرحمة تقياً عازماً للفقه والحديث.

ومن البيوت القديمة الرفيعة العماد، بيت الإمام عبد الله الأعظمي، وهو بيت فضل ومجد، ولنا أيضاً معهم قرابة نساء، وبقى منهم بعض الناس، وهم من القصبة الأعظمية. ومنها بيت جرجيس في الجانب الغربي، وهو بيت علم وتجارة، وبقي منهم العالم الكامل الشيخ داود النقشبندي، وهم من أهل عانة. ومنها بيت الآلوسي وقد نشأ فيهم الفاضل محمود الآلوسي (وفاته سنة 1270هـ) وله آثار لطيفة في العلوم، منها تفسير روح المعاني، وهو في الأصل من آلوس قرية قرب عانة وقد تقلد الإفتاء. ومنها بيت شيخي وسيدي ولي الله بلا نزاع، المرشد

الكامل الشريف مولانا السيد عبد الغفور المشاهدي النقشبندي قدس سره، خليفة حضرة مولانا خالد قدس سره. ومنها بيت سيد محمود الأرفلي، وهو بيت سيادة وتجارة، وبقى منهم بعض اناس وبعض ذوي الأرحام من أولاد الباجةجي.

ومن البيوت القديمة الرفيعة، بيت إسماعيل كهية، وهو من البيوت المشيدة الأركان ومن أكابر الأعيان من ذوي السيف، وكان لهم الجاه والثروة التامة. ومن البيوت القديمة الرفيعة، بيت محمود كهية، المشهور بأبي خنجر، ولم يبق منهم أحد. ومن البيوت القديمة الرفيعة، بيت خليل أفندي الدفتري، وهو بيت عز، وكان الأفندي المشار إليه من أكابر الرجال، الذي لم تزل رجال بغداد تجتمع في مجلسه، وبقي منهم نجله الأديب حلمي أفندي، وهو على سيرة أبيه ومن يشابه أبيه فما ظلم.

ومن البيوت القديمة الرفيعة بيت علوش أفندي المعروف، وهو بيت مجد وعز، وكان الأفندي المشار إليه من الرجال الثقات من ذوي الهمم العالية، وهم من عشيرة القراغول. ومن البيوت الرفيعة الأركان بيت درويش أغا القائمقام ببغداد، وهو بيت مجد وعز ورياسة، ولهم القول بين الناس، وأجلهم درويش أغا المشار إليه، فأنه كان ثقة عدلاً ذا مروءة ورأي وعقل سديد، وكان حافظ القرآن، وكان مستشاراً للوزراء في الأمور، وبقي منهم بعض أولاد النجباء.

ومن البيوت القديمة الرفيعة، المشيدة الأركان، بيت نعمان أفندي القائمقام ببغداد، وهو بيت مجد وعز، وكانت للأفندي المشار إليه الصولة القاهرة ببغداد، حتى أنه قد أشتهر في لسان أهل بغداد من لم يؤدبه الزمان يؤدبه نعمان، ولم يبق منهم أحد. ومن البيوت الرفيعة العماد المشيدة الأركان، بيت بكر كهية، وهو بيت مجد وعز وخير، وقد ولي أخوه عمر باشا وزارة بغداد خمس عشرة سنة، وآخر منْ أدركت منهم الأديب خليل بك وكان فارابي عصره في علم الموسيقى، ولم يبق منهم إلا بعض النساء. ومنها بيت العالم العامل أحمد أفندي الزندي،

ونشأ فيهم العالم المشار إليه، وكان من العلماء العاملين المشهورين بالصلاح والانزواء عن الناس، وقد أخذ العلم عن جدي العلامة السيد أسعد المفتي الحيدري. وخلف نجله العالم العفيف محمد أمين أفندي، وقد ولي هذا الأفندي نيابة بغداد وإفتاءها، ثم بعد حين جلب إلى دار الخلافة اسلامبول (استانبول) وأنعمت عليه الدولة العلية رتبة قضاء مكة المشرفة. وأما الفاضل محمد الزهاوي، مفتي الحنفية ببغداد، فهو من بلدة السليمانية أتى بغداد وسكن بها، وكانت وفاته سنة 1308هـ.

ومن البيوت القديمة الرفيعة العماد، بيت الحاج صالح أغا، رئيس الكتاب، وهو بيت مجد وعز وخير، وبقي منهم البعض. ومن البيوت القديمة الرفيعة العماد المشيدة الأركان، بيت عبد الجليل بك، وهو بيت مجد وعز ودولة وخير، ومن أعظم بيوت بغداد بل لا يحاذيهم أحد في اطعام الطعام. وكان من أكابر المنتفك وغيرهم، إذا وردوا بغداد لا ينزلون إلا عندهم ويقيمون شهوراً واعواماً، وكان جدهم يوسف باشا أمير الحاج التوجه من جهة، وهو بيت عظيم القدر جليل الشأن، ورثوا الجاه والنجابة، كابراً عن كابر، وبقي منهم البعض، ولنا معهم قرابة نساء من ذوى الأرحام.

ومن البيوت الرفيعة بيت الحاج عبد الله أغا قائمقام البصرة سابقاً (وفاته في سنة 1221 هـ، وهو متسلم البصرة وليس قائمقاماً) وكان الأغا المومى إليه من الرجال الثقات الكاملين الأخبار، وقد بنى جامعاً عظيماً في البصرة، وفي بندر أبي شهر. ومنها بيت عبد الرحمن أفندي الأرفلي، المشهور بينكجرى أفندي، وهو بيت عز وكانت للأفندي المشار إليه الرياسة على البنكجرية في السابق، ثم تقلد منصب الدفترية، وكان كاملاً، وله عدة اولاد. ومن البيوت الرفيعة الأركان، بيت صارى كهية، وهو بيت مجد قديم، ونشأ فيهم رجال كرام، ولم يبق منهم أحد. ومن البيوت

الرفيعة القديمة، بيت حسن بك متولي جامع العدلية، وهو بيت مجد وخير، وهم من أولاد صالح باشا والي كركوك، ولم يبق منهم احد.

ومنها بيت الجرجفجي، وهو من بيوت العز، ولهم قرابة نساء مع بيت متولي العادلية، وبتلك القرابة نالوا تولية الجامع المذكور، بعد إنقراض بيت حسن بك، وبقي من هذا البيت بعضهم. ومنها بيت طوبق، وهو بيت عز وتجاره وجاه، ولم يبق منهم أحد. ومنها بيت نظمي زادة، وهو من البيوت القديمة الرفيعة، وكانوا أصحاب قلم، ومنها بيت الروزنامه جي، وهو بيت عز قديم. ومنها بيت أحمد أفندي الموف، وهو بيت عز وصلاح وخير، وكان الأفندي المشار إليه صاحب خيرات، وقد بنى جامعاً ومدرسة ببغداد، وجعل لها كتباً واوقافا، ولم يبق منهم إلا بعض النساء.

ومنها بيت السيد رحمة الله أغا الحبيبه جي، وهو من البيوت القديمة الرفيعة، بيت المجد والعز والسيادة والجاه، ولم يبق منهم أحد، ودارهم صارت لصالح بيك نجل المرحوم سليمان باشا والي بغداد، ثم صارت للقنصل الانكليزي (شق الشارع هذه البناية فقسم منها الآن دائرة البرق المركزية والآخر دائرة كمارك). ومنها بيت عمر أغا الحبيبه جي، وهو من البيوت القديمة، وبقي منهم البعض، ومنها بيت الغرابي، وهو بيت فضل قديم، ولم يبق منهم إلا بعض الناس، ومنها بيت القشطيني، وهو بيت عز ولم يبق منهم أحد (مازال موجود منهم عدد من الأُسر). ومنها بيت مينه، وهو بيت عز وتجارة، ولم يبق منهم أحد. ومنها بيت عرموش، وهو بيت عز وتجارة، ولم يبق منهم إلا بعض الناس(يطلق على هذا البيت في أيامنا بيت الملا حمادي).

ومنها بيت ورنكر، وهو بيت عز ودولة وجاه، وهو من بيوت المجد القديمة، ولما ورد المرحوم السلطان مراد خان بغداد دعوه إلى محلهم وأجابهم، ففرشوا تحت حوافر الخيل من محل السلطان إلى محلهم ديباجاً، وبقيت القبة التي

جلس السلطان فيها مسدودة إلى أيام الحاج أمين التوكمه جي، ولم يبق منهم أحد. ومنها بيت التوكمه جي، وهو بيت عز وتجارة وخير، ولم يبق منهم إلا بعض النساء.

ومنها بيت الباجه جي، وهو بيت عز وتجارة وخيرات ومبرات ودولة وتجارة عظيمة، وقد نشأ فيهم الحاج نعمان جلبي، ونال من المال ما لم ينله أحد من التجار، وكان ذا جاه عظيم وصاحب خيرات كثيرة، وكان يطعم جميع فقراء بغداد وغيرهم من الواردين إلى بغداد سنة القحط والغلاء، وبني جامعاً وكذا بنى أخوه الحاج أمين جامعاً ببغداد، ثم قام مقام الحاج نعمان المذكور الحاج سليم جلبي ابن أخيه، وفي حق مقامه، وبقي منهم رجال من ذوي التجارة، وأجلهم في عصرنا هذا عبد الرحمن جلبي نجل المرحوم الحاج سليم جلبي، وهو من أهل الدراية والفهم والصدق والوفاء، وهم في الأصل من أكابر أهل الموصل من السباهية، والباجه جيون أخوالهم نسبوا إليهم، ولهم سابقة التوطن في بغداد.

ومنها بيت الملا عبد الرزاق الحافظ البرزلي، وهو بيت تجارة وعز وخير وصلاح، وكان الملا المشار إليه من أكابر الناس، ومن التجار الصالحين ذا طاعة وعبادة كثيرة، ملازم الجماعات كثير الخيرات وجيهاً عزيزاً بين الناس، وبقي منهم بعض التجار. ومنها بيت تجارة وعز وخير نشأ فيهم بعض العلماء، كمحمد سعيد دله، فأنه اخذ العلم عن جدنا العلامة السيد صبغة الله الحيدري.

ومنها بيت الحاج سعيد البقال، وهو بيت تجارة، ولهم قرابة نساء مع بيت دله، وبقي منهم بعض الأخبار. ومنها بيت الأدهم، وهو بيت سيادة، وتقوى وفضل ويتصل نسبنا مع نسبهم في السيد إبراهيم الملقب بالأدهم، وهذا البيت من أعظم بيوت الشرف والسيادة، ونشأ فيهم السيد عبد الله الأدهم، وكان مظنة الولاية وأفضلهم في عصرنا هذا السيد عبد الرحمن الأدهم، وهو من العلماء العاملين. ومنها بيت سند، وهو بيت تجارة وخير، ولم يبق منهم أحد.

ومنها بيت الوتري، وهو بيت صلاح، وبقي منهم بعض الناس، ونشأ في هذا البيت القديم الرجل الصالح والعالم الفاضل السيد يحيى أفندي، وتقلد التدريس في جامع الأحمدية في بغداد. ومنها بيت الإمام، وهو بيت خير وتجارة، وبقي منهم البعض. ومنها بيت هاشم، وهو بيت تجارة وخير، وبقي منهم البعض. ومنها بيت هاشم، وهو بيت تجارة وخير، وبقي منهم البعض من سكن الشام. هذا ما ذكرناه من معاشرنا أهل السنّة والجماعة من بعض المشاهير، وأما الشيعة فكان أعظم بيوتهم من ذوي التجارة العظيمة، بيت المزرقجي، ولم يبق منهم إلا بعض الفقراء. ومنها بيت كبة، وهو بيت عظيم في التجارة، ونشأ فيهم الحاج صالح كبة، وهو رجل ثقة له حصة من العلم وصاحب خيرات وافية، وبقي منهم عدة تجار، وأصلهم من قرية بهرز، من نواحي بغداد من أهل السنّة والجماعة، ثم تشيعوا.

ومنها بيت سيد عيسى، وهو بيت تجارة وافية، ونشأ فيهم السيد محمد علي، وكان صاحب أخلاق حميدة ووفاء، وبقي عدة تجار، وهو من البيوت القديمة العزيزة. ومنها بيت شالجي موسى، وهو بيت تجارة وأدب، وأصلهم من عشيرة المهندية من أهل السنّة، ثم تشيعوا، وبقي منهم بعض التجار. ومنها بيت القيمجي، وهو بيت تجارة وعزّ، وبقي منهم البعض. ومنها بيت المراياتي، وهو بيت تجارة وأدب، وبقي منهم البعض. ومنها بيت الخاصكي، وهو بيت تجارة وعزّ، وهو من أولاد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم تشيعوا، ولم يبق منهم إلا بعض الناس. ومنها بيت الطالقاني، وهو بيت عزّ وتجارة، وبقي منهم البعض. ومنها بيت الأعرجي، وهو بيت عزّ وتجارة، وبقي منهم البعض. ومنها بيت جلال، وهو بيت تجارة، وبقي منهم البعض. ومنها بيت المعلجي، وهو بيت تجارة وأصلهم من الروم، وردوا إلى بغداد مع المرحوم السلطان مراد، ثم تشيعوا وبقي منهم البعض. ومنها بيت سيد يحيى، وهو بيت متجر، وبقي منهم البعض.

ومنها بيت القصابجي، وبيت هلال، وبيت الدامرجي، وهي بيوت تجارة، بقي منهم البعض.

واما النصارى، فمن بيوتها القديمة، من ذوي التجارة والترجمانية، بيت ميناس من الارمن. ومنهم بيت كزبر خان، وهو بيت تجارة وافية، وبقي منهم البعض. ومنها بيت يوسف جبره من الكاثوليك، وهو بيت تجارة قديمة، وقد سبق لأجدادهم خدمة صادقة لأجدادنا من قديم الزمان، وقد عاشوا في دولة وصيانة، ولم يبق منهم إلا بعض النساء والأولاد من ذوي الحاجة، ومن الكاثوليك بيت الذرية، وكان أبوهم مقتر الحال. ومنهم بيت جبره أصفر، وهو بيت تجارة، وبقي منهم بعض التجار، وهو بيت جبوري أصفر ،ومحلهم بالبصرة محل كبير مشتهر بالتجارة ورئيسه الآن البير أصفر. ومنها بيت الياس عيسى، وكان بيت تجارةن وبقي منهم البعض. ومنها بيت اسكندر من الارمن، وهو بيت تجارة وافية، وبقي منهم البعض. ومن الارمن كاثوليك بيت حنا باش، وهو بيت تجارة، وبقي منهم البعض وغير ذلك من البيوت.

وأما اليهود فمن بيوتها القديمة، من ذوي التجارة والرياسة على يهود بغداد، عزره وصراف باشي، وبقي منهم البعض. ومنها بيت بوضه، وهو بيت تجارة وبقي منهم البعض. ومنها بيت السوميخ، وهو بيت تجارة وافية، وبقي منهم البعض من التجار. ومنهم بيت ساسون، وهو بيت تجارة وافية ومسامحة مع العالمين، وبقي منهم بعض التجار. ومنهم بيت أبي قبلاغ، وكانوا بيت تجارة، وبقي منهم البعض من أهل الحاجة. ومنها بيت بحر، وهم أهل تجارة وافية، وبقي منهم البعض. ومنهم بيت الكرجي، وهو بيت تجارة، وبقي منهم البعض وغير ذلك. وقد أقتصرنا على البعض من كل ملة خوف الاطناب والملل.

الباب الرابع

في بيان عشائرها الجسيمة

فمن أجل عشائرها عشيرة المنتفك، وهي ذات كثرة، وتتفرع إلى عدة قبائل. فمن قبائلها: بنو مالك، والاجود، وبنو سعيد، وبنو ركاب، والخفاجة، والطونيات، والشويلات، والطوبكة، والبدور، والشريفات، والجمعيات، والماجد وآل صالح، والزهيرية، وشمر الزوابع، وشمر العبيدات، وبنو سكين، وبنو تميم، والسليمات، والعياشية، والبراجقة، والغزيوي، والعوينات، والفضيلة، وبنو نهد، وعبودة، والمجارعة، وخرسان، وامارة، وربيعة، وكويش، وسراج، وآل دراج، وغير ذلك من القبيلة الكثيرة التي يطول بيانها. وإنما أقتصرنا على بعضها ليعرف عظم عشائر المنتفك، وأكابرهم آل شبيب، آل السعدون، وهم شيوخ المنتفك في عصرنا.

وذكر صاحب نهاية الأرب أن امراء المنتفك من بني معروف، ولم يذكر نسب بني معروف، وأنا لم أقف عليه، وهم ليسوا من الأشراف، وجدهم الذي ورد إلى نواحي البصرة مهنا. ولما نزل في جوار عشيرة بني مالك، من عشائر المنتفك، ووقع النزاع بين بني مالك والاجود في إداء رسوم الحكومة أرسل بنو مالك مهنا المذكور إلى الاجود، لرفع النزاع بينهما، وإداء الرسومات الراجعة إلى الحكومة. فلما وصل مهنا إلى الاجود قتلوه وثارت الفتنة بينهما، وغلب بنو مالك على الاجود، وقتلوا كثيراً منهم، ثم صار الصلح بينهم، وشرط بنو مالك في قبول الصلح أن يقبلوا رياسة شبيب بن مهنا المذكور على الاجود، وعلى جميع عشائر المنتفق، فقبلوا ذلك وجعلوا شبيباً شيخاً عليهم.

وكان شبيب في بيت ابن خصيفة، شيخ بني مالك، فأنه ما أن قتل أبوه مهنا ذهبت به أمه إلى ابن خصيفة، وأدى حق الشيمة العربية بأخذ ثأر أبيه، وجعله شيخاً على جميع قبائل المنتفك. وجميع قبائلهم بطن من عامر بن صعصعة من العدنانية، وهم بنو المنيفق بن عامر بن ربيعة بن كعب بن عابر بن صعصعة، ويقال المنيفق منتفق.

وبيت السعدون من أجل العرب في نواحي بغداد، وقد نشأ فيهم شيوخ أكابر كثامر وحمود وغيرهم. وشيوخهم من أهل السنّة والجماعة، على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وقبائلهم رفضة. ومن أجل عشائر العراق عشيرة أخوالنا العُبيد، وهم من حمير سلك بن تبع، وهم بنو عبيد بن عدي بن رخباب بن قضاعة، قبيلة من حمير من القحطانة، وقضاعة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير، ويحتج له بما رواه ابن لهيعة عن عقبة بن عامر الجهني، قال: قلت يارسول الله قال ممن يمت قال: من قضاعة بن مالك، وفي ذلك قال عمرو بن مرة القضاعي الصحابي:

نحن بنو الشيخ الهجان الازهر قضاعة بن مالك بن حمير

ولهم شجاعة المسلمة لدى القبائل ولإقدام المعروف عند العشائر

وقبائل كثيرة منها آل علي، والحربي، وآل حمد، والسعيد، وآل عكَلة، وآل هيازع، وآل رياش، وآل طلحة، والكبيشات وغير ذلك من القبائل الكثيرة. ومشائخهم الحمائل آل شاهر مقدار خمسمائة فارس، ولا ترى لعشيرة من العشائر حمائل بهذا العدد. وآل شاهر ليوث الحروب إذا مشى أحدهم مشى مشية الليث وهو غضبان، وإذا طعن أحدهم طعن طعنة كفم الزق وهو ملئان، وعلى الجياد المضمرات فوارس مثل الصقور، وهم من أشراف العرب. إليهم يشير الأعشى "ولست من الكرام بني العبيد". وقد نشأ فيهم أكابر هم كأمثال حاتم في الكرم والجود، وفاقة في الشجاعة. ومنهم العلامة الأمير الحاج سليمان بك، خال والدي

رحمه الله. وقد سبق بعض مآثره ماهي تحتمل مجلداً، وكذا أخوه الفاضل العاقل المدبر محمد بيك، وله تعاليق على حاشية عبد الحكيم الهندي، وعلى حاشية عبد الغفور اللاري على شرح الكانية للجامي، والصالح التقي الحاج إبراهيم بيك، وأخوه الفاضل عبد العزيز بيك، والصالح التقي عبد الغني بيك، والصالح حبيب بك.

وأما الأمير الكامل الأديب النجيب. الحاج أحمد بيك نجل المرحوم سليمان، المشار إليه فكان نزهة عصره، أدباً وكرماً وثروة وبأساً ومكارم أخلا. وخلف أحمد بيك المذكور أولاداً كراماً نجباء، وهم الحاج محمود بيك، والكامل داود بيك، وأخوه الكامل يحيى بيك من أكابر أمراء العرب بأساً وكرماً، وأخوه الأديب النجيب نعمان بيك كان ان كريم الأخلاق أديباً، وخلف عبد الغني بيك نجليه الأميرين الأديبين عيسى بيك وعبد السلام، وخلف الأمير محمد بيك نجله الأمير الكريم الأديب الشجاع جاسم بيك نجله الأمير الأديب الكريم لطيف بيك، وخلف إبراهيم بيك نجله الكامل النجيب يوسف بيك، وخلف عبد العزيز بيك نجله الكريم سعود بيك، وخلف حبيب بيك نجله الأديب عبد القادر بيك. وللحاج سليمان عدة أولاد نجباء كرام غير منْ ذكرناهم.

وبالجملة، أن رجال هذا البيت، الرفيع العماد الكثير الرماد، كثيرون وكلهم مع امارتهم علماء وأدباء وشعراء، مآثرهم لا تعد ولا تحصى ومناقبهم لا تستقصي. وكان لهم التقدم على سائر أكابر العرب والرياسة على جميع القبائل، والجاه العظيم لدى وزراء بغداد ظهراً بعد ظهر. وكان كل منهم كالنعمان بن المنذر. وكان جميع عشائر حمير، كالجبور والدليم والعزة وغرير ومفرج، وسائر قبائل زبيد في طاعتهم، وتحت أمرتهم ورايتهم. كيف وهم من حمير بن سبأ، الذي كانت ملوك اليمن التبابعة منهن إلا من تخلل بخلال ملوكهم في قليل الزمن. وكان لحمير من

الولد مالك، والهيمسع، وزيد، وعريب، ومسدوح ذوائل وحمير كرب وارسا ودرما وكلهم ملوك.

ومن آل شاهر بيت سعدون المصطفى شيخ العبيد، وهو بيت رفيع العماد قوي الأوتاد، ورثوا الرياسة كابراً عن كابر. وسعدون المشار إليه من أكابر الرجال الثقات. وكانت أكابر عنيز وغيرهم بقبائلهم يأوون إليه، وينزلون بجواره وحماة كابن كيشيش وأمثاله، وله صولة على عشائر العبيد، وهو ابن بنت الأمير العلامة الحاج سليمان بيك الشاوي، المشار إليه وله عدة أولاد نجباء، وابن عمه أسعد الظاهر من أشجع العرب. كذا كنج ابن أخيه عليوي ورشيد بن أخيه محمد. وبالجملة، أن كلاً من آل شاهر ليث الوغى، وبينهم بين القبائل كالشمس الطالعة في رابعة النهار، وهم أكابر حمير من قحطان العرب العاربة، وهم الذين عناهم الأعشى بقوله: "وأستكثرن من الكرام بني عبيد". ومنها عقيل وهو بطن من أسد بن خزيمة من العدنانية.

ومن أكابر عشائر العراق أخوالي عشيرة طي، وهم أنجب القبائل وأكرمهم، كيف وحاتم منهم! وهم عدة قبائل كثيرة منها آل كوكب، وآل سنبس، وآل عساف، وبنو ثعلبة، وبنو عمر بن غوث، وبنو عمر سلسلة، وغير ذلك من القبائل وشيوخهم وحمائلهم آل سيالة، وهم أولاد حاتم العرب العاربة. ووالدتي من آل سيالة أصلاً نسباً، وهي بنت محمد باشا بن نمر بن عثمان باشا الطائي حاكم كردستان.

ومن أجل عشائر العراق عنيزة، وهم عدة قبائل منها بنو وهب وولد على أصحاب الصر، والطيار، والفدعان، والرولة، والسلكه،والعمارات، والدهامشة، وآل مقرن ومنهم أكابر نجد. وسيأتي أن شاء الله تعالى بيان نسبهم في بحث نجد، وغير ذلك من القبائل، وهم أكثر الناس عدداً. وتبلغ قبائلهم مقدار ثلثمائة ألف نفس فأكثر رجالاً ونساء، وهم من ربيعة ووائل من عدنان جد النبي ﷺ.

ومن أجل عشائر العراق الجبور الدليم، وهم قبائل كثيرة مشهورة من حمير القحطاني (من العرب العاربة) وهم بنو عمّ العبيد أولاد جبر شقيق عبيد. ومنها عبادة بطن من عقيل من بني عامر بن صعصعة من العدنانية. وكانت منازلهم بالجزائر الفراتية مما يلي العراق، ولهم عدد وكثرة وبقي منهم قليل في هذا العصر، وغلب منهم قريش بن بدران بن مقلد في اواسط المائة الخامسة على الموصل وحلب.

ومن أجل عشائر العراق الدليم، وهم قبائل كثيرة مشهورة من حمير من العرب العاربة، وهم أيضاً بنو عمّ العبيد لأن جدهم ثامر شقيق عبيد.

ومن أجل عشائر العراق شمر، وهم عدة قبائل منها الخرصة، والعمود، والصايح، ولهم قرابة مع العبيد والنجم، وأسلم وهو من الصايح، والعليان، والبريج، والفداعة، وعبده، والفيفيلة، والعفاريت، والزكاريط، والزميل، وآل جعفر قوم ابن رشيد شيخ جبل شمر، وتبلغ قبائل شمر مائة ألف نفس فأكثر وحمائلهم آل محمد من طيء وجميع قبائلهم تعود إلى قحطان.

ومن أجلها عشيرة الغرير، وهم من حمير، ومن قبائلهم آل شهوان، وآل بكرن ومن أجلها عشيرة العزة، وهو من أولاد عمرو بن معديكرب الزبيدي الصحابي رضي الله تعالى عنه، وهم عدة قبائل مشهورة كلهم من حمير. ومنها آل مفرج، وهم من الأزد من القحطانية بطن من شنوءه، وهم بنو مفرج بن مالك بن نصر ونصر هو شنوه. ومنها بنو عزّ وهم من حمير، ومنها العمار وهم من حمير. ومنها الجنابيون ولهم عدة قبائل: آل مهلهل، وبنو حسون، والسويضات، ومنهم الحلاونة وآل مربود، وآل بيج، وآل عساكر، وآل حسان، والثويرات، عدة أفخاذ، وآل صقر عدة افخاذ، والخكارة عدة أفخاذ وحمائلهم آل مرشد، وهو بيت رفيع بين العرب وكلهم من قحطان. ومنها المهدية، وهم القصابون في بغداد، وهم من زبيد الحميري. ومنها الندى، وهم اولاد قطر الندى من زبيد. ومنها

الجيايلة، وهم من زبيد. ومنها الكميدات وهي عشيرة جسيمة ولها عدة قبائل كثيرة كلها تنتهي إلى قحطان.

ومن أشراف عشائر العراق النعيم، فأنهم سادات. ومن أشرافها المشاهدة، وكذا منهم الحياليون فهؤلاء الثلاثة سادات. ومن أعظم عشائر العراق الضفير، وهم قبائل كثيرة يبلغون ثلاثين ألف نفس فأكثر. ومنهم بنو حسين من الأشراف، ومنزلهم في منازل المنتفك بين نجد والبصرة. ومن قبائل العراق الكروية وهم أولاد قيس. وينقسمون إلى كروي جديد وكروي عتيق. ومنها المجمع وهم سبعة قبائل، تجمعوا وتحالفوا، ويقال إنهم أولاد منصور، على ما هو المشهور، لكن ذكر في نهاية الأرب: بطن من جعفر من قحطان، وهم بنو مجمع بن مالك بن سعد بن عوف بن جعفر. ومنها بنو ويس، وهم الأوس، ولا يعلم أنهم الأوس من طابخة العدنانية، والله اعلم. ومنها المعامرة وهم لصوص. ومنها بطة، وهم من أفقر الناس. وجميع ما ذكرناه من العشائر المذكورة فهم من أهل السنّة والجماعة. وأكثرهم على مذهب الإمام الشافعي، إلا عنيز وشمر والضفير فأنهم على مذهب الإمام مالك. وإلا الكروية الجديد والمجمع فأنهم على مذهب الإمام أبي حنيفة. وأما الكروية العتيق ففيهم شائبة الرفض. وقد تركنا كثيراً من عشائر أهل السنّة والجماعة خوف الملل.

وأما العشائر العظام في العراق، الذين ترفضوا من قريب فكثيرون. ومنهم ربيعة، وهم أولاد ربيعة بطن من بكر بن وائل من العدنانية، وهم بنو ربيعة بن عجل بن لجم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل من العدنانية، على ما هو المشهور، وفق دعواهم والناس مأمونون على أنسابهم، والله تعالى أعلم. وربيعة بطون كثيرة غير ربيعة المذكور، ومنها ربيعة بطن من شواة بن عامر بن صعصعة من العدنانية أيضاً، وهم ربيعة بطن من بني الحارث بن كعب من القحطانية، ومنها ربيعة بطن من الأزد، ومنها ربيعة بطن من تميم من العدنانية، وهم بنو

ربيعة بن كعب بن سعد بن عبد مناف بن تميم، ومنها ربيعة بطن من حنظلة من تميم من العدنانية، ومنها ربيعة بطن من خثعم، ومنها بطن من عبد شمس بن عبد مناف من قريش، ومنها ربيعة بطن من عذرة بن زيد اللات من القحطانية، ومنها ربيعة بطن من عقيل، ومنها ربيعة بطن من مضر العدنانية، وهم بنو ربيعة بن نزار بن مضر، وتعرف بربيعة الحمر. ثم اعلم، أن ربيعة النازلة في الجهة الشرقية من بغداد ترفضوا، مع امارتهم منذ سبعين سنة. وأما ربيعة الذين في الجهة الغربية من بغداد فهم من أهل السنّة والجماعة على مذهب آبائهم، وعنيزة كلهم من ربيعة وهم من أهل السنّة والجماعة، ولله الحمد على ذلك.

ومن العشائر العظام بالعراق بنو تميم، وهي عشيرة عظيمة نجية من مضر جد النبي ﷺ، وبنو تميم ابن مرة بن أد بن طابخة، واسمه عمرو بن الياس بن مضر، وسمي طابخة لأنه كان مع أخيه عامر في أبل لهما يرعيانها، فاصطادا صيداً وقعدا يطبخانه، فعدت عادية على أبلهما، فقال عامر لاخيه عمر: أدرك الأبل وأنت تطبخ، فأدركها عامر وجابها، وطبخ عمرو، فلما ذهبا أخبرا أباهما بشأنهما، فقال لعامر أنت مدركة، وقال لعمرو: أنت طابخة، وما أعلم أن بني تميم المذكورين من طابخة بن الياس، أو من مدركة ابن الياس، والله اعلم. وقد ترفضوا في نواحي العراق منذ ستين سنة، بسبب تردد شياطين الرفضة إليهم. وكانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هناك على البصرة واليمامة، وأمتدت إلى الغري من أرض الكوفة، ثم تفرقوا بعد ذلك، وورث منازلهم غزية من طي.

ومن العشائر العظيمة في العراق المترفضة الخزاعل، وقد ترفضوا منذ أكثر من مائة وخمسين سنة، وهي عشيرة عظيمة من بني خزاعة، فحرفت وسميت خزاعل، وهم من بني عمرو بن ربيعة بن حارثة بن مزيقيا من الأزد من القحطانية، وعمرو هذا أبو خزاعة كلها، وتفرقت بطونها فولد له كسب بطن، وعدى بطن، وعوف بطن، وسعد بطن. هذا ما ذكره أبو عبيد وذكر في موضع

آخر: إن خزاعة بنو اسلم ومالك، وملكان من بني أقصى بن حارثة ابن عمرو بن لحي بن قمعة بن الياس بن مضر، وسموا خزاعة على ما قاله الكلبي: لأن بني مازن من الأزد لما تفرقت الأزد من اليمن في البلاد، نزلوا على ماء بني زبيد، ورفع يُقال له غسان، وأقبل بنو عمرو بن لحي فأنخزعوا من قومهم، فنزلوا مكة ثم أقبل بنو أسلم ومالك وملكان بن اقصى بن حارثة، فأنخزعوا عن قومهم أيضاً، فسمي الجميع خزاعة. وكانت مواطنهم مكة ومر الظهران وما بينهما، وكانو حلفاء لقريش، وكان لخزاعة ولاية البيت بعد جدهم، ولم تزل بيدهم إلى أن باعها أبو غسان بن قصي بن كلاب جد النبي ﷺ.

ومن العشائر المترفضة عشيرة زبيد، وهي كثيرة القبائل، وقد ترفضت منذ ستين سنة بتردد الرفضة إليهم، وعدم العلماء عندهم إلا حمائلهم، وهم آل عبد الله ابن وادي بيك، فأنهم من أهل السنّة والجماعة على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، لكن ترفض بعض الحمائل من بني عمه ووادي بيك، قد توفى على مذهب أهل السنّة والجماعة، وكان أميراً كريماً جواداً، له من مكارم الاخلاق والافعال والاقوال ما لا يسعه المقام، وكانت عطاياه كعطايا البرامكة، وهو من حسنات الزمان، وهو بنو منبه بن صعب بن سعد العشيرة بن مالك، وهو مدحج ابن أدد بن زيد بن يشخب بن عريب بن زيد من كهلان من القحطانية. وسمي سعد العشيرة لأنه بلغ ولده وولد ولده مائة رجل، يركبون معه فكان إذا سئل عنهم، قال: هؤلاء عشيرتي، وقاية لهم من العين، ويعرف زبيد هؤلاء بزبيد الأكبر، وهو زبيد الحار، وبنو زبيد أيضاً بطن من زبيد الأكبر من سعد العشيرة المذكور، وهم بنو منبه الأصفر بن ربيعة بن سلحة بن مازن بن ربيعة بن منبه الأكبر الذي تقدم ذكره وتعرف زبيد هذه بزبيد الأصفر، منهم عمرو بن معد يكرب الصحابي رضي الله تعالى عنه. وعاصم بن الاسقع الشاعر، وعشيرة زبيد التي في

نواحي بغداد من زبيد الأصفر. وأما العبيد والجبور والدليم فهم من زبيد الاكبر، وكلهم من حمير من القحطانية.

ومن العشائر المترفضة بنو عمير، وهم بطن من تميم من العدنانية، وهم بنو عمير بن مقاعس بن عمرو بن سعد بن زيد مناة بن تميم، منهم السليك بن يثرب. ومن العشائر المترفضة، الخزرج وبنو الخزرج بطن من بني مزيقيا من الازد. ويُقال لهم الخزرج الأكبر بن حارثة بن ثعلبة بن مزيقيا، وإذا اطلق الخزرج فالمراد هؤلاء وهم أحد قبيلتي الأنصار أخوة الأوس. ويُقال لكليهما بنو قيلة وبنو الخزرج بن عمرو، ونسبهم مندرج في الأوس. وبنو الخزرج أيضاً من كلب من قضاعة من القحطانية، وهم بنو الخزرج بن زيد اللاة بن رفيدة بن ثور بن كلب، والخزرج هذا أخو عذرة بن زبدة اللات، ولا شهرة له، وما أعلم أن خزرج العراق من أي الخزرج، والله تعالى اعلم.

ومن العشائر المترفضة شمر طوكَة، وهي كثيرة، ويدعون أنهم من قبيلة شمر المشهورة، وشمر ينكرون نسبهم.

ومن المترفضة الدوار، ومن المترفضة الدفافعة، وهم وأبخسهم، وقد قتلوا نزيلهم الوزير الكامل الصالح سليمان باشا الصغير والي بغداد، حين كسره حالت أفندي، المأمون من جهة الدولة العلية العثمانية، وهرب ونزل عندهم، وولي الأفندي الموما إليه عبد الله باشا على بغداد، فلما أتوا برأسه إلى عبد الله باشا أمر بنهبهم وسبي أولادهم، واستحياء نسائهم، وكان حالت أفندي المشار إليه من دهاة الرجال من ذوي العقل والرأي والفضل والتدبير والكرم.

ومن المترفضة عشائر العمارة آل محمد، وهي لكثرتها لا تحصى وشيوخهم آل فيصل من عشيرة العزة، وترفضوا عن قريب وتمعدنوا، وهم جميعاً من قحطان، ومن المترفضة عشائر الهندية وما أتصل بها إلى قرب البصرة، ولا يحصى عددهم إلا الله تعالى، وأكثرهم من قحطان أصلا ونسباً إلا أنهم تمعدنوا. ومن العشائر

العظيمة المترفضة عشيرة بني لام، وهي كثيرة العدد والبطون. حمايلهم من أكابر الناس كرماً ونجابة وبأساً، بطن من طي من القحطانية، وهم بنو لام بن عمرو بن علية بن مالك بن جدعان بن ذهل بن سرحان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طي بن أدد بن زيد ابن لشجب بن عريب بن زيد بن كهلان القحطاني، والي طي ينسب حاتم الطائي المشهور بالكرم، وأخباره أشهر من أن تذكر. ومن طي زيد الخير ابن مهلهل الصحابي رضي الله عنه، وفد على رسول الله ﷺ مع وفد طي فسماء زيد الخير. وقال ﷺ: ما وصف لي أحد في الجاهلية ورأيته في الاسلام إلا رأيته دون وصفه غيرك. وكانت منازل بني لام في الأصل في المدينة إلى الجبلي.ن وينزلون أكثر أوقاتهم مدينة يثرب، ثم أتوا إلى العراق.

ومن العشائر المترفضة عشائر الديوانية، وهم خمسة عشائر: آل أقرع. وآل بدير. وعفج. والجبور، وجليحة، وكلهم يشربون من ماء الدغارة، الآخذة من ماء الفرات. والأقرع ست عشرة قبيلة، وكل قبيلة كثيرة العدد. وآل بدير ثلاث عشرة قبيلة، وهي ايضاً كثيرة العدد. وعفج ثماني قبائل كثيرة العدد. وجليحة أربع قبائل كثيرة الاعداد. وأما الجبور فهم أربع قبائل كثيرة الاعداد، وهم فرقة من الجبور الذين كانوا في الخابور من أهل السنّة والجماعة، إلا أنهم انتقلوا من مدة طويلة إلى جهة الديوانية وترفضوا. وهذه القبائل المذكورة أهل تعصب في الرفض، لا يخرجون عن طاعة أمرهم، وأكثر تحريكاتهم من تحريكات المتسيد بن المذكور. والقبائل المذكورة من أهل الشجاعة والإقدام والقوة البالغة والجسارة، ولم تزل الحروب والمقاتلة بينهم. وفي كثير من الازمان الماضية كانوا يخرجون عن طاعة والي بغداد، ويقاتلون العساكر أشد القتال، فتارة تحصل لهم الغلبة وتارة يغلبون، ومسافة منازلهم طولاً يومان وعرضاً يوم واحد، وأكثر قوتهم من ماء الدغارة، فإذا سُدت الدغارة ذلوا ودخلوا تحت الطاعة، وذهبت قوتهم، ولم تسعهم مخالفة الحكام لأن أهوار الدغارة كالحصن لهم، خذلهم الله تعالى.

ومن عشائر العراق العظيمة المترفضة من مدة مائة سنة فأقل عشيرة كعب، وهي عشيرة عظيمة ذات بطون كثيرة، ومنزلها في المحمرة ونواحيها، وكانوا من تبعة الدولة العلية العثمانية، ومنازلهم المحمرة من جملة أملاك الدولة العلية إلى أيام الوزير، العلامة الحاج، داود باشا، لأنها داخلة في سواد العراق، الذي هو ملك الدولة العلية، وسواد العراق من عبادان إلى حديثة الموصل طولاً، والمحمرة ما دون عبادان بساعتين، وعبادان التي هي الحد أيضاً كانت للدولة العلية، لكن الدولة الإيرانية وضعت يدها على هذه الأماكن، وعلى ذهاب من غير حق، ودولتنا العلية أدامها رب البرية صرفت النظر عنها في هذه الأيام لغرض لم نعلمه، وإلا فقدرتها على الدولة الإيرانية كقدرة البطل الفارس الذي ركب جواداً سابقاً، وعليه عدة اسلحة على الرجل الذي يمشي على رجليه، وليس عنده شيء من الأسلحة، وذلك مُسلم لدى كل واحد. ومنْ وقف على قضية المرحوم سلطان سليم خان، عليه الرحمة والرضوان، مع إسماعيل شاه الصفوي، الذي هو أعظم شاهات العجم وأشجعهم وأكثرهم صولة، فقد علم فرار إسماعيل شاه وإنهزامه وتشتت عساكره وقتل غالب جنوده وأمرائه، ثم ساقت العساكر العثمانية المنصورة من ورائه، وكادوا أن يمسكوا إسماعيل شاه، ففر من بين أيديهم وهم ينظرون إليه، فغنم السلطان سليم جميع ما في خيمة إسماعيل شاه وخيام عساكره، واعطى الرعية الأمان، وذلك في سنة عشرين وتسعمائة من الهجرة النبوية، على صاحبها افضل الصلاة والسلام والتحية. ثم في سنة الثلاثة والعشرين والتسعمائة من الهجرة توجه السلطان سليم إلى مصر وفتحها، واخذها من الغوري الجركسي لما كان من المكاتبة والمحبة بين الغوري وإسماعيل شاه. وولي السلطان سليم خان، عليه الرحمة والرضوان، قضاء الحنابلة بمصر العلامة أحمد البخاري الحنبلي الانصاري، والد الشيخ تقي الدين الحنبلي، صاحب الكتاب المنتهى في فقه الحنابلة، وقاضي مصر وهو آخر قضاة الاسلام بمصر من العرب. وإسماعيل شاه

المذكور، وهو ابن حيدر بن الشيخ جنيد بن الشيخ صدر الدين سلطان المشائخ الشيخ صفي الدين، وهو حسيني النسب من الأشراف، وبيتهم بيت الارشاد والتصوف والتقوى والعلم، ولم تزل آباؤه على ذلك، وعلى اظهار شعائر الاسلام وأتباع السنّة السنية إلى أن نشأ إسماعيل، وكان إسماعيل شاه في صغره يتردد إلى صائغ اسمه نجم في بلاد لاهيجان. وهذه البلاد كثيرة الفرق الضالة كالرافضة والزيدية وغيرهم، فتعلم إسماعيل شاه الرفض في صغره من نجم الصائغ المذكور، وكان مستخفياً في بيت الصائغ، وكان يأتي اليه مريدو أبيه ويأتونه بالنذور ويعتقدون فيه الخير، إلى أن أغواهم وكثرت داعية الفساد، فخرج ومن معه من لاهيجان وأظهر الخروج للأخذ ثأر والده وجده، اللذين قتلهما شروان شاه، وعمره يوم الخروج ثلاث عشرة سنة، وكلما سار إلى منزل كثرت عليه داعية الفساد، واجتمع معه عساكر كثيرة، وقصد مملكة شروان شاه لمقاتلته، فأنهزمت عساكر شروان شاه، وأسروا شروان شاه، وأتوا به إلى إسماعيل شاه، فأمر أن يضعوه في قدر كبير ويطبخوه ويأكلوه. ففعلوا، ثم حصلت له وقايع كثيرة أنتصر فيها، وأستولى على خزائن عظيمة، وعلى جميع ممالك إيران وشروان وتفليس وغير ذلك. وكان لا يمسك شيئاً من الخزائن، بل يفرقها على العساكر وعلى سائر الناس، ثم صار لا يتوجه إلى بلد إلا أخذها وقتل الجميع منْ فيها، ونهب أموالهم إلى أن ملك بغداد، وعراق العرب، وعراق العجم، وخراسان، وأذربيجان، وتبريز. ،ثم خرج عن جادة الرفض وأدعى الربوبية. وكان يسجد له عسكره، وقتل خلقاً لا يحصون، بحيث لا يعهد في الإسلام، ولا في الجاهلية، ولا في الأمم السالفة مقدار ما قتله إسماعيل شاه من النفوس، وقتل عدة من اعاظم العلماء، وحرق كتبهم، بحيث لم يبق أحد من أهل العلم في بلاد العجم. وحينئذ أنهزم جدنا العلامة محشي إثبات الواجب المولى الشريف محمد بن الشيخ حيدر بير الدين إلى جهة العراق، وأختفى في جبال الاكراد في نواحي حرير، وكان فيما وراء

النهر فسلم على دينه ومذهبه وروحه، ولله الحمد فحل جدنا المذكور لدى أمراء الاكراد وعلمائهم واكابرهم، وأخذوا عنه العلم ووقروه، وكفت وزراء الدولة العثمانية بعد فتحهم العراق على أيدي العجم أولاده مؤنة معاشهم. وتناسل آباؤنا في العراق أحد عشر ظهراً ونشروا العلم، وألفوا الكتب المفيدة في كل فن، وشهروا العلوم العقلية بالعراق مخصوصاً بالمنقول مدة طويلة، ونالوا من الدولة العلية العثمانية أدامها رب البرية الثروة العظيمة، والجاه ومناصب الإفتاء. ونبش إسماعيل شاه قبور المشايخ والعلماء، وأحرق عظامها، وكان إذا قتل أميراً من الأمراء أباح زوجته وأمواله لشخص ما. وكانت عساكره تعتقد فيه الالوهية، وأنه لا يتكسر ولا يقدر عليه أحد وغير ذلك من الاعتقادات الفاسدة، فلما وصلت أخباره إلى السلطان سليم خان، عليه الرحمة والرضوان، انتدب لقتاله وجهاده، فجمع الجموع وكسره، وفعل به ماذكرناه أولاً نقلاً عن صاحب الاعلام إلى بيت الله الحرام، شكر الله تعالى سعيه على إزالة هذا الكافر الطاغي الخبيث الملعون، وهتكه وتمزيق جيوشه الكفرة.

ثم اعلم، أن عشيرة كعب بطن من خزاعة من بني مزيقيا من الأزد من القحطانية، وهم بنو كعب بن عمرو بن ربيعة، وهو يحيى بن حارثة بن مزيقيا، كان له من الولد: سعد بطن، ومازن بطن، وسلول بطن، وحبشية بطن. ومن العشائر المترفضة بنو سعد، والسواجن وجعيفر وغيرهم. وبالجملة، أن عشائر بغداد العربية من الموصل إلى البصرة لا يحصى عددهم، وبطونهم إلا الله تعالى.

وأما عشائر الاكراد من أهل العراق فهم كثيرون، فمنها عشيرة السورجية، وهي كثيرة جداً ونشأ منهم علماء العام. ومنها عشيرة الخوشتار، وهي أيضاً كثيرة، وأهل شجاعة وإقدام قتل النفس عندهم بمنزلة شرب الماء، ولم يزل القتال بينهم ونشأ منهم علماء فحول، منهم العلامة النحرير محمد الخطي. ومنها عشيرة البالكية، وهي كثيرة ونشأ منهم علماء أعلام وصلحاء، منهم شيخي العلامة

الفهامة الولي أحمد الكلالي. ومناه عشيرة كوزة وهم كثيرون وأهل إقدام. ومنها عشيرة الكروية بفتح الكاف، وهم كثيرون وأهل إقدام وشجاعة، ونشأ فيهم علماء أعلام. ومنها عشيرة الزيبارية، وهي كثيرة جداً ونشأ منهم علماء أعلام. ومنها عشيرة المزورية، وهي كثيراً جداً ونشأ منهم علماء أعلام فحول، منهم العلامة النحرير، جامع المثقول والمعقول حاوي الفرع والاصول، الولي الحافظ المعمر شيخي وسندي، وشيخ مشايخ العراق بالإتفاق الشيخ يحيى المزوري العمادي العمري النسب، وله حاشية على تحفة العلامة ابن حجر الهيتمي المكي طاب ثراهما.

ومنها عشيرة الصهران، وهي في الأصل أمراء جميع الاكراد والصهران، من طي نسباً، ومنهم حكام كوي سنجق أولاد عثمان باشا. وقد أنقرض هؤلاء الحكام وبقي منهم بعض الصعفاء، بعد أن كانوا ملوك الاكراد، والاكراد يعترفون بذلك وحق هذه الطائفة التقدم، إلا أن القلم زل بتأخيرها كما أجرت المقادير بزوال ملكها. ومنها عشيرة درزي، وهي كثيرة جداً ذات إقدام، ولهم المخالطة التامة مع طي يتكلمون بالعربية لايفرقهم السامع عن طي لساناً وهيئة. ومنها عشيرة البلباص، وهي في غاية الكثرة والشجاعة، ونشأ فيهم علماء أعلام، منهم شيخي العلامة المدقق إبراهيم الرمكي. ومنها عشيرة الجاف، وهي في غاية الكثرة والشجاعة والإقدام، ونشأ منهم شيخنا، وشيخ أعلام الدنيا على الإطلاق النحرير العلامة والحبر الفهامة قطب دائرة الارشاد والمرشد الكامل للعباد الولي المجدد الراكع الساجد، حضرة مولانا ضياء الدين خالد العثماني النقشبندي قدس سره، ويكفيهم فخراً نشوء هذا الإمام منهم. ومنها عشيرة الهركي، وهي كثيرة ذات إقدام. ومنها عشيرة الشوان وهي كثيرة. ومنها عشيرة زند، وهي كثيرة. ومنها عشيرة زكمه، وهي كثيرة وغير ذلك من العشائر التي لاتحصى، وجميع الاكراد في غاية العداوة مع العجم، وكلهم من أهل السنّة والجماعة على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، فلا تجد في الاكراد أحداً من الرفضة، وسائر البدع

والضلالات، ولا أحداً من سائر مذاهب أهل السنّة والجماعة، من الحنفية والمالكية والحنبلية رضي الله عنهم. سوى عشيرة باجلان فأن بعضهم حنفية وبعضهم شافعية. والاكراد كلهم، على ما في القاموس، من أولاد كرد بن عمرو بن مزيقيا بن عامر بن ماء السماء. وذكر صاحب القاموس، في مادة مزق، أن مزيقيا لقب عمرو بن عامر ملك اليمن، كان يلبس كل يوم حلتين ويمزقهما بالعشي، يكره العود فيهما، ويأنف أن يلبسهما غيره فلذا لقب بمزيقيا.

أقول: فعلى هذا يكون الاكراد من أشراف العرب، وأما ما ذكره بعضهم من أنهم ليسوا من العرب، فهو من قبيل التعصب. وكفى بصاحب القاموس تصحيحاً وشهادة. فهم على ما ذكره المجد من قحطان من العرب العاربة نسباً، لأن مزيقيا على ما ذكره علماء النسب من بني قحطان، والله تعالى أعلم وتبدل لسانهم لقارب منازلهم من العجم. فلسان الكرد محرف لسان الفرس.

وأما عشيرة البيات فهم من الاتراك، وهم كثيرون، وفيهم الإقدام، يتكلمون بالعربية لمخالطتهم مع العبيد لقرب المنزل. قيل إنهم أتوا إلى العراق مع السلطان مراد خان عليه الرحمة والرضوان، بعضهم من أهل السنّة والجماعة، وبعضهم رفضة، وحمايلهم البيكات من أهل السنّة.

الباب الخامس

في بيان العلماء الذين ادركت عصرهم من العراقيين

فمن أجل منْ أدركت عصره جدي، العلامة النحرير والفهامة الذي لا يكفي بتفصيل مناقبه التقرير والتحرير المولى الشريف، أسعد صدر الدين مفتي الحنفية ببغداد، ابن الولي العلامة الشريف عبد الله الحيدري البغدادي، وكان من الرجال الدهاة ذا هيبة ووقار. نال من القبول والكلمة النافذة بين الناس والجاه لدى ولاة بغداد ما لم ينله أحد من العلماء. وكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم، ودرس العلوم النقلية والعقلية أربعين سنة متوالية. على ما حدثني والدي، عاش وقد قارب عمره ثمانين سنة، وأخذ عنه العلم عدة علماء أعلام، منهم العلامة الوزير والي بغداد الحاج داود باشا البغدادي، فأنه لازمه قبل الوزارة سبع عشرة سنة، وقرأ عليه المنقول والمعقول حتى فاق أقرانه. ومنهم والدي طاب ثراه، فإنه أخذ العلم عن أبيه وعن غيره، وكان والدي من العلماء الصالحين العاملين المفضلين لا يعرف شيئاً من أمور الدنيا مقبولا محبوباً عند الخواص والعوام، تقلد إفتاء الشافعية سنين كثيرة، ومات رحمه الله تعال،ى وقد قارب عمره تسعين سنة. ومنهم العالم الفاضل الشريف، عبد الله بن العلامة الشريف، غياث الدين الحيدري البغدادي، ابن عمّ جدي المذكور، قد أخذ العلم عنه ولازمه. وقد رباه جدي وعلمه العلم واحسن تربيته، لوفاة ابيه غياث الدين بغداد البغدادي. ومنهم العالم الكامل مصطفى القلعبند، نائب بغداد البغدادي.

ومنهم العالم الكامل سلمان السويدي البغدادي. ومنهم العالم الفاضل صبغة الله بن العلامة إبراهيم بن العلامة الشريف محشي الخيالي عاصم الحيدري عمّ والد جدي. ومنهم العالم الكامل محمد السمين الموصلي. ومنهم العلامة الولي الجامع

للمنقول والمعقول الولي الشريف عمّي عبيد الله، مفتي الحنيفة ببغداد الحيدري النقشبندي البغدادي، وكذلك العلامة الأديب الأريب اللبيب الشريف عبد القادر الصدفي البغدادي، أخذ عنه العلم. ومنهم العالم الفاضل الكامل الأديب الصالح محمد سعيد البغدادي، مفتي الحنفية في بغداد. ومنهم العالم الصالح الحاج ادريس أغا. ومنهم العالم الأديب سليم بيك. ومنهم العالم الكامل محمود باشا، نجل عبد الرحمن باشا الكردي البلباري. ومنهم العالم الكامل العامل الصالح أحمد الزندي الكردي، ومنهم العالم الفاضل الشاعر اللوذعي، الأديب محمد أسعد العثماني الكركوكي، المشهور بنائب زاده. ومنهم العالم الفاضل عبد الغفور الكركوكي. ومنهم العالم الفاضل عمر الأربيلي. ومنهم العالم الفاضل الألمعي عبد العزيز الشواف البغدادي. ومنهم الأديب عبد الغني جميل مفتي الحنفية ببغداد. ومنهم العلامة، الجامع للمنقول والمعقول، محمد أمين الحلي، مفتي الحلة وغير ذلك من الفضلاء، مما يضيق المقام بذكرهم لكثرتهم، فهؤلاء كلهم أخذوا العلم عن جدي المشار إليه رحمه الله تعال،ى وله عدة تآليف منها حاشية على تحفة المحتاج للشيخ العلامة ابن حجر الهيتمي المكي طاب ثراه، حاكم فيها بين المحشين على التحفة، جمع فيها وحقق وأدعى، ومنها حاشيته على حاشية المحقق عبد الحكيم الهندي، على الخيالي وحواشيه على حاشية العلامة اللقاني المصري، على شيخ الغزي للتفتازاني في علم الاشتقاق وحواشيه، على حاشية القرباغي في المنطق وحواشيه، على حاشية العلامة الطحطاوى، على الدر المختار وشرحه، على اللغز البياني المشتمل على علوم شتى وغير ذلك من التعاليق المفيدة. وكان رحمه الله تعالى واحد عصره، الذي يشار إليه بالبنان وعلماً وعملاً وفضلا وفهماً ودراية وعقلاً وهمة وجاهاً ونزوة وثروة وخيراً. وكان كثير المحبة معي، وهو الذي رباني تسع سنين وعلمني القرآن الكريم، لما كان والدي غائباً هذه المدة عن بغداد في الجبال العراقية لتحصيل العلم، وقد ناسب المقام أن أذكر تأليف أجدادنا

وأعمالنا السادة الحيدرية، الذين تنتهي إليهم إجازات علماء العراق بالاتفاق. فأما تأليف جدي المشار إليه فقد سبق بعضها، ولوالدي، المتوجه بكله إلى مولاه السيد صبغة الله الحيدري، تعليقات وحواشي على شرح الشمسيه في المنطق، وعلى حاشيته لداود الخوافي، وعلى القرباغي، وعلى شرح العصام على رسالة البيان، وعلى حاشية المحقق عبد الحكيم الهندي على المطول وغير ذلك، رحمه الله رحمة الأبرار وجعل له الجنة خير مأوى وقرار.

وللعلامة الفهامة الولي الكامل الشريف عبد الله بن ضبغة الله الحيدري، والد جدي المشار إليه حواشي على شرح الجغميتي في الهيئة، وعلى حواشي إثبات الواجب، وعلى حاشية السيد السند على شرح الشمسية، وعلى حاشية داود الخوافي، وعلى حاشية عصام الدين على شرح الكافية للجامي، وله شرح جليل على المسائل الهندية، جمع فيها فأوعى وغير ذلك. ولوالد هذا العلامة المشار إليه، علامة الدنيا على الاطلاق، الذي وقع على جلالة قدره الاتفاق، شيخ مشائخ العراق خاتمة المحققين المولى الشريف صبغة الله بن إبراهيم الحيدري، تآليف دقيقة عجيبة كأنه قصد الإغلاق في التعبير، وكان قوي العربية كامثال سيبويه، وكان في المعقول كامثال الفخر الرازي، وفي التفسير كامثال الزمخشري. فمن تآليفه حاشيته الجليلة على تفسير البيضاوي، وحواشيه الدقيقة على حاشية المحقق عصام الدين على شرح الكافية للجامي، وحواشيه على الحاشية المسماة بالمحاكمات على العقائد الدوانية، لجده العلامة أحمد بن حيدر، وحواشيه الدقيقة العجيبة على الكتب الحكيمة الصعبة المأخذ، وله آثار عظيمة في المعقول، بلغ فيها الدقة الغامضة كابن سينا، وكان إماماً جليلاً في كل فن أخذ عنه جميع من عاصره من علماء العراق، فلا نجد إجازة علمية عراقية، إلا ويتصل به وتنتهي إلى آبائه. ولوالد هذا العلامة المشار إليه، العلامة الفهامة المحقق المدقق الولي الكامل العارف الشريف مولانا وجدنا، إبراهيم بن حيدر تآليف كثيرة مفيدة،

منها حاشية على تحفة المحتاج للعلامة ابن حجر المكي طاب ثراه، ومنها شرح الزوراء للدواني، ومنها الالهامات الربانية في كل فن، وهو كتاب عجيب، ومنها تفسير القرآن، جمع فيه الظاهر والباطن وهي مجلدان، وشرح تشريح الأفلاك في الهيئة، والحاشية الدقيقة على حاشية الحاشية، قول أحمد علي الفناري في المنطق، والحاشية اللطيفة على الوغ بيك على شرح المسعودي في آداب البحث، وحاشيته ايضاً الدقيقة على حاشية المحقق ميرزا جان على حاشية السيد السند على حاشية المطالع في المنطق. وحاشيته على جمع الجوامع في أصول الفقه، وحاشيته على شرح عصام الدين على رسالة البيان، وحاشيته على الكواكب الدرية في القواعد الجفرية، وغير ذلك من التآلف الدقيقة المفيدة.

وقد حدثني الذكي الملا إسماعيل بن الفاضل محمد الكلالي البالكي بأنه قد رأى حاشية على حاشية المحقق عبد الحكيم الهندي، على شرح الشمسية في المنطق، ولم أجدها في كتبنا لأن تآليف أجدادنا السادة الحيدرية. وأعمامنا وبنيهم موجودة عندنا، أو لدى بني عمّنا وعشيرتنا الحيدرية، ويمكن أن تكون قد فقدت من كتبنا، لأن الذي حدثني بذلك من الثقات من ذوي العلم. ولوالد هذا العلامة العارف المشار إليه علامة العلماء واللج الذي لا ينتهي، ولكل لج ساحل. بحر العلوم المحيط بكل منطوق ومفهوم، صاحب الكرامات العديدة، والتآليف المفيدة شيخ الكل في الكل، مولانا وجدنا المولى الشريف حيدر بن أحمد قدس سره، عدة تآليف عظيمة دقيقة. منها حاشيته العظيمة على شرح مختصر المنتهى في أصول الفقه. وحاشيته على شرح التجريد في علم الكلام، وحاشيته على شرح حكمه العين في الحكمة، وحاشيته على حاشيى اللاري على شرح القاضي الرومي على الهداية في الحكمة، وحاشيته على شرح العقائد العضدية للمحقق الدواني، وحاشيته على حاشية الخيالي على شرح العقائد النسفية للتفتازاني، وحاشيته على إشكال التأسيس في الهندسة، وحاشيته على شرح عصام الدين على رسالة

العضدية، وحاشيته على إثبات الواجب وعلى حواشية وغير ذلك من التآليف العظيمة الدقيقة، وجميع الكتب لا تعرف حق المعرفة إلا بهذه الحواشي المذكورة المتداولة في أيدي علماء العراق، لصعوبتها ودقتها، وعلو مطالبها، شكر الله تعالى سعيه.

ولوالد هذا البحر الهمام المشار إليه، العلامة الفهامة الدراكة أفضل المحققين ولي الله تعالى بلا نزاع المولى الشريف، أحمد بن حيدر قدس سره عدة تآليف. منها حاشيته الدقيقة الواقعة على شرح عقائد الدوانية، المسماة بالمحاكمات فإنه قد حاكم فيها بين جميع الحواشي الواقعة على الشرح المذكور، وصارت جادة عند التكميل في الديار العراقية، وغير ذلك من البلاد. وحدثني اللوذعي الأديب السيد محمد درويش ابن أختي نجل الفاضل الكامل محمد أمين الحيدري، عن العالم الفاضل حيدر علي الهندي، حين قراءته المحاكمات على الفاضل الهندي المذكور، أو أن وروده إلى بغداد أنه قد ذكر له أن المحاكمات المذكورة لجدنا المشار إليه من الكتب المعتبرة المقررة لدى علماء الهند.

ومن تآليفه كتاب رد الرافضة، وكتاب إثبات غسل الرجلين في الوضوء، وإبطال المسح. وله رسالة كبيرة في تفسير قوله تعالى: "الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكوة" الآية، ويالها من رسالة مفيدة جامعة لدقائق لطيفة. ومنها حاشيته العظيمة على كتاب الشفاء في علم الحكمة، لابن سينا الذي حارت أفكار فحول العلماء في حل عبارته المشكلة، ومطالبه العالية، وقد أجتمع جدنا هذا بالفاضل العلامة المحقق المدقق، مولانا عبد الحكيم السيالكوتي الهندي رحمه الله تعالى، في بعض المراكب البحرية، وسأل كل منهما عن الآخر ثم تعارفا بعد المباحثة التامة، وحصلت بينهما المودة وأهدى جدنا إليه نسخة المحاكمات، وهو اهدى إليه كتاب المطول بخط مؤلفه العلامة التفتازاني مع حاشيته عليه، والمطول المذكور موجود الآن عند بعض بني عمّنا، وحاشية عبد الحكيم على المطول الذي

اهداها إلى جدنا هي أول ما وصلت إلى الديار العراقية، وهذه النسخة ليست في كتبنا الآن.

ولوالد هذا العلامة المشار إليه العلامة الفهامة ولي الله بلا نزاع، ومحرر مذهب الشافعي بلا دفاع المولى الشريف حيدر بن محمد خوارق عظيمة، وله حاشية عظيمة على تحفة العلامة ابن حجر، وكان مفتي الشافعية في خطة العراق، ترجع إليه فحول العلماء في الفتوى، وكان يدعى في العراق بابن حجر الثاني، وهو معاصر له. ولوالد هذا الشيخ العلامة المشار إليه، العلامة الفهامة المحقق ناشر العلوم في العراق، المولى الشريف محمد بن حيدر بير الدين طاب ثراه حاشية على إثبات الواجب، وهو أول الواردين من ما وراء النهر إلى النهر. وقد نشر العلوم العقلية، وتلقته العلماء بالتعظيم، وأخذوا عنه العلوم، وكان يتكلم باللغة التركية الجغطائية، وولد ابنه جدنا حيدر المذكور في العراق من امرأة تزوجها من الباشورية، من اولاد عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وهم بيت علم وفضل وجاه، أقدم أهل العلم وغيرهم في العراق، لأن جدهم أتى إلى العراق من زمن جدهم عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما، ويا له من بيت مجد وعلم وفضل.

ولوالد هذا الشيخ العلامة المشار إليه، الشيخ العلامة المرشد الكامل، حيدر بير الدين بن أمين الدين خوارق عظيمة، وقد جمع بين علم الظاهر والباطن. ولوالد هذا العلامة المرشد المشار إليه العلامة المرشد الكامل الشيخ أمين الدين كرامات وخوارق عجيبة، جمع علم الظاهر والباطن، والكل من هؤلاء الرجال العظام أخذ العلم عن أبيه وكمل عليه العلوم، إلا أحمد بن حيدر صاحب المحاكمات فإنه أخذ عن أبيه العلوم النقلية وبعض العقلية، وأخذ عن غيره بعض العقلية، وسمع الحديث عن عبد الملك العصامي عن الشيخ ابن حجر المكي، كما هو مذكور في ثبته.

وأخذ جدنا محمد العلم والطريقة عن أبيه بيرالدين، عن أبيه العلامة إبراهيم برهان الدين، عن إبيه المرشد الكامل الشيخ علي عـلاء الدين، عن أبيه المرشد الكامل الشيخ صدر الدين، عن أبيه سلطان المشايخ صفي الدين أبي الفتح إسحاق عن القطب الشيخ أحمد أخي حجة الإسلام أبي حامد الغزالي.

وأخذ جدنا صفي الدين ايضاً عن أبيه الشيخ أمين الدين عن والده العلامة الشيخ صالح، عن والده العلامة المرشد الشيخ قطب الدين، عن والده العلامة الحافظ المرشد الشيخ صلاح الدين رشيد، عن والده محمد الحافظ، عن والده المرشد الكامل عوض، عن والده العلامة الولي الكبير فيروز شاه، عن أبيه الولي الكبير محمد شاه، عن أبيه الولي المرشد الكامل شرف شاه، عن أبيه الشيخ محمد عن أبيه الشيخ حسن، عن أبيه الشيخ محمد، عن أبيه الولي الجليل الشيخ إبراهيم الملقب بالأدهم، عن أبيه الشيخ جعفر، عن أبيه الشيخ محمد، عن أبيه الشيخ إسماعيل، عن أبيه المحدث الحافظ أحمد الأعرابي، عن أبيه المحدث الحافظ الشيخ محمد، عن أبيه الإمام أبي محمد القاسم، عن أبيه الإمام أبي القاسم حمزة، عن أبيه الإمام الهمام موسى الكاظم، عن أبيه الإمام جعفر الصادق، عن أبيه الإمام محمد الباقر، عن أبيه الإمام زين العابدين، عن أبيه الإمام الشهيد، سيد شباب أهل الجنة وقرة أعين أهل السنّة، أبي عبد الله الحسين، عن أبيه، الهمام والبطل الضرغام أسد الله الغالب، علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين، عن سيد المرسلين وافضل العالمين ابن عمُّ المصطفى ﷺ . فلله الحمد على هذا النسب العال،ي ولا ترى نسباً كنسب الحيدرية في أخذ كل منهم عن أبيه، وهو من عجيب الاتفاق، وذلك فضل الله يؤتيه منْ يشاء ولنرجع إلى ما نحن بصدده من عدّ تآليف السادة الحيدرية. وللعلامة الشريف إسماعيل الحيدري، وللعلامة الشريف فضل الله الحيدري، وللعلامة فتح الله الحيدري، وللعلامة الشريف عاصم الحيدري أخوة جدنا،

العلامة الفهامة الشريف، صبغة الله بن إبراهيم بن حيدر حواشي على تفسير البيضاوي. ولإسماعيل المذكور أيضاً حاشية على شرح العضدية القوشجي، وعلي القرباغي، وله أيضاً شرح لطيف على رسالة الإصطرلاب، وحواشي على الجفر الجامع لمحبي الدين العربي قدس سره. ولعاصم المذكور حاشية على الخيالى. وللعلامة الولي الشريف صالح الحيدري بن إسماعيل المذكور حواشي على خلاصة الحساب. وللعلامة الشريف إبراهيم الحيدري بن عاصم المذكور حواشي على حاشية عبد الحكيم الهندي على الخيالى، وله شرح نفيس على رسالة مسألة خلق الاعمال لجلال الدين الدواني. وللفاضل الجامع الشريف محمد الحيدري بن فضل الله المذكور آثار عجيبة في كل فن. وللعلامة الفهامة الولي الشريف خالد الحيدري والعلامة الشريف عمر الحيدري. وللعلامة الشريف محمد الحيدري. وللعلامة عباس الحيدري، والعلامة الشريف حسين الحيدري أخوة جدنا حيدر بن أحمد، صاحب المحاكمات حواشي دقيقة على كتب علم المنقول. ولحسين المذكور أيضاً حواشي دقيقة على حاشية أمير أبي الفتح في آداب البحث. وللشاب العلامة اللوذعي الشريف غياث الدين الحيدري، والعلامة الشريف حيدر مفتي الحنفية ببغداد الحيدري، والعلامة الولي المجذوب الشريف محمد أمين أخوة جدنا عبد الله بن صبغة الله حواشي على سائر كتب المعقول، وخاصة لغياث فأن له حاشية عظيمة على تحفة ابن حجر المكي، وعلى جمع الجوامع في الاصول، وعلى مختصر المنتهى في الاصول، وعلى اللاري في الحكمة، وعلى حاشية عبد الحكيم الهندي على حاشية عبد الغفور على شرح الكافية للجامي، وعلى حاشية عصام الدين على الجامي، وحاشية على قول أحمد علي الفناري، وحاشية على رسالة محمد أمين في جهة الوحدة وغير ذلك. ولحيدر المفتي حواشي تفسير البيضاوي، ومحمد أمين المذكور مع كونه مجذوباً مستغرقاً في فكر الله تعال،ى وذكر له آثار عجيبة في العلوم، وكرامات عديدة طاب ثراهم.

وللعلامة المحقق الشريف أحمد بن حيدر، شقيق جدنا إبراهيم بن حيدر، وأخيه الآخر العلامة الفهامة المدقق الشريف عبد الله بن حيدر عدة حواشي على كتب المعقول. فمن حواشي أحمد المذكور حاشيته الدقيقة على شرح عصام الدين، على رسالة البيان. ومن حواشي عبد الله المذكور حاشيته الدقيقة النفيسة على حاشية اللاري في الحكمة، وقد صارت جادة تقرأ في العراق، وحاشيته على حاشية قول أحمد التفتازاني، وهي أيضاً تقرأ مع كتب الجادة، وحاشيته على حاشية أمير أبي الفتح في آداب البحث، وحاشيته على شرح عصام الدين على رسالة البيان، وعلى شرح رسالة الوضع، وعلى شرح رسالة الأدب لعصام الدين أيضاً، وحاشيته على كتاب الفرائض من تحفة العلامة ابن حجر المكي، وحواشيه على حاشية عبد الغفور، على شرح الجامي على الكافية، وشرحه على الزوراء للدواني وغير ذلك. ولأولاد أحمد المذكور: العلامة الشريف عبد الله، والعلامة الشريف عبد العزيز، والعلامة خضر حواشي على كتب المعقول، ولخضر حواشي على تحفة ابن حجر، وكان عبد الغفور المذكور المعي الفكرة، وله حواشي دقيقة على حاشية قول أحمد. وللعلامة المحقق الشريف محمد الأخرس بن خضر الحيدري المذكور حواشي على خلاصة الحساب، ولولده العلامة الشريف خضر ابن محمد تفسير لقوله تعالى: "الله نور السموات والارض" الآية، وهو مجلد ويااله من كتاب جامع لأنواع الدقائق. وللعلامة المدقق النحرير محمد بن حسين ابن بنت جدنا أحمد بن حيدر حاشية دقيقة، على مير أبي الفتح وعلى عصام الوضع، وهما من الكتب المفردة. وكان محمد بن حسين من أجل العلماء غمر النسب، وبيتنا السادة الحيدرية لم يعطوا بنتاً لأحد إلى اليوم، إلا لوالد هذا الحبر. وللفاضل نعمة الله الحيدري وأخيه الصالح عثمان، ولدي عاصم بن إبراهيم الحيدري آثار كريمة، وللفاضل الصالح بن عبد الله بن حيدر آثار كريمة

حسنة، وللفاضل المحقق الشريف مفتي الشافعية عبد الله بن غياث الدين الحيدري تعليقات دقيقة على كتب المعقول.

ولولده الفاضل، المحقق الشريف، محمد أمين حواشي لطيفة على حاشية العلامة محمد بن حسين،(وله) أيضاً على حاشية مير أبي الفتح. وللفاضل الذكي الشريف إبراهيم بن صبغة الله بن عاصم الحيدري حواشي على حاشية عبد الحكيم علي الخيال. وللذكي اللوذعي الأديب محمد أمين، ابن عمّي الشريف عبد الغفور الحيدري، مفتي الشافعية، تعليقات لطيفة على حاشية العلامة المصر اللقاني على شرح التصريف للتفتازاني، وعلى القرباغي وغيرهما، وله نظم ونثر رائق مات شاباً.

وللعلامة الفهامة، جامع المنقول والمعقول المرشد الشريف، مولانا عبيد الله الحيدري، مفتي الحنفية ببغداد، آثار عجيبة في كل فن، وله نظم ونثر عجيب رائق فائق، وكان يدرس العلوم النقلية والعقلية في إثناء الفتوى، ولا يتكلف لذلك، وكان مرشداً في الطريقة النقشبندية العلية، وهو أول خليفة لمولانا خالد من خلفاء بغداد. و(قد) حمل الماء على جرة على ظهره، بأمر حضرة مولانا خالد قدس سره، وسبله في الأزقة والاسواق، مع علمه وجلالة منصبه، وقدره هضما لنفسه، وعجب الناس من ذلك. توفي وهو ابن خمس وأربعين سنة.

وكان جدي كثير المودة له، مشغوفاً بحبه، توفي في طاعون بغداد، وكان له ولدان فاضلان أديبان شاعران، قد بلغا من الذكاء غاية المراتب، وهما عبد الحكيم وعبد الحليم، وكانا من عجائب المخلوقات في الفطنة والحفظ، ولهما النظم والنثر، الرائق وقد شرح عبد الحليم، وهو الأصغر رسالة الخطيب في البيان، وهو ابن خمس عشرة سنة. وقرأتُ الاجرومية في صغري على عبد الحليم، ابن عمّي المكور رحمه الله تعال،ى مات هو وأخوه شابين في الطاعون بعد أبيهما بمدة قليلة، وكاد والدي يرحمه الله أن يموت من حزنه عليهما وعلى أبيهما. وللعلامة

الفاضل، الذي لا يبارى والكامل الأديب، الذي لا يجارى ذي الأخــلاق الكريمـة والشمائل اللطيفة، صاحب القلم والتحرير والنظم والتقرير المولى الشريف عمّي عبد القادر صدقي الحيدري، وكان نسخة الكمال في كل علم ومعرفة وهو من حسـنات الزمان، له آثار عجيبة بديعة في المراسلات والانشاءات والصكوك العربية والتركية والفارسية، مما يتعجب منه الناظر إملاء وإنشاء وخطاً، وله كتاب نفيس في بحث المكفرات، كقواطع العلامة ابن حجر المكي، وكان كثير المحبة لي ولوالدي، توفـى بالبصرة ودفن قرب الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه، وهو أكبر سناً من أخيـه عبد الل،ه وكان رحمه الله تعالى كثـير المـزاح منطقيـاً فصيحـاً بليغـاً كريمـاً بهيـاً حسناً، قوى الجدال يألف الكبير والصغير والغني والفقير في غاية التواضـع طـاب ثراه، وجعل الله الجنة مثواه. ولجدى أسعد المشار اليه أخ أصغر منه، وهو العـالم الأديب الشريف عبد السـلام الحيـدري، وكـان عالمـاً بـالتواريخ والأنسـاب، ولـه الوقوف التام على أخبار الأمم السالفة، وكان ملازماً لوالـدي، كثـير المحبـة لـه. وللفاضل سـعد الله الحيـدري والفـاضل شـهاب الديـن الحيـدري، والفـاضل عبـد الوهاب الحيدري، والفاضل أحمد الحيدري، المشهور بالملا، الكبير اليد الطولي في العلوم العقلية. هذا، وترجمة جميع علماء السادة مع تآلفهم لا يسعه هـذا المقـام، بل نحتاج إلى مجلد كامل مستقل، وهم يبلغون مقدار ثلثمائة عـالم مؤلـف، ولكـن ذكرنا بعضهم وبعض تآليفهم ليعلم الناس جلالة هـذا البيـت المرفوعـة قواعـده إلى كيت وكيت.

وأما تآليفي، وأنا الفقير إبراهيم فصيح بن السـيد صبغـة الله بـن السـيد أسـعد الحيدري فكثيرة، ولله الحمد، فمنها فصيح البيان في تفسير القرآن، التزمت فيـه المحاكمة بين المفسـرين، وأعلـى الرتبـة شـرح نظـم النخبـة في أصـول الحديـث، وامداد القاصد للنووى، وحاشية على الجزء الأول من تحفة المحتاج للعلامـة ابـن حجـر المكـي ثـراه في فقـه الشـافعية. وحاشـية علـى الأشـباه والنظـائر الفقهيـة

للسيوطي، وحاشية على الدر المنتقى في شرح الملتقى في فقه الحنفية، التزمت فيها سياق الفاضل ابن عابدين الدمشقي في حاشيته على الدر المختار، وشرح مقامات الحريري، وحاشية على كتاب سيبويه، وشرح المقامة الطيفية للسيوطي، وشرح ديوان أبي العلاء المعري، وشرح ديوان أبي تمام، وحاشيته على حاشية عبد الحكيم الهندي، على حاشية عبد الغفور اللاري، على شرح الجامي، على الكافية وحاشيته على حاشية عبد الحكيم، على شرح الشمسية في المنطق، وحاشية على حاشيته أيضاً على المطول، وحاشية على حاشية جدنا أيضاً على المطول، وحاشية على حاشية جدنا، خاتمة المحققين المولى الشريف، أحمد بن حيدر المسماة بالمحاكمات الواقعة على شرح العقائد العضدية للعلامة المحقق جلال الدين الدواني، وفك الاشتباك شرح تشريح الأفلاك في علم الهيئة وراحة الأرواح شرح الأقتراح في اصول النحو للحافظ السيوطي، وشرح منظومة آداب البحث والسنوحات في التصوف، وشرح رسالة خلق الاعمال لحضرة مولانا وشيخنا المجدد خالد النقشبندي قدس سره، وحاشية على حاشية العلامة المحقق محمد بن حسين بن بنت جدنا أحمد بن حيدر على حاشية أمير أبي الفتح على شرح رسالة الحنفية في آداب البحث، وحاشية على حاشية القرباغي على شرح الأبساغوجي في المنطق. وكتاب الحسب في النسب، جمعت فيه أنساب العرب ومآثرهم واصول الخيل والابل والعلامات الجيدة والردية فيهما، والصراط المستقيم في الرد على النصارى، وكامل التوقيع في فن البديع، وامعسان الألباب في الاصطرلاب، وحاشية على شرح الشافية للجاربردي في علم الصرف، وحاشية على ألفية ابن مالك للحافظ السيوطي، وتعليقات على مغني اللبيب، وعلى حكمة العين، وعلى حاشية اللاري على شرح الهداية في الحكمة، وتعليقات على شرح مختصر المنتهى في الاصول، وعلى حاشية الوغ بيك على شرح المسعودي في آداب البحث، وعلى حاشية المصري على شرح التصريف، وعلى حاشية أمير أبي الفتح

على شرح التهذيب للدواني في المنطق، وعلى الفاكهي، وعلى قول أحمد، وعلى شرح السراجية للسيد السند في الفرائض، وعلى غالب كتب المقدمات، وغير ذلك من الرسائل المفيدة، والألغاز والانشاءات، والحمد لله تعالى حمداً يوافي نعمه ويكافي مزيده.

وقد أخذتُ العلوم عن عدة أعلام، سيأتي إن شاء الله تعالى بيانهم. ولنرجع إلى ما نحن بصدده من بيان علماء العراق، الذين أدركت عصرهم، وأخذتُ عنهم. فأجل منْ أدركتُ عصره وأنا صغير شيخنا ومقتدانا، قطب دائرة الارشاد المرشد العارف بالله الكامل الاسناد، مجدد العصر والأوان، شمس الحقيقة والعرفان، علامة الدنيا على الإطلاق المشهور في جميع الآفاق، صاحب الولاية الكبرى والأنفاس القدسية، والإلهامات الذوقية الربانية، قدوة العارفي،ن وسند الواصلين، جامع المنقول والمعقول، حاوي الفرع والاصول، حجة الاسلام وشيخ الخاص والعام، الراكع الساجد ضياء الدين حضرة مولانا خالد النقشبندي المجددي العثماني الشافعي قدس سره، وأعاد علينا بره. فاني قد أدركت عصره، وجلست في ختمه الخواجكاني بجنبه، ودعا لي ولله الحمد، فأن خليفته عمّي العلامة الشريف عبيد الله الحيدري المفتي، هو الذي أجلسني بجنبه حين قراءة الختم الشريف، وأنا مريض، وكان شفائي ببركة جلوسي بجنبه وبدعائه، ثم أخذت الطريقة العلية النقشبندية الخالدية من خليفة ولي الله بلا نزاع، والمستغرق في فكر مولاه، قدوة العارفين ومرشد الكاملين الولي النبوي، والسيد الشريف العلوي، فقيه عصره مولانا ومقتدانا السيد عبد الغفور الشاهدي الشافعي قدس سره، وكان محبوباً لحضرة مولانا خالد. ومن أعظم خلفائه العارفين الكاملين المرشدين، ولهذا السيد شيخنا المشار إليه كرامات ظاهرة، شاهدتُ منها كثيراً، وكان محبوباً مقبولاً معظماً لدى الخواص والعوام، وله من مكارم الأخلاق ما يتحير منه الناظر،

وهو قد سلك أولاً على يدي عمّنا العلامة الشريف عبيد الله الحيدري المشار إليه، ثم خلفه حضرة مولانا خالد قدس سره.

ومن جملة خلفاء حضرة مولانا خالد، العالم الولي الكامل العارف المرشد، الذي أجمع على حبه والإعتقاد به، مولانا الشيخ موسى الجبوري الشافعي، والولي العارف العالم الكامل المرشد مولانا الشيخ محمد الجديد الحنفي البغدادي، وقد أدركتهما وفزت بدعائهما ونظرهما الإكسيري، وهما أيضاً قد سلكا أولاً على يدي عمّنا الشريف عبيد الله الحيدري المشار إليه، ثم خلفهما حضرة مولانا خالد وصارا كشيخنا السيد الشاهدي، ومن أعظم خلفاء حضرة مولانا خالد، وكان هؤلاء المشايخ الثلاثة العظام مع عمّنا المشار إليه كأنهم روح واحدة، وعليهم مدار الارشاد ببغداد، بعد توجه حضرة مولانا خالد إلى الشام، وعمّي المشار إليه توجه بخدمته إلى الشام، ثم أمر بالعود إلى بغداد، وخلفاء حضرة مولانا خالد، كلهم علماء أعلام، ولا يحصى عددهم لكثرتهم في البلاد.

ثم إن علوم حضرة مولانا خالد، وخوارقه وكراماته وكرمه ومكارم اخلاقه، واتباعه للسنّة، وجلالة قدره، وعلو شأنه، وإنقياد العلماء الفحول له، ومناقبه لا يسعه هذا المقام، بل يحتاج إلى مجلد ضخم. ثم لما كمل العلوم ودرسها مدة ترك أهله ومدرسته، وذهب إلى دلهي من بلاد الهند، وسلك على يدي قطب العارفين الولي الأكبر، مولانا شاه عبد الله الدهلوي، فخلفه مع العارف الولي الشيخ أبي سيد الهندي في يوم واحد، وأمر حضرة مولانا خالد بالتوجه إلى بغداد للارشاد، فعاد وصار له من الشأن ما صار كالشمس في رابعة النهار، وانتفع به من الأمم ما لا يحصى عددهم إلا الله تعالى. وكان قدس سره كثير المحبة لجدى أسعد الحيدري، وجدي من أعظم المخلصين له، ونحن معاشر الحيدرية الذين روجنا أمر حضرة مولانا خالد ببغداد، وخدمناه ابتغاء لمرضاة الله تعالى، وقد أخذ حضرة

مولانا العلم عن عدة علماء، منهم العلامة صالح الترماري عن العلامة الولي الشريف عمّنا صالح الحيدري.

ومن أعظم منْ أدركتُ عصره، وأخذتُ عنه شيخي علامة العلماء، واللج الذي لا ينتهي، ولكل لج ساحل، جامع المنقول والمعقول، حاوى الفروع والاصول، شيخ الكل في الكل حجة الإسلام سند العلماء الأعلام الولي الكامل العارف، الذي قد بلغ من مكارم الأخلاق وتواضع النفس، حداً لم نره في أحد من المعاصرين، مولانا ومقتدانا الشيخ المزوري العمادى قدس سره، وقد قرأتُ عليه صحيح البخارى وأجازني به وبجميع الكتب الصحاح، وسائر العلوم وقرأت عليه شرح النخبة في اصول الحديث، والاشباه والنظائر الفقهية للحافظ السيوطي. ولازمتُ خدمته وفزتُ بنظره ودعائه، وكان كثير المودة لي يعدني كأحد أولاده، وكانت له حقوق عظيمة مع جدي العلامة الشريف أسعد الحيدري وبينهما محبة عظيمة، كأنهما أخوان، أخذ العلم عن عدة مشائخ أعلام، منهم العلامة الشريف عاصم بن إبراهيم الحيدري، عمّ جدى المشار إليه، وله تآليف عديدة منها: حاشيته على تحفة العلامة أحمد بن حجر المكي، تصدى فيها للجواب عن إعتراضات العلامة ابن قاسم العبادى، على الشيخ ابن حجر، ومنها حاشيته على شرح عصام الدين، على الرسالة الوضعية، ومنها شرحه على المسائل الحسابية في آخر خلاصة الحساب، التي تحير في حلها الحكماء وغير ذلك من التعاليق المفيدة. وأخذ عنه جميع علماء العراق ممن في عصره، وهو شيخ مشايخ العراق، وكان عندهم بمنزلة الشيخ ابن حجر، وقد قرأ تحفة المحتاج للشيخ ابن حجر اكثر من ثلاثين مرة، وبلغ من العمر قريباً من مائة سنة، وقرأ تفسير البيضاوي مع حواشيه، كذلك درس العلوم النقلية والعقلية، وكتب الحديث سبعين مرة، وقد أخذ الطريقة النقشبندية عن شيخنا، قطب العارفين، حضرة مولانا خالد قدس سره، وكان حضرة مولانا خالد كثير المحبة والاحترم له. وقد حدثني، العالم

العامل الشريف، الشيخ إسماعيل البرزنجي، وكان السبرزنجي من خدام حضرة مولانا خالد، بأن العلامة المزورى كان قد نام يوماً قبل الظهر في حجرتي، فأتى حضرة مولانا خالد إلى زيارة المزورى في حجرتي، فرآه نائماً فقبله من فمه ثم خاطبه بقوله: متعنا الله بحيانه.

ومن أجل منْ أستفدت منه، وكنت ملازماً لمجلسه، العلامة الفهامة النحرير صاحب اليد الطولى في العلوم العقلية مع التقرير، شيخ علماء العراق المشهور في الآفاق، فهامة الزمان محقق العصر والاوان العالم العامل، الورع التقي النقي، مولانا الشيخ عبد الرحمن بن حسين بيك الروزبهاني طاب ثراه وكان من أكابر العلماء العاملين المحترمين، ذا جاه ووقار وتؤدة وبهاء وكرم أخذ العلم عن العلامة صبغة الله الزيادي الكروى عن العلامة الولي صالح الحيدري، وأخذ عنه علماء فحول كثيرون وانتفع به الناس انتفاعاً عاماً، ودرس العلوم أربعين سنة متوالية، وله من التحقيقات ما يكتب على العيون وهو خاتمة المحققين، وقد قام في مقام حضرة مولانا خالد قدس سره، ومدرسته في بغداد. وكان حضرة مولانا خالد يعده في منزلة أخيه، لما بينهما من الحقوق القديمة من أوان التحصيل. وبالجملة، أن حضرة مولانا خالد وجدي العلامة أسعد الحيدري، والعلامة شيخنا المزورى، والعلامة شيخنا الروزبهاني المشار إليه كانوا بمنزلة الأخوة في المحبة والعلم والفضل والحقوق، إلا أن حضرة مولانا خالد صار رئيسهم، لما نال من الولاية الكبرى، وهم في غاية الطاعة والإنقياد والخدمة لحضرته، وهو في غاية الاحترام والتوقير لهم، ولا سيما لجدي طاب ثراهم، وجعل الله الجنة مأواهم.

هذا، وكنت أسأل عن شيخنا العلامة الروزبهاني عن المواضع المشكلة، من تحفة العلامة ابن حجر المكي وغيرها، من كتب المعقول الدقيقة المأخذ، فكان يشفي غليلي شكر الله تعالى سعيه، وكان حلال المشكلات لأهل العلم، وانطفت بموته أنوار العلم ببغداد، وتهدمت قواعد الفضل والرشاد، وكان كثير المودة لي

ولبيتنا السادة الحيدرية، وهو كأنه من بيتنا ولنا معه قرابة نساء كما سبق. وقد نشأت مع نجله، العالم الفاضل النجيب الكريم أخي وحبيبي، أحمد منذ أيام التحصيل، وقرأنا معاً ولم نفترق طال عمره، وكانت لشيخنا العلامة الروزبهاني المشار إليه اليد الطولى في علم الأصول، والكلام، والحكمة، والمنطق الرياضي. وكان فائقاً في الرياضي على كل أحد، ولنجله المشار إليه الفكرة الدقيقة في الرياضي، وقد بقي شيخنا المذكور المزوري كثيراً، وبقيا مدة طويلة بعد موت حضرة مولانا خالد قدس سره، وجدي ثم بقي الروزبهاني مدة طويلة بعد المزوري.

ومن أجل منْ أدركته وإنتفعت به، شيخي وقدوتي العلامة الفهامة النحرير والحبر الذي لا يفي بتفصيل فضائله ومناقبه التقرير والتحرير الولي الزاهد العابد الراكع الساجد الصائم، مولانا أحمد بن علي الكلالي البالكي، وكان طاب ثراه صائم الدهر، لم يزل ساجداً في المحراب، أخذ العلم عن عدة علماء، منهم: العلامة الفهامة المدقق محمد الخطي، والعلامة الفهامة أبو بكر الأمير رستمي، والعلامة الذكي علي الوشي وغيرهم، وكمل العلوم على شيخنا، العلامة النحرير ومولانا، الشيخ عبد الرحمن الروزبهاني المشار إليه. وقد لازمت شيخي الكلالي المذكور عدة سنين، وقرأتُ عليه مغني اللبيب، وكتاب سيبويه، وخلاصة الحساب، وتحفة المحتاج لابن حجر المكي، وأواخر الإشباه والنظائر الفقهية للسيوطي، وحكمة العين مع حاشية السيد السند، إلا مباحث رياضي منها وبعضاً من فن المعاني، وجميع فني البيان من المطول مع حاشيته للفاضل المحقق عبد الحكيم الهندي، واشكال التأسيس، وجمع الجوامع مع حواشيه لابن أبي شريف، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، إلا اوائله وشرح مختصر المنتهى مع حاشيته للسيد السند، والخيالي مع حاشيته لعبد الحكيم، إلا أوائله وإثبات الواجب، وتفسير القاضي البيضاوي، وشرح العقائد العضدية للمحقق الدواني مع حاشيته لجدنا العلامة الشريف أحمد بن حيدر المسماة بالمحاكمات، وشرح

المطالع مع حاشيته للسيد السند، إلا بعضاً من اوائله، وشرح المحقق الدواني على تهذيب المنطق مع حاشيته لأمير أبي الفتح، إلا بعضاً من اوائله، وشرح الاندلسية في العروض، وشرح الايساغوجي مع حاشيته لمحيي الدين، وشرح الألفية للسيوطي، وبعضاً من شرح الكافية للجامي، وشرح التصريف للتفتازاني وغير ذلك من المقدمات، التي قرأتها عليه في عنفوان الشباب، شكر الله تعالى سعيه وجزاء عني خير الجزاء. وكنت أستغرق الوقت حين الدرس من بعد صلاة الصبح إلى المغرب سنين كثيرة، وكان رحمه الله كثير السعي معي، بحيث لا يقرأ عنده أحد إلا برخصة مني، وكان أهل العلم يحسدونني على ذلك، وهو يعتذر عني بأن لي حق عليه مشيخة آبائي واجدادي.

وبالجملة، أنه لا يستفيد منه أحد غيري من أهل العلم، إلا إذا سافر إلى محل آخر، أو أختلس وقتاً، وكان في بعض الأحيان يختفي عني في بعض زوايا المسجد للعبادة، فكنت أفتش عليه وألقاه ساجداً في زاوية خفية. فإذا فرغ من العبادة قام إلى إفادتي، وكان من حاله أنه في إثناء الدرس يقوم ويصلي نفلاً ثم يعود إلى الدرس دفعة بعد دفعة، وكان يقوم الليل، ويصوم النهار، ولم أر مثله علماً وعملاً، وكان لا يتكلم إلا بذكر الله تعالى والعلم. وقرأ شيخنا هذا تحفة ابن حجر وغيرها على شيخنا، حجة الإسلام، الشيخ يحيى المزوري، والروزبهاني من المفرطين في حبه وإحترامه، وكذا سائر العلماء، ولما سمعت بموته كدت أن أموت حزناً عليه، طاب ثراه وجعل الجنة مثواه، وعلى العلم والعبادة السلام، وكان بحراً زاخراً في كل العلوم النقلية والعقلية، لا يعرض عليه شئ من المشكلات إلا حله بادنى التفات، ونظر وهو آية من آيات الله تعالى بين أهل العلم، نفعني الله تعالى بعلومه الشريفة وحشرني معه يوم القيامة.

ومن أجل من أدركته، وأخذتُ عنه العلم، شيخي وسندي الولي العلامة المحقق والفهامة اللوذعي المدقق العالم العامل والورع الصالح الصامت الكامل،

مولانا إبراهيم بن حسين الرمكي، وكان منزوياً عن الناس لا يتكلم بكلام الدنيا، مشغولا بالعلم والعبادة، أخذ العلم عن عدة أعلام منهم العلامة النحرير محمد الخطي، والعلامة علي الرستي وغيرهما، وكمل العلوم على العلامة الفهامة شيخنا عبد الرحمن الروزبهاني. وقد لازمته أيضاً عدة سنين، واستفدت منه، وقرأتُ عليه الفناري مع حواشيه، لقول أحمد وعبد الله بن حيدر وأخيه إبراهيم بن حيدر الحيدري وبرهان الدين، ورسالة جهة الوحدة للفاضل محمد أمين مع حواشيها للعلامة الشريف غياث الدين الحيدري، وقرأت عليه شرح التهذيب لعبد الله اليزدي مع حاشيته لعبد اللطيف، وشرح رسالة البيان لعصام الدين مع حواشيه للعلامة الشريف أحمد بن حيدر، ولأخيه العلامة عبد الله بن حيدر الحيدري، وللفاضل المحقق حسن الزهباني، وللفاضل الشرانشي، وشرح الرسالة الوضعية لعصام الدين مع حواشيه لجدنا العلامة النحرير حيدر، ولابن أخته العلامة محمد بن حسين، وللفاضل الشرانشي. وقرأت عليه حاشية أمير أبي الفتح في آداب البحث مع حواشيه للعلامة الشريف عبد الله بن حيدر الحيدري، وللعلامة المدقق محمد بن حسين بن عمته، وشرح المسعودي مع حاشية ابن الوغ بيك، وحاشيتها لعبد اللطيف في آداب البحث، وشرح الشمسية مع حواشيها للسيد السند وداود الخوافي، وبعضاً من المطول مع حاشيته لعبد الحكيم الهندي، وبعضاً من جمع الجوامع وحواشيه، ونبذة من الإشباه الفقهية للسيوطي، وجزء من شرح المنهج لشيخ الإسلام زكريا الانصاري، وشرح مقدمة الحضرمية لابن حجر، ونبذة من تحفة ابن حجر، والفوائد المدنية للفاضل المحقق محمد ابن سليمان المدني، وحاشية العلامة المصري اللقاني على شرح التصريف للتفتازاني مع حواشيها للعلامة ابن قاسم العبادي، وللفاضل المحقق أحمد الكردي وحسين الالمعي البرزنجي. وقرأت عليه أيضاً حواشي شرح الجامي على الكافية للفاضل

عبد الغفور اللاري وعبد الحكيم الهندي وعصام الدين، وشرح الشافية للجاربردي مع حاشيته لابن جماعة وغير ذلك شكر الله تعالى سعيه.

وكان شيخنا هذا أيضاً كشيخنا العلامة أحمد الكلالي، في غاية الشفقة علي والسعي معي وكانا هما كأنهما أخوان، وفي الدرس والتحصيل رفيقان فإذا غاب أحدهما عني لازمت الآخر قدس الله تعالى روحهما. وقد سافر إلى حج بيت الله الحرام، وزيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام، ثم إلى مصر، ثم إلى حلب، وتوفى فيها وحزن أهل العلم على موته، فأنا لله وإنا إليه راجعون. ومن أجل منْ أدركته وأخذتُ عنه شيخي، الولي العلامة الجامع للمنقول والمعقول الزاهد الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، مولانا أحمد بن رسول الكراوي، المشهور بالواعظ في أربل، وكان ينام في المدرسة على الأرض ولا يذهب إلى بيته إلا ليالي الجمعة، وكان عالماً عاملا واعظاً متعظاً مهاباً عند الخواص والعوام، كأنه أسد ضرغام لشدة تقواه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وزجره عما لا يرضي الله تعالى، ولو كان المرتكب أميراً، وكان يأكل الخبز وحده مع الماء غالب الأوقات، ولا يقبل من الأمراء شيئاً ، ومناقبه لا تحصى. لازمته وقرأت عليه نصفاً من شرح المطالع مع حواشيه للسيد السند والمحقق ميرزا جان، ونصفاً من شرح التهذيب للدواني مع حاشيته لأمير أبي الفتح، وكان كثير المودة لي ولله الحمد، أخذ العلم عن عدة علماء، منهم والده الفاضل، ومنهم الفاضل عبد الله الكردي، والفاضل الشريف صبغة الله بن إبراهيم بن عاصم الحيدري وغير ذلك.

ومن أجل منْ أدركته وأخذت عنه العلم، الولي العالم العامل والفاضل الكامل الورع والصالح الزاهد، أبو بكر الملقب بكجك الأربلي، وكان من أكابر العلماء العاملين، ذا جاه وإحترام، أخذ العلم عن عدة أعلام، منهم أبوه الفاضل الصالح عثمان، عن العلامة الشريف صالح الحيدري، ومنهم الفاضل الذكي عبد الرحيم الزباري، ومنهم العلامة المشير داود باشا البغدادي، والي بغداد سابقاً. وكمل

العلوم على شيخنا العلامة الشيخ عبد الرحمن الروزبهاني، وقرأت عليه حاشية القرباغي على شرح الايساغوجي في المنطق، وبعضاً من حاشية داود على شرح الشمسية.

ومن أجل منْ أدركته الفاضل الذكي محمد فيضي السليماني الكردي، مفتي الحنفية ببغداد، ولهذا الفاضل اليد الطولى في العلوم العقلية، وله قوة الجدل والمناظرة، وقد جادل كثيراً من علماء الشيعة وأبهتهم. وقد أخذ العلم عن عدة أعلام، منهم العلامة محمد الذكي الصاوجبلاغي، عن العلامة النحرير الشيخ يحيى المزوري، عن العلامة الشريف عاصم الحيدري، والعلامة الشريف صالح الحيدري .

ومن أجل منْ أخذت عنه العالم الفاضل الكامل محمود العمر كنيدي، وكانت له اليد الطولى في العلوم الرياضية، قرأت عليه تشريح الأفلاك في علم الهيئة، وأوائل الخيالي مع عبد الحكيم، أخذ عن والده الفاضل محمد عرب، عن العلامة أحمد الطبقجلي، عن جدنا العلامة عبد الرحمن الروزبهاني، فهؤلاء منْ أخذت عنهم العلم وأجازوني به. أما منْ أجازني، فمن أجلهم الفاضل الجامع للمنقول، حاوي الفروع والأصول، فقيه الزمان ونخبة الأعيان شيخ الإسلام، ومفتي الأنام، العالم العامل الفاضل والورع النقي العفيف الكامل، صاحب الأخلاق المحمدية والشمائل الحسنة المرضية مولانا ومقتدانا، حضرة محمد رفيق أفندي. فإني قد تشرفت بلقائه في دار الخلافة قسطنطينية، والتفت إليّ التفات مودة وشفقة، وفزتُ بنظره الاكسيري، وأجازني بجميع مروياته، وكان إذ ذاك أمين الفتوى، ثم ولي مشيخة الإسلام، ولم أر أحداً بمكارم أخلاقه وتواضعه ومحبته لأهل العلم والطريقة والفقراء ،وهو من المخلصين لحضرة مولانا خالد قدس سره، ومن مريدي بعض خلفائه، وله اليد الطولى في العلوم الدينية والإطلاع التام على مذهب أبي حنيفة رضى الله عنه، كثير الورع والتقوى والعفة متعنا الله بحياته.

ومن أعظم مشايخي، ومن أجازني بجميع العلوم شيخي، العلامة النحرير المشير والحبر، الذي لا يفي بتفصيل فضائله لسان التقرير، جامع المنقول والمعقول، حاوي الفروع والاصول، صاحب الخيرات والجوامع والمدارس، ومنْ شيد كل فضل دارس حضرة الحاج داود باشا شيخ الحرم الشريف النبوي، والوالي في بغداد سابقاً البغدادي، فإنه أجازني بجميع العلوم، كما أجازه شيخه جدي العلامة النحرير أسعد الحيدري، مفتي الحنفية ببغداد وأجازني بالحديث باجازته عن العلامة (باحسن زين جمل الليل المدني). وقد درس هذا المشير قبل وزارته، وفي إثنائها العلوم النقلية والعقلية ثلاثين سنة، وأخذ عنه عدة أعلام، منهم والدي رحمه الله تعالى، فأنه من أخلص ملازميه وطالبيه سنين كثيرة، وهو كان كثير المودة لوالدي، لأنه أخذ العلم عن أبيه، كما قررناه. وكان وفياً لم يزل يبر والدي، ويكاتبه منذ عزل عن بغداد إلى أن توفى رحمه الله تعالى رحمة الأبرار، وأسكنه الجنة دار القرار، وكذلك كان يكاتبني، ويرسل لي الهدايا خاصة من المدينة المنورة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام. وممن أجازني من علماء الروم العالم الفاضل الكامل عبد الرحمن كاملي البرسوي.

وأما منْ قرأت عليه فقه الشافعية والحنفية، وعلم الفرائض، وكتب النحو والصرف والأدب في صغري فمنهم، العالم الفاضل الأديب الفقيه محمد سعيد المفتي الحلي وغير ذلك، والعالم الفاضل الصالح محمد الروزبهاني، والعالم الكامل الصالح عبد الله الداغستاني وغيرهم رحمهم الله تعالى، والعالم الفاضل الذكي الأديب محمد الأربلي.

ومن أجل منْ أدركت عصره العلامة المحقق، والفهامة المدقق، صاحب الذهن الوقاد، والفكر النقاد، وشيخ العلماء، الورع الصالح اللوذعي محمد الخطي الكردي، وكان من أعظم علماء العراق، وقد أنتفع به خلق كثير، وصار شيخ عصره في كل فن، وكانت له اليد الطولى في التحقيق والتدقيق. أخذ عنه علماء

أعلام منهم، شيخنا العلامة الولي أحمد الكلالي، وشيخنا العلامــة الزاهـد إبراهيـم الرمكي وغيرهم، مما لا يحصى عددهم، وهو قد أخذ العلم عن عدة أعـلام منهـم، علامة الدنيا على الإطلاق مولانا محمد بـن آدم ومنهـم، العلامـة أبـو بكـر الأمـير الرسـتمي وغـيرهم. وكمـل العلـوم علـى شـيخنا العلامـة الفهامـة عبـد الرحمـن الروزبهانى، وقد شرحت تشريح الأفلاك وأرسلته إليه، فاستحسنه غاية الإحسان وقرضه. وكان كثير المحبة لي لما بيننا من الحقوق القديمـة، لـه آثـار دقيقـة علـى بعض كتب المعقول، وله رسالة عجيبة في مسألة العلم من علم الكـلام. رحمـه الله تعالى متبحراً في كل علم منقول ومعقول، تشد إليه الرحال من كل جانب.

ومن أعظم منْ أدركت عصره، وأنا صغير وهو نزيل عند جدي، العلامة أسـعد الحيدري طاب ثراه، علامة الدنيا على الإطلاق الفائق على جميع مشائخ العـراق، صاحب التآلف العديدة والتقريرات المفيدة، شيخ الكل في الكل، مولانا محمد بـن آدم الكردى طاب ثراه. وقد قرأ عليه حضرة مولانا خالد قدس سـره، وأخـذ عنـه فحول العراق كافة. وكان جدى العلامة، وشيخنا العلامة يحيى المزورى، وشيخنا العلامة عبد الرحمن الروزبهانى، الذين هم مشايخ علمـاء العـراق كافـة، يعـترفون بفضله وتقدمه وعلمه المحيط، وكان بمنزلة الفخر الرازي، له أكثر من مائة تأليف في العلوم النقلية والعقلية، وشرح إثبات الواجب، الذي هو أرق كتب الكـلام مـن حفظه بدون إستمداد من كتب الكلام، وكان الآية الكبرى في عصره، ولـو عدمـت كتب العلوم لإستطاع أن يؤلف مثلها من حفظه، وهذا ليس على سـبيل المبالغـة، بل بيان للواقع الذي إعترف به جميع علمـاء العـراق. وكـان كثـير الأسـفار قـوي الدين، الذي لا تأخذه في الله لومة لائـم. أخـذ العلـم عـن العلامـة الـولي عبـد الله البايزيدى، عن جدنـا أفضـل المتـأخرين العلامـة الفهامـة، شيخ مشـايخ العـراق بالاتفاق، الولي الشريف صبغة الله الحيدري قدس سره.

ومن أجل منْ أدركت عصره العالم الفاضل العلامة أبو بكر الأمير رستمي الكردى، وكان من مشايخ العلماء المتبحرين، أخذ عنه العلامة الخطي، وشيخنا العلامة أحمد الكلالي وشيخنا العلامة الزاهد إبراهيم الرمكي وغيرهم من الفحول. وهو قد أخذ العلم عن العلامة الفهامة الولي جنيد عصره عبد الرحمن الجلبي، عن العلامة النحرير الشريف محمد بن خضر الحيدري، وله حواشي دقيقة مفيدة على أكثر كتب المعقول، على حاشية العلامة عبد الحكيم الهندي، على شرح الشمسية من المنطق، وله اليد الطولى في علم البلاغة، وله رسالة في البيان ورسالة في علم الوضع، وهما من أحسن الكتب في الفنين المذكورين، وقد صارا من الكتب الجادة لدى طلبة العلم بالعراق، وقد حدثني شيخي العلامة أحمد الكلالي، وشيخي العلامة إبراهيم الرمكي عن أبي بكر المشار إليه بأنه حدثهما: أنه لما ألف الرسالتين المذكورتين نسبهما للطلبة، إلى السادة الحيدرية ليحصل تروجهما، لما لأهل العلم بالعراق من الرغبة التامة في تآليف الحيدرية، ولما شاعا وانكب الطلبة على العلم أعلن نفسه.

ومن أجل منْ أدركت عصره العلامة الذكي أحمد الميركي الكردي، وكانت له اليد الطولى في علم آداب البحث، أخذ عنه كثير من العلماء، وهو أخذ العلم عن العلامة الشريف صالح الحيدري، والعلامة الشريف إبراهيم بن عاصم الحيدري. ومن أجل منْ أدركت عصره العلامة الفهامة المعمر عبد الله الكلالي الكردي، أخذ عنه كثير من الفحول، كشيخنا العلامة أحمد الكلالي، وشيخنا العلامة إبراهيم الرمكي وغيرهما. وهو أخذ العلم عن العلامة الفهامة النحرير محمد ابن آدم، عن العلامة الفهامة النحرير محمد بن عبد الله البايزيدي، عن أفضل المحققين العلامة الهمام الشريف جدنا صبغة الله الحيدري. ومن أجل منْ أدركت عصره العلامة المرشد علي الوساني الكردي. أخذ العلم عن العلامة النحرير محمد بن آدم، وهو من خلفاء حضرة مولانا خالد قدس سره، وله حاشية جيدة على حاشية

القرباغي. ومن أجل منْ أدركت عصره، العلامة الفهامة الذكـي الأديـب اللوذعـي الشريف، عمّي عبد القادر صدقى الحيدري البغدادي، وقد سبقت ترجمتـه. أخـذ العلم عن جدي العلامة الشـريف أسعد الحيـدري، عـن العلامـة النحريـر رسـول الشوكي، عن جدنا العلامة الولي الشريف عبيد الله الحيدري، والـد جـدي أسـعد الحيدري. ومن أجل منْ أدركت عصره عمّنا، العلامـة الجـامع للمنقـول والمعقـول المرشد الشريف عمّي الشيخ عبيد الله الحيدري المفتي النقشبندي البغـدادي قـدس سره، وقد سبقت ترجمته. أخذ العلم عن جدي العلامة الشريف أسعد الحيدري، وعن العلامة شيخنا عبد الرحمن الروزبهاني، وعن شيخه القطب العلامـة حضـرة مولانا خالد قدس سره، وعن العلامة السيد إبراهيم البرزنجي عـن جدنـا العلامـة الولي الشريف عبيد الله الحيدري، والد جدى العلامة أسعد الحيدري، واخذ عنـه عدة رجال، منهم الفاضل اللوذعي حسين بن سلوم جلب،ي وعيسـى البندنيجـي وغيرهم. ومن أجل مـنْ أدركـت عصـره، وأنـا صغـير، العلامـة الفهامـة المحقق الشريف أحمد، المشهور بالكبير نجل عبد الله الحيدري الماوراني. أخـذ عـن ابـن عمه جدنا، العلامة الولي الشريف، عبيد الله الحيدري، وأخذ عنه والدى، وكثـير من فحول العلماء. ومن أجل منْ أدركت عصره، العالم الفاصل المحقق الشـريف، صبغة الله ابن إبراهيم بن عاصم الحيدري الماوراني. أخذ العلم عن العلامـة صـالح الحيدري، وكمل العلم على جدي العلامة أسعد الحيدري. ومن أجل منْ أدركـت عصـره، العـالم الفـاضل المحقـق الشـريف السـيد، محمـد أمـين نجـل عبـد الله الحيدري، مفتي الشافعية البغدادي. ومن أجل من أدركت عصره، العالم الفـاضل الذكي الشريف السيد، إبراهيم ابـن صبغـة الله بـن إبراهيـم بـن عـاصم الحيـدري الماوراني. ومن أجلهم العالم الجامع لأنواع الفنون، الفاضل الشـريف، محمـد بـن خضر الحيدري المـاوراني. ومـن أجلهـم الفـاضل الشـريف عبـد العزيـز الحيـدري

الماوراني، وأخوه الفاضل عبد الغفور الحيدري. ومن أجلهم عمّنا الفاضل الذكي الشريف عبد السلام الحيدري البغدادي.

ومن العلماء الذين أدركتهم: عمّي، الفاضل الذكي الشريف، عبد الغفور الحيدري البغدادي، مفتي الشافعية طال عمره، ووالده، الفاضل الأديب الأريب اللبيب السيد، محمد أمين، وقد توفي رحمه الله تعالى، فهؤلاء الذين أدركت عصرهم من العلماء السادة الحيدرية. وأما الطلبة الذين أدركت عصرهم أولاد عمّنا السادة الحيدرية، فيبلغون أكثر من خمسين طالباً ذكياً لوذعياً، وقد أقتصرت على تراجمهم لأن شهرتهم تغني عن مدحهم، وسبق بيان بعض العلماء من غير الحيدرية، ولنتم (لعلها ونلتم) البيان ببعض غير الحيدرية.

فمن أجل منْ أدركت عصره، العالم الفاضل الذكي الجدلي، محمد الشوكي الكردى. ومن أجلهم، العالم الفاضل المحقق الصالح، حسين الاكوى الكردى. ومن أجلهم، العالم الفاضل الذكي، محمد القاضي الماوراني الكردى. ومن أجلهم، العالم الفاضل الذكي الأديب، محمد الأربلي. ومن أجلهم العالم العامل محمد الكركوكي. ومن أجلهم العالم الفاضل عمر العسكرى الكردى. ومن أجلهم العالم الفاضل المحقق عمر الخيالي الكروى. ومن أجلهم العالم الفاضل داود الديرى الكردى. ومن أجلهم، العالم الفاضل المرشد الكامل، الشيخ هداية الأربلي النقشبندي، خليفة حضرة مولانا خالد قدس سره، وكان من أكابر العلماء المحترمين، وكانت له قوة الفطنة والذكاء، أخذ عنه كثير من العلماء، وهو أخذ عن حضرة مولانا خالد قدس سره.

ومن أجلهم، العالم الفاضل المحقق اللوذعي الشريف، الشيخ عبد اللطيف البرزنجي، وابن عمه، الفاضل الأديب الشريف، الشيخ إسماعيل البرزنجي، وجميع هؤلاء أخذوا العلم عن الحيدرية، أما بالذات أو بالواسطة. ومن أجل من أدركته، الفاضل الفهامة اللوذعي، علي الموصلي، أخذ عن أبيه الفاضل يوسف،

عن العلامة جرجيس الأربلي، عن جدنا العلامة النحرير الشريف صبغة الله الحيدري. وكان حديد المزاج سيء الخلق كثير الدعوى، وهو مع فضله وذكائه فيده في العلوم العقلية ليست طويلة. وأخذ عنه بعض العلماء، منهم العالم الأديب محمود الآلوسي. ومن أجلهم العالم العامل محمد الموصلي، وكان مرضي الاخلاق، وكانت بينه وبين علي الموصلي عداوة عظيمة، ما تلاقيا في مجلس إلا تضاربا، ومنشأ ذلك، أن الناس يميلون إلى محمد المذكور، لصلاحه أكثر، وأن كان علي أعلم منه. ومن أجلهم، العالم الفاضل الذكي اللوذعي الأديب الأريب، عبد العزيز الشواف البغدادي، وكان حسن الأخلاق. أخذ العلم عن العالم الفاضل أحمد الزيادى، وعن جدنا العلامة الشريف أسعد الحيدرى المفتي البغدادي. وكانت له اليد الطولى في العلوم العربية. وأخذ عنه الفاضل الآلوسي وغيره، وكان شقيقه وأخوه العالم الكامل الأديب عبد الرزاق الشواف، من أهل الفطنة والذكاء وقد أدركته. ومن أجلهم، العالم الفاضل اللوذعي الأديب، محمد أمين الحلي، وكان صاحب فكرة نقادة. أخذ العلم عن جدى العلامة الشريف أسعد الحيدري البغدادي، وعن شيخنا العلامة عبد الرحمن الروزبهاني، وعن الفاضل علي الموصلي. وأخذ عنه الفاضل الآلوسي. ومن أجلهم، العلامة المحقق الصالح أحمد العمر كنيدي الكردى، وكان من أجل العلماء المحققين، من ذوى الورع والصلاح، أخذ العلم عن شيخنا العلامة عبد الرحمن الروزبهاني، وأخذ عنه كثير من الأفاضل. وله حواشي لطيفة على كثير من كتب المعقول، وشرح جيد جامع على الصغرى في المنطق للسيد السند. ومن أجلهم، العالم الفاضل الذكي الأديب، محمود الآلوسي، وكان كثير الفاقة، ثم ولاه علي باشا والي بغداد إفتاء الحنفية. أخذ العلم عن الفاضل عبد العزيز الشواف، والفاضل محمد أمين الحلي، ثم لازم الفاضل علي الموصلي. وكمل عليه العلوم، وكانت له اليد الطولى في العلوم النقلية، وله النثر العجيب، وفكرته في العلوم العقلية ليست كطول باعه في العلوم النقلية.

وقد فسر القرآن، وعلق على شرح القطر حاشية، وله آثار لطيفة في العربية، وكان كثير الحفظ مستحضراً ذكياً، لا يمل من مجالسته، وكان واعظاً عجيباً، كأمثال ابن الجوزى، يجتمع في وعظه خلق عظيم.

ومن أجلهم، العالم الأديب، محمد الطبقجلي البغدادي، أخذ العلم عن شيخنا العلامة عبد الرحمن الروزبهاني. ومن أجلهم، العالم الذكي الأديب، عيسى البندنيجي، أخذ العلم عن عمّنا، العلامة الشريف، الشيخ عبيد الله الحيدري البغدادي، والفاضل حسين الكركوكي، ثم لازمنا شيخنا العلامة عبد الرحمن الروزبهاني، وكمل العلوم عليه. ومن أجلهم، العالم الفاضل الفقيه الأديب، محمد سعيد أفندى المفتي البغدادي، أخذ العلم عن جدنا، العلامة الشريف، أسعد المفتي الحيدري البغدادي، وعن شيخنا العلامة عبد الرحمن الروزبهاني، وعن أبيه الفاضل محمد أمين، وكانت له اليد الطولى في العلوم العربية، والوقوف التام على مذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وكان جليل القدر وأخوه العالم الكامل محمد أسعد من الصالحين وقد أدركته. ومن أجلهم، العالم الفاضل الذكي عبد الله أغا، المشهور بطوبال محمد أمين أغا زاده البغدادي، وكان صاحب فكرة دقيقة، وله حواشي لطيفة على بعض كتب المعقول، أخذ العلم عن جدي العلامة أسعد الحيدري، المفتي البغدادي. ومن أجلهم، العالم الكامل الأديب، حسين بن سلوم جلبي البغدادي، وكان ذكياً، أخذ العلم عن جدنا العلامة الشريف الشيخ عبد الله المفتي الحيدري البغدادي، وكذلك العالم الأديب محمود بن عمر كاتب الديوان البغدادي، أخذ العلم عن عمّنا المشار إليه، وكانا بمنزلة الأخوين لا يفترقان درساً وصحبة. ومن أجلهم العالم الكامل درويش بيك البغدادي، أخذ العلم عن الفاضل عبد الله، مفتي الشافعية ابن غياث الدين الحيدري البغدادي. ومن أجلهم العالم الذكي حسين البشدرى الكردى، أخذ العلم عن الخطي والمفتي الزهابي. ومن أجلهم العالم الذكي محمود

الديملاني الكردى، أخذ العلم عن الفاضل أبي بكر الاربلي. ومن أجلهم، العالم الكامل الأديب، الشيخ داود النقشبندي، وهو من خلفاء شيخنا الولي الكامل السيد عبد الغفور المشاهدى قدس سره، أخذ العلم عن عدة أعلام، منهم شيخنا العلامة عبد الرحمن الروزبهاني، ومنهم الفاضل الشريف عبد الله الحيدري، مفتي الشافعية ببغداد، ومنهم الفاضل أحمد العمر كنيدي وغيرهم. ومن أجلهم العالم الفاضل البيتواني الكردى، أخذ العلم عن العلامة الخطي وغيره، ومنهم الذكي محمد أمين الشيخاني، ومنهم العالم الصالح الشيخ طه السورسورى، والعالم الفاضل محمد الهرشمي. ومن أجلهم، العالم الفاضل الذكي الصالح النجيب، أسعد الحلي الكردى. ومن أجلهم، العالم الفاضل الذكي، أحمد الشيخ محمود الكردى. ومن أجلهم، العالم الفاضل، عبد الله الشيخ محمود الكردى. ومن أجلهم، العالم الفاضل، محمد البالكي وغير ذلك من الأفاضل، الذين أدركتهم، ممن يطول الكلام بذكرهم، ولنقتصر على هذا المقدار، وجميع إجازات هؤلاء العلماء وغيرهم من علماء العراق، يتصل بأجدادنا السادة الحيدرية، أما بالذات أو بالواسطة.

الباب السادس

في بيان أنهار بغداد التي في الجانب الشرقي منها والغربي

فأما التي في الجانب الغربي فمنها الكرخ، وهو نهر يجري بين المحال والدور، وكان يأخذ من نهر عيسى بن علي. ونهر عيسى، وهو يحمل من الفرات، كان عند فوهته قنطرة، وعلى جانبيه قرى وضياع كثير، حتى إذا انتهى النهر إلى المحول تفرعت منه الأنهار التي تخرق مدينة السلام، ثم يمر إلى قرية الباسرية، وعليه هناك قنطرة، ثم يمر إلى الرومية، وعليه هناك قنطرة تعرف بالرومية، ثم يقضي إلى الزياتين، وعليه هناك قنطرة، ثم يمر إلى موضع باعت الأشنان، وعليه هناك قنطرة، ثم ينتهي إلى موضع باعة الشوك، وعليه هناك قنطرة، ثم يصير إلى موضع باعة الرّمان، وعليه هناك قنطرة، ثم يصير إلى قنطرة البغيض، ثم يمر إلى قنطرة البستان، ثم إلى قنطرة المعيدي، ثم إلى قنطرة بني زريق، ثم يصب في دجلة.

ومن أنهار بغداد: الصرات، وهو نهر يأخذ من نهر عيسى فوق المحول، ويسقي ضياعاً كثيرة، وتتفرع منه أنهار كثيرة، إلى أن يصل بغداد، فيمر بقنطرة العباس، ثم يمر بقنطرة الصينيات، ثم يمر بقنطرة رحا البطريق، وهي قنطرة الزبد، ثم يمر بالقنطرة العتيقة، ثم بالقنطرة الجديدة، ثم يصب في دجلة. ويحمل من الصرات نهر يقال له الخندق، يدور حول سور مدينة السلام، مما يلي الحربية إلى أن يصل إلى باب الأنبار، وهناك عليه قنطرة، ثم يمر بباب الحديد، وعليه هناك قنطرة، ثم يمر بوسط قطيعة أم جعفر، ويصب في دجلة. ويحمل من نهر عيسى نهر يُقال له كرخايا، أوله تحت المحول، ويمر في وسط طسوج بادوريا، وتتفرع منه أنهار كثيرة، تنبت في ضياع على جانبيه إلى أن يدخل بغداد

من موضع يُقال له أبو قبيصة. ويمر إلى قنطرة قطيعة اليهود. ثم إلى درب الحجارة. وقنطرة البيمارستان. وباب المحول ويتفرع منها أنهار الكرخ كلها.

فمن أنهار الكرخ. نهر يُقال له نهر رزين. يؤخذ في ريض حميد. فيدور فيه ثم ينتهي إلى سويقة أبي الورد. ثم يمر إلى بركة زلزل. فيدور فيها. ثم يمضي إلى باب طاق الحرابي. ثم يصب في الصراة أسفل من القنطرة الجديدة. ويحمل من نهر باب سويقة أبي الورد نهر يعبر منه على عبارة على القنطرة العتيقة. ويمر إلى شارع باب الكوفة. فيدخل من هناك إلى مدينة المنصور. ويمر النهر من باب الكوفة إلى شارع القحاطبة. ثم إلى باب الشام. ويمر في شارع الجسر إلى الزبيدية. ثم يمر نهر كرخايا من قنطرة البيمارستان. فإذا صار إلى الدرابات سمي هناك إلى موضع يعرف بالواسطين. ثم إلى موضع يسمى الخفقة. فيحمل منه هناك نهر البزارين. فيخرج في شارع المنصور. ثم يمر إلى دار كعب. ثم يخرج إلى باب الكرخ. ثم يدخل البزارين. ثم يمر إلى الخرازين. ويدخل في أصحاب الصابون. ثم يصب في دجلة. ثم يمر النهر الكبير من الخفقة إلى طرف مربعة الزيات. فيقطف منه هناك نهر يُقال له نهر الدجاج. فيأخذ إلى أصحاب القصب. وشارع القيارين. ثم يصب في دجلة عند سوق الطعام. ويمر النهر الكبير من مربعة الزيات إلى دوارة الحمار. فيقطف منه هناك نهر يُقال له نهر قطيعة الكلاب. حتى يصب تحت قنطرة الشوك في نهر عيسى. ويمر النهر الكبير من دوارة الحمار إلى موضع يُقال له مربعة صالح. فيقطف منه هناك نهر يُقال له نهر القلابين. ثم يمر إلى السواقين. ثم إلى أصحاب القصب ويصب في نهر الدجاج. فيصيران نهراً واحداً. ويمر النهر الكبير من مربعة صالح إلى موضع يعرف بنهر طابق. ثم يصب في نهر عيسى عند دار البطيخ. فهذه أنهار الكرخ.

وأما أنهار الحربية. فمنها نهر يحمل من دجيل. يُقال له نهر بطاطيا. أوله عند أسفل فوهة دجيل بست فراسخ. يسقي ضياعاً وقرى كثيرة في وسط مسكن.

ويحمل منه نهر أول أسفل جسر بطاطبا بشيء يسير، ويجيء نحو مدينة السلام فيمر على عبارة قنطرة باب السلام، ثم يدخل بغداد، فيمر في شارع الأنبار وإلى شارع الكبش. ويحمل من نهر بطاطبا نهر أسفل من الأول، يجيء نحو بغداد، فيمر في شارع الأنبار وإلى شارع الكبش. ويحمل من نهر بطاطبا نهر أسفل من الأول يجيء نحو بغداد، فيمر على عبارة يُقال لها الكرخ، بين باب حرب وباب الحديد، فيدخل بغداد من هناك، ويمر في شارع دجيل إلى مربعة الفرس. فيحمل هناك منه نهر، ويمر النهر الكبير من مربعة الفرس إلى قنطرة أبي الجوز، فيحمل منه من هناك نهر إلى كتاب اليتامى، وإلى مربعة شبيب، ويصب في نهر الشارع، ويمر النهر الكبير في قنطرة أبي الجوز إلى الشارع، وقصر هاني، ثم إلى البستان، ويصب في النهر الذي يمر في شارع القحطانية. ويمر من نهر بطاطبا نهر أوله أسفل من قناة الكرخ، يجيء بغداد، ويمر على عبارة قنطرة باب حرب، فيدخل من هناك في وسط الشارع، باب حرب، ثم يجيء إلى مربعة أبي الفضل العباس، ثم إلى مربعة شبيب، ثم إلى باب الشام، فيصب في نهر باب الشام، وهذه الأنهار كلها مكشوفة إلا التي في الحربية، فإنها قنوات تحت الأرض واوائلها مكشوف.

أقول: وبغداد المذكورة كانت في الجانب الغربي من الرصافة، وما بقي منها الآن إلا القليل بالنسبة إلى القديم، وقد أنمحت آثارها القديمة، وما سبق من محلة الأنبار محاليل بغداد القديمة فهو في عصرنا محلة من محاليل قصبة موسى الكاظم رضي الله تعالى عنه، بينها وبين الجانب الغربي الموجود الآن صحراء مسافة نحو ساعة، ولكن في تلك الصحراء بساتين. والجانب الغربي الموجود الآن ممتد على شاطيء دجلة، بعضه الكرخ وبعضه الكريمات، وما بعدها الكرادة مشتملة على بساتين كثيرة، وكانت في الأصل من بغداد. واكثر الأنهار السابقة التي كانت تجري في بغداد، وقد صارت اليوم مقاطيع ومزارع، وبعض الأنهار جارية وبعضها مندرسة، وقد تبدلت اسماؤها في عصرنا.

ومن الأنهار الموجودة الآن في الجانب الغربي المحمودية، والاسكندرية، والرضوانية، وأبو غريب، والدجيل، والمسيب. وأنهار الجانب الغربي الموجودة الآن كثيرة، يشق عدها وغير ذلك من المقاطيع العظيمة، ولاحاجة لنا بذكرها، لأنها معلومة وإنما الغرض بيان الأنهار القديمة.

وأما الأنهار التي في الجانب الشرقي فمنها نهر موسى، يأخذ من نهر بين إلى أن يصل إلى قصر المعتضد بالله المعروف بالثريا (لعلها الثريا)، فيدخل القصر ويدور فيه، ويخرج منه ويصير إلى موضع يُقال له مقسم الماء. فينقسم هناك ثلاثة أنهار، يمر الأول إلى باب سوق الدواب، ثم إلى دار البانوجة (البانوقة)، ويفني هناك، ويدخل بعضه إلى العلافي، فينصب في نهر حضرة المعتضد، ويمر شيء منه إلى باب سوق الغنم، ثم إلى خندق العباس بباب المخرم، ويمر في دجلة. ويمر نهر موسى أيضاً إلى قنطرة الأنصار، فيحمل منه هناك ثلاثة أنهار، يصب أحدهما في حوض الأنصار، والثاني في حوض هيلانة، والثالث في حوض. ويمر نهر موسى أيضاً إلى قصر المعتصم بالله، فيحمل منه هناك نهر يمر إلى سوق العطش في وسط شارع كرم العرس، ويصب في دار علي بن محمد الغر أب الوزير، ويفنى هناك. ويمر نهر موسى أيضاً ملاصقاً لقصر المعتصم، إلى أن يخرج إلى شارع عمر الرومي، ثم يدخل بستان الزاهر ويسقيه، ويصب في دجلة أسفل البستان. ثم يمر النهر الثاني من المقسم إلى باب بيرز، فيدخل البلد من هناك، ويسمى نهر معلى، ويمر بين الدور، ثم يدخل قصر الخلافة المسمى بالفردوس، فيدور فيه ويصب في دجلة. ويمر النهر الثالث من المقسم إلى باب قطيعة موشجير، ثم يدخل إلىالقصر الحسني، فيدور فيه ثم يصب في دجلة.

قال النويري في التاريخ: ويحمل من نهر الخالص نهر يُقال له نهر الفضل، إلى أن ينتهي إلى باب الشماسية، فيأخذ منه نهر يُقال له نهر المهدي، ويدخل في المدينة في الشارع المعروف بشارع المهدي، ثم يجيء إلى قنطرة البردان، ويدخل

دار الروميين، ويخرج إلى سويقة نصر بن مالك، ثم يدخل الرصافة، ويمر في المسجد الجامع إلى بستان حفص، ويصب في بركة في جوف قصر الرصافة. ويحمل من هذا النهر نهراً أوله في سويقة نصر، ثم وسط شارع باب خراسان إلى أن يصب في نهر الفضل بباب خراسان. فهذه من جملة أنهار الجانب الشرقي القديمة.

فأقول: وأما في عصرنا هذا فليس في الجانب الشرقي من تلك الأنهار، الداخلة في البلد القديمة شيء سوى نهر الخالص، وهو نهر عظيم تخرج منه أنهار كثيرة بعيدة عن بغداد، مقدار سبع ساعات، حوله قرى كثيرة ذات نخيل وأشجار وبساتين كثيرة، وهو مقاطعة جسيمة. ومن الأنهار الموجودة الآن في الجانب الشرقي نهر ديالى، وهو نهر عظيم يخرج منه نهر الخالص، ونهر خريسان، وحول نهر خريسان قرى وأنهار كثيرة، ونهر خريسان مقاطعة جسيمة. ومن الأنهار الموجودة الآن في الجانب الشرقي نهر مهروت، وهو مقاطعة جسيمة، وشهربان والهارونية ونهر بندنيج ونارين وغيرهما.

وأما نهر شروين فقد أحياه جدي العلامة الشريف أسعد الحيدري مفتي بغداد، بماله ورجاله في أيام الوزير العلامة داود باشا[1] بعد أن كان مندرساً مدة طويلة، وصار مقاطعة جسيمة، وكان في تصرفنا إلى الطاعون[2] ثم غصبه منا علي رضا باشا والي بغداد ، وهو موجود إلى الآن، إلا انه بعد غصبه منا آل إلى الخراب، لأن منفعته ليست كالأول.

هذا ما وقفت عليه من أحوال بغداد مدينة السلام.

---

[1] تولى بغداد من سنة1232-1244هـ 1817-1828م

[2] الدي وقع سنة 1241هـ (1831م)

أحوال البصرة

الباب الاول

في بيان مدينة البصرة القديمة والجديدة ومسافتها وبنائها وبانيها وبعض أحوالها

قال بعض المؤرخين: بناها المسلمون على عهد الصحابة رضي الله عنهم، في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم خطها وبناها، وساق إليها سبعين ألف بيت من أشراف العرب، من سكان البادية، وأسكنهم فيها. وهي بلدة عظيمة عامرة، قرب البحر، كثيرة النخيل والاشجار والأنهار، ملحة الماء، سبخة التراب. كان فيها خلق لا يحصي عددهم إلا الله تعالى. وأحصى منْ كان فيها من المساكن، فكان مائة ألف وستون ألف، وأحصيت مساجدها، فكانت مائة وسبعة عشر ألف، وفيها نخيل وبساتين متصلة نيف وخمسون فرسخاً، كأنها غرست في يوم واحد. وأحصيت أنهارها فكانت مائة وعشرين الفاً، منها ما يجري فيه الزورق. ومن عجائبها، أنك لو التمست ذبابة واحدة على رطبها في البساتين، أو على معاصرها ما وجدتها. وكذلك الغربان، لا توجد فيها، فلا تجد غراباً ساقطاً على نخلة من نخيلها، في جميع الدهر. وإني قد أمعنت النظر حين خروجي إلى الجنوب، وقت التمر، فلم أجد ذباباً ولا غراباً، وهذا من عجائب الأمور، وهو من لطف الله تعالى، ولولا لطفه لتساقطت ثمرات النخيل بنقر الغربان، لأن تمر البصرة مع كثرته التي لا تحصى سريع السقوط.

وذكر بعضهم أن ذلك لطلسم عليها، ولا يبعد. وكان فيها جامع عظيم علق على جداره سبعون ألف حلقة من حديد، لربط خيل منْ يدخل الجامع من أشراف العرب وأكابر الناس والواردين من النواحي للاستفادة، وآثاره موجودة،

وفيه كان يجلس الخليل وسيبويه وحسن البصري وابن سيرين وحماد، وأمثالهم من الأئمة العظام لإفادة العلم. وكان فيها من العلماء، وأهل الفضل، والمجتهدين، والتجار، والصنائع، والعمارة، والاموال ما لا تمكن الاحاطة به. وهي من أعظم بلاد الإسلام، بل لم يخلق مثلها في البلاد، وسكانها لا يحتاجون إلى ركوب الخيل، إذا ساروا إلى الجنوب وما حاذاه من النواحي، لانهم يركبون الزورق ويسيرون في الأنهار، ومن فوقهم الاشجار مظلة، وهو من عجائب الدنيا. وإني قد رأيت أكثر البلاد كمصر والشام وسائر البلاد العربية والرومية فلم أر بلدة مثل البصرة، ويالها من بلدة يتحير الناظر من عجائب ما فيها من البساتين والأنهار (وما راء كمن سمعا).

وهي بندر بلاد الهند، ومعدن التجار والعلوم، ومنشأ المجتهدين الأعلام، كامثال ابن سيرين وحسن البصري وحماد والخليل ويونس وسيبويه والاخفش وغيرهم، من الفقهاء والمفسرين وأهل العربية والزهاد والصحابة وكبار التابعين رضي الله عنهم، ممن لا يحصى عددهم، وكانت تسمى خزانة العرب وقبة الاسلام، كما كانت الكوفة تسمى قبة الإسلام.

وكان فيها نهر عظيم يجري في وسطها، حفره عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يسمى نهر عمر، ورسومه موجودة. وكانت في أيام العباسيين في غاية العمارة، وحاصرها أصحاب نافع بن الأزرق ونهبوها، وأخرجوا كثيراً من أهلها، ثم حاصرها المهلب، وأخرج بقية أهلها منها، وهزمهم إلى الفرات، ثم إلى الأهواز، ثم إلى فارس ثم إلى كرمان. ويحكى أنهم عادوا إليها، ولكن خرب بعضها، ثم خربت بالطواعين، وكان خرابها سنة سبعمائة وواحدة من الهجرة النبوية. وطولها مقدار ست ساعات، وعرضها مقدار ثلاث ساعات، ورسومها باقية، ودفن فيها من الصحابة رضي الله تعالى عنهم خلق كثير، منهم: الزبير بن العوام، وطلحة، وأنس بن مالك، وعتبة. ومن التابعين رضي الله عنهم كثير،

منهم: حسن البصري، وابن سيرين، وحماد ممن لا يحصى عددهم. وقد زرت هذه المشاهد، وآثار البلدة موجودة، وهذه هي البصرة القديمة.

وأما البصرة الجديدة، فهي بعيدة عن القديمة مقدار ساعتين. ومقدار طول ما حول سورها ساعتان ونصف، وقد خرب اكثرها، ولم يبق إلا نبذة قليلة خربتها الطواعين. وكانت غاية عمارة الجديدة في أيام الوزير، الكامل العاقل الحادي عشر، سليمان باشا والي بغداد المشهور بالكبير رحمه الله تعالى. فإنه قبل وزارته كان متصرفاً في البصرة، فبسط فيها بساط العدل، وكذا في بغداد، فحكم في العراق أربعاً وعشرين سنة، وعمر البلاد، وكثرت العلماء، والتجار، والأموال، والحرث، والعمارة. والأمن في أيام دولته بحيث صارت بغداد، وما حولها كحالها في أيام هارون الرشيد (شكر الله سعيه).

وبعد وفاته هاجت الفتن في العراق، فلم يستقر وزير في بغداد مدة، بل كان بعضهم يقتل بعضاً إلى أن ولي الوزير، العلامة الكامل المهاب، داود باشا رحمه الله تعالى، فحكم فيها خمس عشرة سنة، وقتل كثيراً من اهل الفساد، فأستقر أمره، وزادت بغداد في وقته علماً وفضلا وعمارة. وكان كثير الاحترام لأهل العلم، على سيرة المرحوم سليمان باشا المشار إليه. إلا أنه في آخر أيامه إزداد طمعه في أموال الرعايا، وساءت سيرته معهم. وأما عصيانه على الدولة العلية، فلم يكن حقيقة، بل من الحاح الدفتردار، الذي ورد إليه من الدولة العلية، فأنه طلب الخروج من بغداد إلى الدولة العلية فأبى الدفتردار، وطلب قتله وعالجه أياماً على الخروج، فلم يستقر رأي الدفتردار إلا على قتله، فأضطر إلى قتل الدفتردار، فقتله. ومع ذلك فله آثار حميدة، وعمارات عجيبة، بنى جوامع ومساجد ومدارس كثيرة، وجعل عليها اوقافاً كثيرة. وكان له على أبي وجدي من الأيادي والنعم ما لا يحصى، رحمه الله تعالى رحمة الأبرار، وأسكنه الجنة دار القرار.

ثم صار، الكامل الفاضل، عبد الله أغا متصرف البصرة، بعد الوزير المشير سليمان باشا رحمه الله تعالى، فأنه لما ولي وزارة بغداد جعل الآغا المشار إليه متصرفاً في البصرة، فأحسن السيرة فيها، وسعى في بقاء عمارتها، وعامل أهلها بأحسن المعاملة على سيرة الباشا المشار إليه. وبقيت عمارة البصرة الجديدة إلى أيام المرحوم داود باشا، ثم خربت بالطاعون، وصار أكثرها بلاقع، ولم يأت إلى البصرة متصرف يقوم بأعباء عمارتها، بعد المرحوم سليمان باشا، سوى عبد الله أغا المشار إليه رحمه الله تعالى.

وفي سنة ألف وثمانية وسبعين دخلت البصرة في تصرف دولة آل عثمان، أرسل السلطان محمد وزيره قره مصطفى باشا فأخذها في تلك السنة، من بعض أمراء البصرة، ثم تغلب عليها فرح بن مطلب صاحب الجزيرة، فتوجهت إليه عساكر دولة آل عثمان، فأخرجوه منها، وملكوا البصرة في سنة أحدى عشرة ومائة وألف.

ولخرابها أسباب، منها الطاعون وخامة الهواء الحاصلة من إنكسار سد الجزائر، وإحاطة الماء بها، ولكن هواءها قد أعتدل الآن، وقلت أمراضها، وصح مزاجها، ولم اقف على سببه. ومنها كثرة المظالم فيها، وأهلها في غاية السكانة، والبلاهة بمنزلة الأنعام. توارد كثير من المتصرفين إلى البصرة وظلموا أهلها، وأخذوا منهم أموالاً كثيرة لا تحصى، ولا سيما الملعون سليمان بك، ولم يشتك أحد منهم حاله إلى والي بغداد، مع كثرة المظالم عليهم، بحيث بلغ الجور عليهم عنان السماء، على ماتواترت بذلك الأخبار.

وأهل البصرة والجنوب من أهل السنّة والجماعة، على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه. وأما سكنة شط العرب فهم رفضة. والرفضة الذين في البصرة ليسوا من أهل البصرة، بل من العجم والبحرين وبعض أهل البادية من شط العرب.

وغيرهم ممن ترفض، فأن كل بصري الأصل سنٌي، وكذا كل جنوبي سني. وترفض أهل شط العرب، وغيرهم من نواحي البصرة، إنما هو لعدم العلماء في البصرة ونواحيها.

والبصرة بعد أن كانت دار العلم ومعدن المجتهدين والفضلاء، وكانت أقوال البصريين مرجحة على اقوال الكوفيين، صارت اليوم دار الجهل، فأنه لا يوجد فيها في عصرنا هذا عالم، ولا طالب يقرأ الآجرومية أصلا، وليس فيها من له قابلية التعلم، لغلبة البلادة على أهلها، سوى بعض التجار من آل زهير ونجد، فأن فيهم فطنة وذكاءاً وحاذقاً، فسبحان الذي يغير العالم ولا يتغير. وقد بعدوا عن التمدن، غاية البعد، إلا البعض من ذكرنا، ممن سافر إلى البلاد ورأى الناس. وهم محتاجون إلى التعليم والتربية، وإلى سوق العلماء، وبناء المدارس والمكاتب، وبث الصنايع والمعارف فيهم.

وأما الجنوب، ففيه بعض منْ يقرأ مقداراً من فقه الشافعية، ولذا لم تعترهم شائبة الرفض، بل هم أهل ديانة وكرم ومكانة. وأما قصبة سيدنا الزبير رضي الله عنه، قرب البصرة، وهي في الاصل من محاليل البصرة القديمة، فأهلها كلهم من أهل السنٍّة والجماعة، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه، وفيهم بعض علماء الحنابلة، وكثير من طلبة الفقه على مذهب ابن حنبل، من ذوي الفهم والذكاء، ولهم الصلابة التامة في مثل أهل السنٍّة والجماعة والديانة، وملازمة الجماعات والعبادات والصناعة، ومع ذلك فهم من أهل الشجاعة والإقدام، وكلهم من نجد ذوي البأس الشديد، الذي ذكره الله في كلامه القديم.

وبالجملة، أن أهل الجنوب من أهل البصرة من أكرم الناس، ومن ذوي الطبائع السليمة والأخلاق السهلة الأنيسة، الغريب لديهم مكرم والنزيل عندهم محترم. امارة النجابة العربية عليهم ظاهرة، ودلائل الشيم العربية عليهم باهرة،

ان أُوذوا تحملوا، وأن كلفوا بما لا طاقة لهم به قبلـوا، وأن غُـدروا سـامحوا، وأن ظلموا سكتوا، الإحتيال لديهم مفقود، وصفاء الخاطر فيهم موجود. وإني قـد درتُ أكثر البلاد المحروسة، ووقفتُ على محالها المندرسة والمأنوسـة، فلـم أجـد إناسـاً كالجنوب من أهل البصرة في تلك الطريقة، فهذا حال من هو من أهلهـا لا مجـازاً بل على الحقيقة، إلا أنها قد أستولى عليها الخراب كما ذكرنا، فعـادت بلاقـع، وسكنها كثير من لئام المواقـع، ولم أر بلـدة ولا قريـة بمثابـة البصـرة، في خـراب دورها، وتسلط الأجانب عليها، وعلى أهلها، وفي عدم أهل العلم فيهـا، وإنهـدام جوامعها ومدارسها. بعد أن كانت معدن علـم الدنيـا، فيالهـا مـن مصيبـة يحـزن عليها المسلمون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد زاد في خرابها متصرفها سليمان بك، فأنه ظلم أهلها، وأخـذ منهـم مـا لا تحصيه الأقلام، وسرق أموال العلية، وبـاع كثـيراً مـن أمـلاك الدولـة العليـة، إلى الأهالي والأعاجم، ودمر الخزينة، ولعب بالبصرة لعب الأولاد بالطين. وقد عرضت أحواله إلى تقي الدين باشا والي بغداد سابقاً، فورد الأمر بـالامتزاج معـه، وعـرض بعض الناس أحواله إلى نامق باشا فلم يفد ايضاً.

هـذا، والبسـاتين الموجـودة في البصـرة ونواحيهـا، ذات النخيـل والاشـجار والأنهار، حدها من القرنة إلى رأس البحر، المسمى بالفاو، ويبلـغ مقـدار ثلاثـين ساعة بسير الفارس. أما الماشي فالمسـافة بالنسـبة إليـه أكـثر، والفرج بـين ذلـك الخالية عن النخيل ثلاثة يسيرة من البصرة إلى الدواسر، ومـن القرنـة إلى الكـوت الفرنكي أكثر، ولكنها بالنسبة إلى المتصلة، بعضها ببعض، مقـدار عشـرين سـاعة طولا على طرفي شط العرب، وأمـا عرضهـا ففـي الجنـوب يبلـغ أكـثر مـن ثـلاث ساعات، وهي ذات نخيل وأشجار وفاكه لا تحصى كـثرة. وحـد البسـاتين شـرقاً فهو من اكتيبان سبع قصبات، وجنوباً إلى الفـاو، وشمـالاً إلى العنبري. هـذا وأن الكويت من ملحقات البصرة، فهي منها مسيرة ستة وعشرين ساعة، وقد امتـلأت

اليوم من التجار النجادة المسافرين إلى الهند، وصارت محل التجارة الوفية. وفيها خلق كثير وسفن بحرية كثيرة. ولا يزالون يترددون على البصرة، ولبعضهم املاك في البصرة، وكلهم من أهل السنّة والجماعة، بعضهم شافعية وبعضهم مالكية وبعضهم حنبلية، وهم من نجد أجتمعوا هناك، وأرضها سبخة لا أنهار فيها ولا أشجار، وإنما يشربون ماء المطر، وهي على ساحل البحر، وأهلها أهل ثروة تامة. وفيها بعض أهل العلم من الشافعية والحنبلية، وليس فيها شيء من الرسومات سوى الكمرك لشيخهم. ومع ذلك فلشيخهم وظيفة سنوية، مقدار مائة كارة تمر من الدولة العلية، وهم مع كونهم تبعة الدولة العلية، ومن ملحقات البصرة بعيدون عن أحكام السياسة، ولكن لا فائدة في بلدهم سوى التجارة، وإجتماعهم هناك على صلاح.

الباب الثاني

في بيان بيوت البصرة الرفيعة

فمن بيوتها الرفيعة العماد بيت المفتي الحلي، وهو بيت فضل ومجد قديم، وقد خمدت نارهم، ولم يبق منهم أحد وهذه دورهم بلاقع. وكان إفتاء الحنفية منحصراً في بيتهم أباً عن جد، مقدار ثلاثمائة سنة، فأنقرضوا وعادت أموالهم وأملاكهم العظيمة لبيت المال. إلا أن نقيب البصرة عبد الرحمن وأخاه محمد سعيد استوليا عليها، لأنهما من أفاضلها وأشرافها وساداتها. ومنها بيت الرفاعي، وهو بيت مشيخة وشرف وفضل، وقد نشأ فيهم رجال أدركتُ منهم، الكامل الكريم الصالح، الشيخ رجب نقيب البصرة. وذلك حين قدومه إلى بغداد، ونزوله في بيتنا، أيام وزارة العلامة داود باشا، وانا صغير السن، وبيتهم بيت خير وطريقة. وكان الشيخ المذكور من ذوي الخير والجاه الكبير، وصاحب الحلقة، وكان يطعم الطعام للفقراء، ويقرى الضيف، وهو من خيار الناس رحمه الله تعالى، وقد بقي من هذا البيت عدة اناس، منهم في البصرة، ومنهم في الجنوب، ومنهم في الكويت.

ومن البيوت الرفيعة العماد بيت الزهير، وهو بيت مجد وتجارة ورياسة وخير وصدقات، ولهم الثروة التامة والتقدم والجاه، كابراً عن كابر، وكانت لاسلافهم الصولة في البصرة، ولهم وقائع عظيمة مع عشيرة كعب، حيث أن كعباً هجموا على نهب البصرة، بعد عزل داود باشا عن بغداد، وقبل ورود علي رضا باشا إليها، فقاتلهم آل زهير مع عشيرة النجادة، ودمروهم ومنعوهم عن البصرة، وهذه همة عالية، وخدمة صادقة للدولة العلية.

وقد نشأ فيهم رجال تقاة كبار، منهم الشيخ علي، وكان أحنف عصره، في العقل والرأي والهمة، من دهاة العرب، وكذلك أخوته: الشيخ عبد الرزاق، وعبد العزيز، وعيسى، وعبد الوهاب، وعبد اللطيف وغيرهم. فهؤلاء كلهم من الرجال الدهاة، ولهم الجاه والحيثية التامة، ولهم الخدم والتعلقات الوافرة، وكانت لهم عطايا كثيرة، وكان أبوهم الحاج يوسف من أكابر الناس وخيارهم، ذا تقوى وصدقات، وأخوه الحاج سليمان من الكاملين الابرار، وكان متوطناً في حلب، وقد بنى جامعاً قرب بيته، وشقيقه يوسف المشار إليه كان في قصبة سيدنا الزبير رضي الله عنه، وله بيت في البصرة أيضاً، وكانا خليطين، ثم بعد وفاة الشيخ علي المذكور استولى عيسى شيخ المنتفك على البصرة، وقتل منهم الشيخ عبد الرزاق، وعبد الوهاب، وخالد، وأحمد، ومصطفى ظلماً، وأخذ أموالهم، وغصب أملاكهم، وجعل بيوتهم خاوية، وبالها من حادثة تضيق منها صدور المسلمين من ذوي المروءة.

وتشتت أولادهم في البلدان، وأنطفت نارهم مدة قليلة، ثم أتى عبد اللطيف الزهير من حلب إلى بغداد فحصل له الجاه، وتقلد رياسة التجارة ببغداد. ثم قام منهم بالبصرة الآن محمد جلبي بن عثمان من آل زهير باعباء بيتهم القديم، وجمع الأولاد وآواهم، وسعى في عمارة الآثار القديمة، فوفق لذلك فأحيا ما أندرس من آثار آبائهم، وعاد بهم كالأول، لأن أسلافهم من الأخيار، والله يستحي أن ينزع السر من أهله. ومحمد جلبي المذكور من دهاة الرجال، من ذوي الصدق والهمة والخير، كان أحنف عصره رأياً وادباً ووقاراً وهمة، وبقي منهم أيضاً الشيخ سليمان ابن الشيخ عبد الرزاق المذكور، شيخ النجادة في قصبة الزبير رضي الله عنه، وله الأخلاق الكريمة، ذو خير ووفاء وأدب وكرم. وهو من أكابر العرب يقرى الضيف، ويبذل الطعام لكا وارد، بشوش كريم وفي حليم. ومنهم، الرشيد الكامل الهميم المنطيق، قاسم جلبي، نجل محمد جلبي المشار إليه، وهو من

الأفراد في الهمة والرشادة والذكاء. وبقي منهم أيضاً عدة أخيار وأصلهم من حرب، على ما حدثني الصاحب النجيب محمد العبد الوهاب النجدي، من العارض موضع في نجد، ثم سكنوا قصبة الزبير والبصرة، وسكن بعضهم ببغداد، وبعضهم في حلب، ولهم الاعتبار والشهرة في جميع هذه المواضع، ولنا مع هذا البيت حقوق عظيمة موروثة من الآباء.

ومن البيوت الرفيعة في البصرة بيت الرديني، وهو بيت شرف وسيادة وفضل ومجد، ونشأ فيهم رجال كرام، منهم، الكامل الفاضل، السيد محمد الرديني، فأنه بنى مدرسة، فوقف عليها كتباً كثيرة من كل فن، تبلغ مقدار ثلاثة آلاف فأكثر، وقد أندرست المدرسة وتفرقت الكتب بزوال العلم من البصرة. وبقي منهم عدة أخيار كرام، وأصلح من بقي منهم السيد يعقوب. ومنها بيت الكواز، وهو بيت مجد رفيع وفضل وخير وافر، ونشأ فيهم عدة رجال أخيار كرام، كامثال الشيخ أحمد، والشيخ درويش. وكانا من أكابر الناس، من ذوي الخير والجاه والمال الوافر والصدقات، وكان جدهم الأعلى الشيخ أنس من الأكابر، وهو من أولاد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وبقي منهم بعض الناس. وقد نزل جدي، العلامة الشريف، أسعد الحيدري مفتي الحنفية ببغداد في بيت الشيخ أحمد، فأحترمه وأجله وخدمه، بما يتحير به الناظر على ما ذكره الفاضل عثمان بن سند، في تراجم علماء بغداد، ولنا معهم أيضاً حقوق موروثة عن الآباء، حيث أن تعلقنا بالبصرة قديم. لأن جزية البصرة كانت لأجدادنا من القديم.

ومنها بيت السادة الطباطبائية، وهو بيت علم وصدق وسيادة وأدب، قد شهدت بصحة سيادتهم الطبقات، وكتب التواريخ كابن خلكان وغيرهم. وجدهم الأعلى الشريف إبراهيم طباطبا، كان نقيب الأشراف بمصر، وكان من أكابر أهل عصره، ومن أجل الاشراف، وكان الثغ يسمي القبا (طبا)، فقال لغلامه طبا طبا، لما سأله غلامه عن القباء، الذي أمر باتيانه على ما في تاريخ ابن خلكان. وهو

بيت عظيم الشرف والفضل، وقد نشأ فيهم عدة رجال، منهم الفاضل الشريف السيد ياسين، والفاضل الشريف السيد عبد الجليل، وكانا من العلماء الفضلاء، ولهم النظم الفائق، ولكل منهما ديوان شعر رقيق، وقد رأيت ديوان السيد ياسين، وفيه من المباحث العلمية والأدبيات، ما يدل على فضله رحمه الله تعالى.

وقد بقي اناس أخيار بالبصرة والكويت، وممن بقي منهم بالكويت الفاضل الفقيه الصالح التقي السيد أحمد، وهو من أشراف العلماء، وله الاطلاع التام على مذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه، يدرس بالكويت. وليس بالكويت ولابالبصرة ونواحيها أعلم منه في عصرنا هذا. وقد أجتمعت به حين قدومه إلى البصرة لزيارة بعض أقربائه، وتبركت بدعائه الشريف متع الله تلك البلاد بطول حياته. ومن أجل الفقهاء الذين أدركتهم في قصبة سيدنا الزبير رضي الله تعالى عنه، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، العالم الكامل المعمر الشيخ أحمد النجدي رحمه الله تعال.ى وكان يُعد من السلف الصالح منْ يُرجى دعاؤه، ولما ورد صاحب الدولة نامق باشا إلى الزبير أجله غاية الإجلال وطلب منه صالح الدعاء. ثم توفي وقام مقامه ولده الفقيه الصالح الشيخ محمد، مدة قليلة، فتوفي رحمه الله تعال.ى ولحق أباه وخلف ولده الذكي الصالح الشيخ عثمان، فشرع بعد وفاة أبيه في قراءة بعض كتب الحنابلة والعربية عليّ وفقه الله تعالى. ومن العلماء الموجودين في قصبة الزبير، المحدث الفقيه الصالح، الشيخ إبراهيم الغملاس(راجع كتابه "ولاة البصرة ومسلموها" المطبوع في هذه الدار) الحنبلي النجدي، وهو ممن لا تأخذه في الله لومة لائم. وفي قصبة الزبير جملة من أهل الفقه والصلاح من النجادة.

وأما البصرة ففيها كثير من الجهلة، وليس فيها منْ يعرف اسم العلم ولا رسمه، ومن البيوت الرفيعة القديمة بالبصرة بيت رزق، وهو بيت مجد وفضل وتجارة وخير. وكانت لهم الصدقات الكثيرة والآثار الحميدة والثروة التامة والعز

الكامل، وقد صارت ديارهم بلاقع، وبقي الكامل محمد من الأخيار في الكويت وأصلهم من نجد. ومنها بيت الحاج عبد الواحد، وهو بيت عز وتجارة وخير وثروة تامة، وبقي منهم أخيار، وهم من أبي الخصيب وأصلهم من بني خالد. ومنها بيت عبد الرزاق، وهو بيت مجد وعز وتجارة، وقد أنطفت نارهم بالبصرة، وبقي منهم الكامل النجيب محمد بن عبد اللطيف في الهند، وبعض الأخيار في الكويت وأصلهم من نجد.

ومنهم بيت جمال، وهو بيت مجد وخير وتجارة وعز، ولم يبق منهم أحد في البصرة، وسكن بعضهم بلدة مسقط. ومنهم بيت الفداغ، وهو بيت تجارة وثروة وعز وخير، وبقي منهم بعض الناس، وأصلهم من نجد وغير ذلك من البيوت القديمة، التي أندرست آثارها وأنطفت نارها. وأما التجار الموجودون في البصرة في عصرنا هذا، الذين توطنوا فيها، فمنهم، النجيب الأديب والكامل الذكي اللبيب، محمد بن عبد العزيز بن عبد الوهاب الرياضي النجدي، وهو من أكابر أهل نجد، وبيتهم في نجد من بيوت المجد الرفيعة الأصيلة، ولهم الحيثية التامة لدى آل سعود أمراء نجد. ومحمد المشار إليه من اكابر الناس أخلاقاً وذكاءاً وكرماً وفطنة، وبيته مأوى لأهل نجد وغيرهم. وقد صحبته فوجدت صحبته أرق من النسيم، وحصلت بيننا المودة التامة والألفة القلبية، وله بيت في البصرة، وبيت في الزبير، وبيت في الاحساء، ويتردد على بلاد الهند للتجارة، زاده الله تعالى عزاً ومالاً وعمراً.

وهو من عشيرة عائذ من الأزد من القحطانية، وهم بنو عائذ بن الأسود بن الجمر بن عمران بن عمرو مزيقيا ملك اليمن بن عامر ماء السماء، ملك اليمن الحميري. ومنهم فوزان النجدي، وهو من التجار الأخيار وأصله من عنزه، وهو من الثقات. ومنهم سالم البدر الكويتي، وهو من الثقات الأخيار، له من الثروة التامة والمراسلات إلى الهند وغيرها. ولأهل سواحل البحرين من مسقط والبحرين

والكويت وبر فارس وغيرها بالمراجعة والتردد إليه، ذو نفس كريمة ومعاملة حسنة، لم يزل بيته مأوى لكل وارد من البحر، وهو من أهل الكويت، وله أخ صالح من التجار في الكويت، يسمى سليمان البدر، وأصله من عشيرة يُقال لها جناعة، وهو من تحريف المولدين، والظاهر أنه قنعة، لأن عرب البادية في يومنا هذا يبدلون القاف جيما، وقنعة بطن من العدنانية، وهو بنو قنعة بن سبع بن بكر بن أشجع بن ليث بني غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان، بالعين المهملة بن مضر. وكان لاشجع المذكور من الولد بكر وسليم وعمر، ومنهم جعدة بن هبيرة الاشجعي الصحابي رضي الله عنه، وكانوا عرب المدينة النبوية، وكان سيدهم معقل بن سنان الصحابي.

قال في العبر: وليس الآن أحد منهم بنجد، إلا بقايا حول المدينة، وبالمغرب الاقصى، فهم حي عظيم يصفون مع عرب المعقل. وقد أوضحت هذا النسب لرفع شبه بعض من طعن فيه، لعدم الأطلاع على أنساب القبائل من عزو الناس إلى آبائهم. ومنهم إبراهيم المنديل النجدي، وهو من التجار ذو مكر وشيطنة وخدعة، يراسل إلى الهند، وله بيت في البصرة وبيت في الزبير، وهو من عشيرة الدوس من عشائر نجد، وهو مستحدث النعمة. ومنهم عبد العزيز الصالح النجدي، وهو كريم الأخلاق حسن الوفاق من التجار الخيار، ومن الثقات الاذكياء وله المراسلة إلى الهند وغيرها، ذو نفس كريمة لطيفة، وله أخ صالح يسمى عبد الرحمن في الكويت، وهو في بلدة تسمى مجمعة من بلاد نجد في العمار.

ومنهم عبد الله العودة النجدي، وهو من التجار الأخيار، من ذوي النجابة ذو ثروة تامة، وله مراسلة إلى الهند وغيرها، وأصله من عشيرة عنيزة.

ومنهم عبد اللطيف العون النجدي، وهو من التجار الأخيار ذوي الثروة، وله مراسلة إلى الهند وغيرها، وأصله من عشيرة عنيزة. ومنهم المانع النجدي، وهو من

التجار الأخيار، له مراسلة إلى الهند وغيرها ومنهم محمد الفارس النجدي، وهو رجل من الأخيار ذوي النجابة وتجارته إلى الهند، وأصله من بني حنيفة، ومسكنه في قصبة الزبير رضي الله تعالى عنه. ومنهم الحاج سليمان الخصيبي، وهو من التجار المراسلين إلى الهند، ولكنه مستحدث النعمة من أهل الثروة.

وأما بيت الحاج عبد الواحد فقد سبق بيان أصله، وهم من أكابر التجار من ذوي الثروة التامة، لهم المراسلة إلى بلاد الهند، ولهم أملاك جسيمة، وهم من أهل الخير، وكان والدهم عبد الواحد من أخيار الناس، وأخير أولاده النجيب الحاج محمود، ولهم بيت في البصرة، وبيت في أبي الخصيب. ومن التجار الأخيار محمد بن الحاج نعمة، وهو رجل من ذوي الحياء والصدق، له المراسلة إلى بلاد الهند، وله الثروة التامة والأملاك الجسيمة، وأصله من عشيرة كعب من أهل السنة والجماعة. واما محمد الياسين أمين النفوس فهو من أهالي أبي الخصيب، وله نفس كريمة، وأدب ولم يزل يقرى الضيف من كل جانب.

ومن التجار عبد الرحمن الرفاعي، وله مراسلة إلى الهند وغيرهم من التجار. وأهل البصرة وأكثرهم من النجادة. واما السيد عبد الرزاق مفتي البصرة فهو من أهل بغداد، من بيت يُقال لهم السادة من ذوي الطريقة القادرية، أنتقل هو وأبوه السيد عبد الرحمن وأخوه من بغداد إلى البصرة، منذ مدة تزيد على خمس وأربعين سنة.

الباب الثالث

في بيان أنهار البصرة

أنهار البصرة الموجودة في هذا العصر، الكبار المحصورة والصغار التي لا يحصى عددها، يجري فيها الماء من شط يُقال له شط العرب، وهو مجتمع دجلة والفرات، ويحصل لهذا الشط ولجميع الأنهار المد والجزر في اليوم والليلة مرتين، مرة في الليل ومرة في النهار.

وتختلف ساعات المد تقديماً وتأخيراً، والأنهار الكبار لم تزل مملوءة من الماء، إلا العشار فانه يخلو من الماء حالة الجزر. وأما الصغار فأنها خالية اثناء الجزر، فإذا حصل المد امتلأت الصغار، وازدادت الكبار التي تجري فيها السفن، وجميع الأنهار الكبار خارجة من شط العرب، وبعض الصغار وباقي الصغار من الكبار.

فأول الأنهار الكبار ابتداءاً من البصرة: نهر العشار المشهور، الداخل إلى البصرة، وهو نهر عظيم تجري فيه المراكب والسفن، وحوله بساتين كبيرة وبيوت، وهو من المحال الجسيمة، ومحل الحكومة على جانبه، وكذا سوق السيمر، وكثير من البيوت والقهاوي والخانات، وتجري منه أنهار كثيرة.

والثاني: نهر المناوي، وهو نهر عظيم، حوله بساتين كثيرة وبيوت، فيه محال العساكر البحرية، وتجري منه أنهار كثيرة.

والثالث (والرابع): نهران تابعان لنهر المناوي، يُقال لاحدهما (خورة) وللآخر (مويلح)، وحولهما بساتين كثيرة وتجري منهما أنهار كثيرة.

والخامس: نهر البراضعية الكبيرة، وهو نهر كبير حوله بساتين كثيرة، وتجري منه أنهار كثيرة.

والسادس: نهر الراضعية الصغيرة، وهو كبير حوله بساتين، وتجري منه أنهار كثيرة.

والسابع: نهر المحاويل، وهو ستة أنهار حولها بساتين كثيرة، وتجري منه أنهار كثيرة.

الثامن: نهر السراجي، وهو نهر عظيم، وهو أعظم المحال، وحوله بساتين كثيرة، وتجري منه أنهار كثيرة.

التاسع: نهر الفريج، وهو نهر كبير حوله بساتين كثيرة، وتجري منه أنهار كثيرة.

العاشر: نهر الوقف، وهو نهر كبير حوله بساتين كثيرة، وتجري منه أنهار كثيرة.

الحادي عشر: نهر الوقف أيضاً، وهو نهر كبير حوله بساتين كثيرة، وتجري منه أنهار كثيرة.

الثاني عشر: نهر المحولة، وهو نهر كبير حوله بساتين كثيرة، وتجري منه أنهار كثيرة.

الثالث عشر: فجة العرب، وهو سبعة أنهار كبار لها بساتين كثيرة، وتجري منها أنهار كثيرة.

الخامس عشر: فجة الحاج نعمة، وهو نهران كبيران حولهما بساتين كثيرة، وتجري منهما أنهار كثيرة.

السادس عشر: فجة ابن عامر، وهو نهر كبير حوله بساتين كثيرة، وتجري منه أنهار كثيرة.

السابع عشر: نهر يوسف، وهو من أعظم الأنهر والمحال حوله بساتين كثيرة، وتجري منه أنهار كثيرة.

الثامن عشر: نهر حمدان، وهو من أعظم الأنهر والمحال حوله بساتين كثيرة، وتجري منه أنهار كثيرة.

التاسع عشر: نهر اليهودي، وهو تسعة أنهار كبار حولها بساتين عظيمة كثيرة، وتجري منها أنهار كثيرة، وهو من أعظم الأنهار والمحال، ومن توالعه السبيليات، ولها نهر كبير حوله بساتين كثيرة.

العشرون: نهر خوز، بضم الخاء المعجمة وسكون الواو بعدها ازاء معجمة، وهو سبعة أنهر كبار حولها بساتين كثيرة، وتجري منها أنهار كثيرة. ومن توابعه نهر أبي مغيرة، وهو نهر كبير حوله بساتين كثيرة، وتجري منه أنهار كثيرة.

الحادي والعشرون: نهر أبي الخصيب، ويتفرع خمسة عشر نهراً كباراً، حولها بساتين عظيمة كثيرة، وتجري منها أنهار كثيرة، وهذا النهر أعظم الأنهار والمحال، وأعمرها وأرغبها، وفيه اناس كرام، وبعض طلبة العلم وبعض النقشبندية، وفيه عدة جوامع، وتقام فيه الجمعة والجماعة أكثر من سائر الجنوب. والأملاك فيه مرغوبة، وقيمتها أكثر من سائر الأملاك، وسكانه أهل ثروة ودولة، كبيت الحاج عبد الواحد، وهو من خيار البيوت على ما سبق بيانه عند عد بيوت البصرة. وأملاكهم مع كثرتها فهي عديمة النظير في العراق، ولهم المراسلة إلى بلاد الهند، وعندهم مركب بحري، وكان أبوهم الحاج عبد الواحد من خيار الناس وكرمائهم. وبالجملة، أن في أبي الخصيب عدة أشراف، وسادات

وطلبة علم، وتجار، وأهل املاك من ذوي الخير، وكلهم من خيار الناس، وكذا سائر الجنوب من الأخيار وأهل ديانة وخير مكارم أخلاق.

الثاني والعشرون: نهر أبي الفلوس، وهو نهر كبير حوله بساتين كثيرة، وتجري منه أنهار كثيرة، وهو من ملحقات أبي الخصيب.

الثالث والعشرون: نهر العامية، وهو نهر كبير حوله بساتين كثيرة، وتجري منه أنهار كثيرة.

الرابع والعشرون: نهر الفياضي، وهو نهر كبير حوله بساتين كثيرة، ويجري منه أنهار كثيرة.

الخامس والعشرون: نهر بلجان، وهو كبير حوله بساتين كثيرة، وتجري منه أنهار كثيرة.

السادس والعشرون: نهر الزين، وهو من العظام، وتجري منه أنهار كثيرة، وحولها بساتين كثيرة، وهو عبارة عن خمسة عشر نهراً، كلها مشحونة بالبساتين.

السابع والعشرون: نهر المطوعة، وهو نهران عظيمان حولهما بساتين كثيرة، وتجري منهما أنهار كثيرة.

الثامن والعشرون: نهر القطعة، وهو ثلاثة أنهر كبار تجري، منها أنهار كثيرة.

التاسع والعشرون: نهر خورة السيحان، وهو كبير تجري منه أنهار كثيرة، حولها بساتين كثيرة.

الثلاثون: الدواسر، وهو من المحال الجسيمة، وفيه بساتين كثيرة، ومزارع الرز، وأنهارها الكبار التي لها اكوات ثلاثة: أحدها الخست، وهو نهر السيبة، والثاني نهر كوت بندر، والثالث نهر كور الخليفة، فهذه الأنهار الكبار للدواسر.

وأما الأنهار الصغار الواقعة في الدواسر، فقد تبلغ ستين نهراً، منها نهر الشليشية، ونهر الجالي، ونهر الحايل، ونهر الحدة، ونهر قاع العنبر، ونهر الربضة، ونهر المجالدة، ونهر المحيلة، ونهر الخوص، ونهر الزبال، ونهر الشبيجي، ونهر الوقف، ونهر الديويب، ونهر المرابحي، ونهر خوز عباس، ونهر ابن جلاوي، ونهر الوقف أيضاً، ونهر باب الهوا، ونهر كوت الخليفة أيضاً، ونهر قاع محمد السلمان، ونهرا العشيرة والخشنام. وفي حوالي جميع هذه الأنهر بساتين كثيرة عظيمة، وهذه عدة أنهر الدواسر الكبار. وأما الجداول والسواقي الصغار، فتبلغ أكثر من مايتين، وطول الدواسر تقابل طول المقاطيع الجنوبية السبعة جميعاً. وأما ما وراء الدواسر فجزيرة الفداغية، ونهران وحولهما بساتين كثيرة، ودورة ابن إبراهيم، وهي عشرة أنهر كبار، حولها بساتين كبيرة، وهي من توابع الدواسر.

الحادي والثلاثون: نهر المخراق وراء الفداغية، وهو نهر يخرج إلى البادية، ليس في نواحيه نخيل وأشجار.

الثاني والثلاثون: نهر المعامر وراء المخراق، وهي من المحال الجسيمة، فيها خمسون نهراً كباراً، تجري من تحتها السواقي الكثيرة، حولها بساتين عظيمة جداً.

الثالث والثلاثون: الفاو، وهو من المحال الجسيمة، كثير البساتين والنخيل والأنهار، وكان من توابع المعامر، التي هي ملك النجيب راشد السعدون، والد النجيب الكريم ناصر باشا، فأكرمه راشد المشار إليه إلى شيخ الكويت، والآن

جميع الفاو في تصرف شيوخ الكويت، ويمتد الفاو إلى ساحل البحر، وفيه أكثر من خمسين نهراً كباراً، حولها البساتين الكثيرة العظيمة. وجميع ما ذكرنا من الأنهار إلى الفاو واقع في جنوب البصرة، إلا العشار فأنه يمر بها، إلا أن الجنوب، حسب عرف أهل البصرة، عبارة عن المحال السبعة، وهي: السراجي، ومهيجران، ويوسفان، وحمدان، واليهودي، ونهر خوز، وأبو الخصيب. وجميع هذه الأنهر المعدودة، من الجنوب وغيرها، مشتملة على قرى ذات مساجد، وأهلها من أهل السنّة والجماعة.

وأما الأنهار التي في جهة شرق شط العرب، فهي ثلاثة وسبعون نهراً عظاماً كباراً: نهر كتيبان، وهو من المحال الجسيمة، فيه عدة أنهار، وفيه بساتين عظيمة كثيرة جداً، ونهر أبي جلاب، وهو من التي يتفرع منها أنهار كثيرة، وحولها بساتين كثيرة، ونهر الشلة، وهو من الكبار التي يتفرع منها أنهار كثيرة، حولها بساتين كثيرة، ونهران كبيران، (يمران في) جزيرة الصقر وتسمى جزيرة العين، ويتشعب النهران المذكوران إلى أثني عشر نهراً، وحولها بساتين كثيرة. ونهر الخراب، وهو نهران كبيران يتفرع منهما أنهار، حولهما بساتين كثيرة. والنهر الدائر على المقاطعات الجسيمة، أعني الكباسي الكبير والكباسي الصغير والحوطة والريان، وكل من هذه المحال يشتمل على أنهار كثيرة وبساتين عظيمة.

ونهر حسن، وهو نهران كبيران يتفرع منهما أنهار، وحولهما بساتين كثيرة. ونهر كوت السادة، وهو ثلاثة أنهر كبار، حولها بساتين كثيرة. وكردلان، وهو أربعة أنهر كبار، حولها بساتين كثيرة. وتنومة نهران كبيران، وحولهما بساتين كثيرة. وكوت الجوع، أربعة أنهر كبار حولها بساتين كثيرة. ونهر كوت الباشا، وهو من الكبار، حوله بساتين كثيرة. وكوت ابن نعمة، وهو ثلاثة أنهر كبار، حولها بساتين كثيرة. وكوت زعير(قال صاحب الرياض أنه كوت زهير نسبة لعائلة آل زهير المشهورة بالبصرة) أربعة أنهر كبار، حولها بساتين كثيرة. وكوت الكوام،

والموحية خمسة أنهر كبار، حولها بساتين كثيرة. وكوت غضبان، وكوت الشيخ، والحبابة تسعة أنهر كبار، حولها بساتين كثيرة. ونهر جاسم، وهو عشرة أنهر كبار. ونهر الدعيجي، وهو من الكبار التي يتفرع منها أنهار، حوله بساتين كثيرة، ونهر البوري، وهو من الكبار التي يتفرع منها أنهار، وحوله بساتين كثيرة، وجزيرة البواريين اثنا عشر نهراً كباراً، حولها بساتين كثيرة. هذا، والعمارة في جهة الجنوب أكثر من غيرها.

وأما الأنهر التي في جهة الشمال فمنها نهر الخندق، وهو من الكبار التي يتفرع منها أنهار، حولها بساتين كثيرة. ونهر الرباط الصغير، وهو من الكبار، حوله بساتين كثيرة. والمطابيخ نهران كبيران، حولهما بساتين كثيرة. ونهر الجبيلة الصغيرة، وهو من الكبار، حوله بساتين كثيرة. وكوت الفرنكي، وهو ستة أنهر كبار، حولها بساتين كثيرة، وهو من المحال الجسيمة. نهر كوتة علي، وهو من الكبار حوله بساتين كثيرة. ونهر كوتة ماجد، وهو من الكبار، حوله بساتين كثيرة. ونهر العنبري، وهو من الكبار، حوله بساتين كثيرة. والهارثة، وهي من المحال الجسيمة، ذات الأنهار والبساتين الكثيرة، وهي من توابع أراضي المنتفق، إلا أنه لما كان لبعض أهل البصرة فيها أملاك ذكرناها، ويتصل بها الملك الذي تحت يد متصرف المنتفق، وهو ملك عظيم جسيم، مشتمل على بساتين لا تحصى، ومزارع لا تستقصى.

وأما الجزائر التي في وسط شط العرب، المشتملة على البساتين ومزارع الرز، فمنها المحمودية، وفيها بساتين، ومزارع، وأم الخصاصيف، وفيها مزارع الرز وبساتين، وأم الجبابي، وفيها بساتين ومزارع الرز، وأم الرصاص، وفيها مزارع الرز وغيره، والزيادية، وهي كبيرة جداً، وفيها بساتين ومزارع الرز، والفداغية، وفيها بساتين ومزارع الرز، وجزيرة العين، وفيها بساتين ومزارع الرز، والصالحية، وفيها بساتين ومزارع الرز والحنطة، والكليصاوية، وفيها مزارع

الحنطة وبعض الصيفيات، وجزيرة المحلة، وهي عظيمة، وفيها بساتين عظيمة ومزارع الرز. وجميع هذه الجزائر واقعة في شط البصرة.

وأستخلص جابر المرداو جزيرة المحلة من أملاك الدولة العلية، وتصرف بها من غير حق، لأنها واقعة في البصرة وقربها، وهي مقاطعة جسيمة، تبلغ قريباً من ألف كيس، وغفل عنها المتصرفون في البصرة.

واما الأنهر والجداول المتفرعة عن تلك الأنهر المذكورة، فتبلغ أكثر من عشرة آلاف نهر، والعشائر الساكنة في هذه المحال بين البساتين، لا يحصى عددها.

هذا، والبصرة ونواحيها من عجائب البلدان، التي لم يخلق مثلها في البلاد، في كثرة البساتين والأنهر كونها معدن التجارة، وبندر بلاد الهند، ومن أقوى أسباب عمارتها ترتيب الجريب، على أملاك أهاليها، لأن التزام محالها، أو أخذ الخمس منها قد أضر بأهلها ضرراً كلياً، لكثرة المظالم ولكون الخرص يوجب تأخير قص التمر وفساده، في غالب السنين فبوجب تأخير بيعه إلى أهل الموسم الواردين من اليمن، والسواحل وعمان وبر فارس والهند، فيلحقهم بذلك ضرر كلي، وأكثر أهل الموسم يذهبون إلى المحمرة ونواحيها، لشراء التمر. وبقي أهل البصرة في الحسرة والحيرة، كما شاهدت ذلك منهم، على أن في الخرص غدراً وظلماً يشق حمله، وقد تكاسلت أرباب الأملاك عن العمارة بسبب كثرة المظالم، وآلت محال البصرة إلى الخراب. ولو وضع عليها رسم الجريب لعادت عمارتها أضعاف ما فيها من المعمور، لأن رسم الجريب معلوم معين، فإذا أعطاه تصرف في ملكه، كيفما يشاء ويختار. ومتى شاء قص الثمار وباعها في أوان الموسم فتزداد بذلك الرغبة في العمارة، وتكثر الحواصل، وتكثر الواردات الميرية، ونحصل الثروة العامة للرعايا، على أن رسم الجريب، قد يستوي فيه الشريف والوضيع، وقد يكون الملتزم من أشراف أهل البصرة، فيخرص كيفما شاء أملاك الفقراء، وتنجو

أملاكه، وقد يكون الملتزم من غير أشرافها بمساعددة الأشراف. فلا يتعـرض لملك الاشراف. ولذا ترى بعض أعيان البصرة يأبى عن ترتيب رسم الجريب. وبالجملة، أن في ترتيبه كف أيدي الظلمة والمتغلبة عن أملاك الفقراء، وسائر الرعايا، ويستوي فيه الكبير والصغير، والشريف والوضيع، والفقير والغني.

هذا، ومن جملة ما وقع في الجهة الشرقية من البصرة، عبادان وقبان، وهما داخلان في حدود البصرة، ومن سواد العراق. فالمحمرة وعبادان وقبان ودورق ستان كلها داخلة في ملك الدولة العلية، إلى موضع يُقال له البنية، وهو أيضاً للدولة.

وقد ذكر الشيخ مال الله بن أحمد القباني أنه كان في قبان تسعون مسجداً، ومدارس كثيرة وعلماء، وكان خرابه بعد الألف ومائة وسبعين من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. هذا من جهة الدورق، ومما يدخل في جانب جزيرة عبادان، من الجهة الغربية، من أملاك الدولة العلية قديماً أم الجريدية والحدة. ونهر الشيخ، وحوش المعامر، وجزيرة المحلة، والشطيط، والبريم، والبويردة. والمنجوحى، وقصبة النصار وهي آخر جزيرة عبادان، وسميت قصبة لأنها منبت القصب.

وأما على جانب جزيرة عبادان، من الجهة الشرقية، فنهر الحياج، وكوت شنة، ونهر الحدادين، ونهر مهيوب، والصونيخ. فهذه كلها معمورة، والبواقي لا غرس فيها. وما بازاء نهر الدعيجي فنهر خميسة، وسعيدان، ونهر يوسف، والشاخورة، والمعمورة، والدربند، والختبني. وجزيرة عبادان محمودة الأرض، قليلة الآلام، وهي منبر العراق، على ما قاله بعض العلماء، وكان فيها كثير من العلماء والاولياء. ومنهم العلامة قاسم العبادي، محشي (كتب لها حاشية) تحفة ابن حجر المكي الهيتمي طاب ثراهما، وله عدة تآليف فائقة، آخر منها حاشية

على جمع الجوامع في الأصول المسماة بالآيات البينات، ومنها شرحه على العناية في فقه الشافعية، ومنها حاشيته على حاشية اللقاني المصري، على شرح التصريف للتفتازاني، ومنها حاشيته على حاشية عصام الدين، على شرح الكافية للجامي، وغير ذلك من الكتب المفيدة، التي بلغت من التحقيق غايته.

وكان أهل عبادان ونواحي المحمرة، في القديم كلهم، على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه كالبصرة ونواحيها، ثم ترفض جميع أهل عبادان، ونواحي المحمرة، في القديم كلهم، وما بقي منهم أحد من أهل السنّة والجماعة، سوى بعض الأفراد من الدورق من عشيرة كعب.

وكانت عبادان في القديم على ساحل البحر، وليس وراءها قرية كما يقال (ما وراء عبادان قرية)، والآن قد ظهر من البحر أرض واسعة، وصار وراء عبادان قرى كثيرة. وأما النهر المسمى بهمشبر، الحاجز بين عبادان والمحمرة، فهو يدور على جزيرة عبادان من جهة الشرق، إلى أن ينتهي إلى البحر فجزيرة عبادان المذكورة على جهة النهر المذكور الغربية، وعلى جهته الشرقية، جهة قبان وشاطيء نهر بهمشير المقابل لرأس جزيرة عبادان من جهة الشمال المحمرة المشهورة الآن.

وأما المحمرة المشهورة الآن فقد أتخذتها عشيرة كعب، وسكنوا فيها، وسموها محمرة، وأهلها كناسة الارض. وقد حدثني، الشيخ المعمر، علي بن محمود النقشبندي الخصيبي بأنه قد رأى، هذا الموضع المسمى الآن بالمحمرة، أرضاً خالية، ليس فيها أحد ولا بناء، ثم سكن فيها محيسن بن كعب وتجمعوا وتمكنوا فيها، وتواطأوا على النهب وقطع الطرق والإفساد، حتى كثرت أموالهم، وعمت أذيتهم، ولا سيما على أهل البصرة ونواحيها، وحصلت لهم القوة وشيخهم جابر المرداو، وهو وعشيرته المذكورة من توابع كبار عشيرة كعب الساكنين في الدورق

المسمى بالفلاحية. ثم عصى جابر المذكور عن طاعتهم، بعد أن كان من جملة خدامهم، ومنعهم عن الوصول إلى المحمرة، وبارزهم وحصلت له الشهرة والترويج من أكابر الدولة الإيرانية، وقد تحول جابر المذكور عن المحمرة إلى موضع يُقال له الفيلية، وهو ذو ثروة عظيمة ودولة لا تحصى.

وذكر لي الشيخ علي المذكور منشأ دولته، وهو أن المحمرة سنة 1247هـ قد صار فيها طاعون عظيم، أفنى من فيها من التجار، فاستولى على أموالهم، ومع ذلك لما كثرت الفتنة بين آل ناصر استولى على مائة قرية فأكثر. وكان لا يعطي العجم، إلا شيئاً قليلاً ،فهذا سبب كثرة أمواله، وأملاكه وسفنه وصار لدى الدولة الإيرانية أجل من أكابر كعب ومقدماً عليهم.

هذا وقبل انحناء بهمشير إلى البحر نهر يُقال له الحفار، وهو كبير واسع، وعليه قرى عديدة، وهو يسقي القبان، وفي جانب النهر المنحني الجاري من كارون المذكور الغربي نهر كبير، منقطع عن نهر عبادان، المسمى بهمشير الشرقي، وفي جانبي هذا النهر الكبير نهران: أحدهما ينتهي إلى قرب البحر، والثاني إلى قرب الحفار، وتنشق منه أنهر كثيرة شرقا وغربا، وسواقي كثيرة، فهذا في الجهة الغربية من نهر قبان والجهة الشرقية، كذلك وما في جهة الشمال يصل إلى نهر كارون، وهو المسمى بالسليمانية، وما في جهة الجنوب يصل قرب نهر دورق ستان، وحافته الشمالية هي أرض قبان، وحافته الجنوبية خمس جزائر، أحد طرفيها في نهر دورق ستان، والطرف الآخر في البحر.

واسماء الجزائر هي: ميان، والسليك، والمويلح، وأما التفاح، وجزيرة دورق ستان التي يظن الناس أن فيها معادن اكسيرية، وفي مقابل هذه الجزيرة نهر يذهب إلى قبان من جهة الشرق، ثم يذهب إلى الشرق وجوانبه، شمالا وجنوباً،

هي محال دورق ستان، وينتهي إلى نهر الدورق، المسمى بالبزية الذاهب إلى البحر.

وحول نهر البزية أنهر كثيرة تتصل بنهر الجراحي، عليها مزارع الرز، وهي مسدودة الرؤوس، ولو فتحت رؤوسها لغرق الدورق، المسمى بالفلاحية، ولذهب الماء إلى قبان فاحياه كما كان.

وفي الجهة الشرقية من نهر البزية نهر الجراحي، وهو نهر قوى الماء كنهر كارون، يصل إلى قبان ويذهب الجراحي إلى بلاد العجم.

وما وراء البزية أنهار كثيرة، وفي جهتها الشمالية مساكن كثيرة، منها موضع يقال له جفال ومنهل الخزاعية، وغير ذلك من المساكن العديدة، التي نهايتها البنية المذكورة. ويتطاول هذا النهر إلى بهبهان، وعلى حافة نهر كارون الجنوبية قرية تسمى السماعين،ي وهي في مقابلة الخزعلية، التي على الجانب الشمالي من الجراحي، وعلى هذه الحافة من كارون محل يسمى الاهواز، وهو مكان عال من الارض. والاهواز مقابل لمحل في الجراحي يسمى غريبة، والبنية في مقابل محل من كارون يسمى العمير. ونهر كارون يجري إلى ششتر ودسبول، ونهر بهمشير الذي هو نهر عبادان والمحمرة ماؤه بين العذب والمالح.

قال اليافعي رحمه الله تعالى في روض الرياحين: جزى الله أهل عبادان خيراً، على صبرهم بشرب الماء المالح. ويأتي الماء إلى بهمشير من نهر المسرهد الآخذ عن الشط. والمسرهد في موضع يُقال له سوق الشيوخ المشهور (لعله غير بلدة سوق الشيوخ بالناصرية). وقد خلط سليمان الكعبى ماء كارون بماء الحفار، فجري في نهر عبادان، الذي هو نهر المحمرة، ثم يجري إلى البحر، فصار هذا الماء أعذب وأبيض، فسماه العجم بهمشير. وجميع ما ذكر من البزية، والدورق ستان

وجزيرته، والقبان وجزائره، وعبادان فهو ملك الدولة العلية العثمانية، أيدها رب البرية فضلا عن المحمرة.

الباب الرابع

اسماء بعض المحال الواقعة في جنوب البصرة

فأما السراجي فنسبته إلى رجل سراجي، كان يعمل السروج في المحل المذكور، لآل راشد الذين ملكوا البصرة، بعد تاريخ السبعماية وواحد من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وأما مهيجران فهو موضع هجار آل راشد. ويوسفان كان لرجلين اسمهما يوسف وحمدان، قيل حفره رجل من آل حمدان. واليهودي حفره رجل من اليهود. وأبو مغيرة حفره المغيرة بن شعبة الصحابى رضي الله تعالى عنه. والسبيليات كانت ملك الأمير فارس، الجد العاشر للأمراء الذين هم أعيان أبي الخصيب، فوقفه وسبله على وجه البر للفقراء والمشائخ الرفاعية لاطعام الطعام، فسميت سبيليات أي مسبلة، فاستولى عليها النقيب عبد الرحمن، باستيلائه على البصرة فجعلها ملكا له.

وأبو الخصيب، بالخاء المعجمة، سمي بذلك لكثرة ما فيه من الخصب والبساتين، وقيل: أصله بالغين المعجمة، وحضيب كان عبداً من عبيد هارون الرشيد الخليفة العباسي، سكن في المحل المذكور، وبنى فيه حصناً، وأثار الحصن المذكور موجود الآن في المحل الذي يسمى بريم. وجيكور[1] اسم اعجمى بمعنى مكان الاعمى، والعامية سميت بذلك لأنهم لما عمروها واشتغلوا بتعميرها صارت العملة تشتغل فيها، وفي غيرها من المحال التي عمرت بعدها، وكان إذا

[1] يُقال أن أصلها جبكور، أي أعور اليسار

سئل أحدهم أين تشتغل أجاب بأنه يشتغل في العامية، أي في التي عمـرت العـام فسميت بذلـك. والفيـاض قيـل لكـثرة فيضـه، وقيـل كـان لرجـل اسمـه فيـاض. وبلجان، كما ذكر أهل التواريخ، أنه في الأصل بولجان، وهو نهـر واسـع، وكـان يأخذ من نهر جندب، الذي هو نهر البصرة القديمة. وجندب هو أبو ذر الغفـاري الصحابي رضي الله تعالى عنه، وهو مدفون بجانبـه الشـمالي، وآثـار نهـر جنـدب ظاهرة، والقبر المنور ظاهر، وبلجان المذكور هو ذنب نهر جندب. وقيل لما غضـب الله تعالى على إبليس أمر بهبوطة إلى أرض بلجان، فوقع في النهر المذكور، وسكان بلجان إلى الآن أباليس البصرة، على مـا حدثـني بذلـك الشيخ علـي الخصيـبي. والزين كان لرجل، صاحب جمال وحسن، وهو من طائفة مـن العـرب يقـال لهـم الباوية. والمطوعة كانت فيه امرأة تقري الأولاد وتعلمهم الفقه وتطوعهـم، وهـي في الأصل على وزن اسم الفاعل، ثم بكثرة الاستعمال غيرها المولدون إلى اسـم مفعـول. والجدواسر محل عمره طائفة الدواسر، وسكنوه وهم من عرب نجـد، سيأتي غـن شاء الله تعالى ذكرناهم في بيان قبائل نجد، فنسب اليهم ولم يبق أحد من ذريتهـم في عصرنا هذا. وإنما سكنة الدواسر في هذا الزمان من سـائر العـرب، توطنـوا فيـه واستغلوا كثيراً من مواضعه، وهو مقابل جزيرة عبادان. والمعامر كانت أرضاً خاليـة عن الغرس، فأشتراها راشد السعدون، والد ناصر باشا، من بيـت المـال، وعمرهـا سنة الألف ومائتين وست وعشـرين مـن الهجـرة النبويـة، وكـذا أشـترى المطوعـة واشترى البهادرية والفاو. ووقف البهادرية على فقراء المدينة المنورة، وأكـرم الفـاو على شيخ الكويت، والفاو هو آخر العمران، يمتد إلى البحر.

أحوال نجد

الباب الأول

في بيان موقع نجد وحدوده وبعض احوال اهله مع بيان جزيرة العرب وما فيها من البلاد والمحال

إن النجد في أصل اللغة ما ارتفع من الأرض، وما خالف الغور، أي تهامة فأعلى نجد تهامة واليمن، وأسفله العراق والشام، وأوله من جهة الحجاز ذات عرق. فهو بين تهامة واليمن والعراق والشام، والحجاز، وهذه الأقاليم الخمسة جوانبه على ما ذكره مجد الدين.

وذكر صاحب نهاية الأرب أن نجداً هي الناحية التي بين الحجاز والعراق، والحجاز هو ما بين نجد وتهامة، وهي جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام، ويسمى حجازاً لحجزه بين نجد وتهامة، فعلى هذا لا يكون أعلاه تهامه، كما ذكره مجد الدين، لوقوع الحجاز فاصلاً بينها وبين نجد، وهو من أحسن الاقطار، وأعدلها مزاجاً، وأرقها هواء، وأعذبها ماء، وأخصبها أرضاً، وأنبتها ازهاراً ونباتاً، اوديته كالرياض، وأغواره كالحياض، قليل الأمراض. وقد تمثل الشعراء المجيدون بطيب هوائه ومحاله، وفيه بعض البلدان والقرى، وأكثر أراضيه صحارى وقفار، فيها قبائل من العرب لا يحصى عددهم إلا الله تعالى، معاشهم من الابل والخيل والغنم، ولا يستقرون في محل، بل يرحلون

من ناحية إلى ناحية، ومن دار إلى دار، وماؤه مع قلته في غاية العذوبة واللطافة والخفة، ولهم بطون وقبائل وشعوب لا تحصى، ولكل عشيرة منهم شيخ نافذ الكلمة بينهم، ولم تزل الحروب والمقاتلة بينهم، ويجورون على أهل البلدان

والقرى، ويقطعون العراق أحياناً، فيغزوهم ابن سعود، وقد يمنع بعضهم عن بعض، ويعاقب أهل العدوان، ويقتل منهم اناساً، ويحبس بعضهم إلى أن يستقيم الأمر، وهم أشجع العرب، بل سائر الناس، وأشدهم بأساً، كيف وقد وصفهم الله تعالى بشدة البأس، بقوله تعالى: "ستدعون إلى قوم اولي بأس شديد" الآية.

ومع شجاعتهم وشدة بأسهم فهم أهل أنفة وغيرة وصدق وكرم وذكاء مفرط وفطنة، وقدرة على سرعة الجواب المسكت، بقول وجيز، ولهم مكارم أخلاق، كاكرام الجار، وإجارة المستجير بهم، ولا يدور الكذب على ألسنتهم، ولا يشهدون الزور، ولا يهذون بكثرة الكلام. هذا، ومساكن العرب القديمة الذين تفرقوا في الاقطار، كانت بجزيرة العرب، الواقعة في وسط المعمورة، وهذه الجزيرة متسعة الأرجاء، ممتدة الأطراف، يحيط بها من جهة الغرب بعض بادية الشام، حيث البلقاء إلى أبلة، ثم بحر القلزم، الآخذ من ايلة، حيث العقبة الموجودة بطريق حجاج مصر، إلى الحجاز، إلى أطراف اليمن، حيث طي وزبيد وما داناهما. ومن جهة الجنوب بحر الهند المتصل به بحر القلزم من جهة الجنوب إلى عدن إلى اطراف اليمن. حيث بلاد مهرة من ظفار وما حولها. ومن جهة الشرق بحر فارس، الخارج من بحر الهند إلى جهة الشمال، إلى بلاد البحرين، ثم إلى البصرة، ثم إلى الكوفة من بلاد العراق. ومن جهة الشمال الفرات، آخذاً من الكوفة على حدود العراق، إلى عانة إلى بالس من بلاد الجزيرة الفراتية، غلى البلقاء من برية الشام، حيث وقع الابتداء. والحاصل أن السائر على حدود جزيرة العرب مبتدئاً من البلقاء جنوباً إلى ايلة، ثم يسير إلى شاطيء بحر القلزم، وهو مستقبل الجنوب، والبحر على يمينه، إلى مدين، إلى البقيع، إلى البروة، إلى جدة، إلى أول اليمن، إلى زبيد إلى أطراف اليمن من جهة الجنوب، ثم يعطف مشرقاً. ويسير على ساحل اليمن، وبحر الهند على يمينه حتى يمر على عدن، ويجاوزها حتى يصل إلى سواحل ظفار من مشاريق اليمن، إلى سواحل مهرة، ثم

يعطف شمالاً، ويسير على سواحل اليمن، وبحر فارس على يمينه، ويتجاوز سواحل مهرة إلى عمان من بلاد البحرين، إلى جزيرة أوال إلى القطيف، إلى كاظمة، إلى البصرة، إلى الكوفة، ثم يعطف إلى الغرب، ويفارق بحر فارس، فيسير والفرات على يمينه إلى سلمية، إلى البلقاء، حيث بدأ علي ما ذكر صاحب السلطان عماد الدين حماد في تقويم البلدان، سبعة أشهر وأحد عشر يوماً تقريباً، بسير الاثقال. فمن البلقان إلى الشراة ثلاثة أيام، ومن الشراة إلى ايلة نحو ثلاثة ايام، ومن ايلة وهو فرضة المدينة النبوية إلى الحجاز نحو عشرين يوماً، ومن الحجاز إلى ساحل الجحفة، وهي فرضة مكة المشرفة ثلاثة أيام، ومن جدة إلى عدن نحو شهر، ومن عدن إلى سواحل مهرة نحو شهر، ومن مهرة إلى عمان البحرين نحو شهر، ومن هجر إلى عبادان من العراق نحو خمسة عشر يوماً، ومن عبادان إلى البصرة نحو يومين، ومن البصرة إلى الكوفة نحو أثني عشر يوماً، ومن الكوفة إلى باليس نحو عشرين يوماً، ومن باليس إلى سلمة نحو سبعة أيام، ومن سلمية إلى مشارف حوران دمشق نحو أربعة أيام، ومن مشاريق غوطة دمشق إلى مشاريق حوران نحو ثلاثة أيام، ومن مشارف حوران إلى البلقاء نحو ستة أيام.

ثم اعلم، أن الجزيرة في أصل اللغة ما أرتفع عنه الماء، آخذاً من الجزر ضد المد، ثم توسع فيه فأطلق على كل دار عليه الماء، ولما كان هذا القطر يحيط به بحر القلزم من جهة المغرب، وبحر الهند من جهة الجنوب، وبحر فارس من جهة المشرق، والفرات من جهة الشمال أُطلقت عليه الجزيرة، وأضيفت إلى العرب لنزولهم بها ابتداء، ومساكنهم فيها. قال المديني وجزيرة العرب، تنقسم إلى خمسة أقسام: تهامة ونجد وحجاز وعروض ويمن، فتهامة هي الناحية الجنوبية من الحجاز، ونجد هي الناحية التي بين الحجاز والعراق، والحجاز وهو ما بين نجد وتهامة على ما سبق، وهي جبل مقبل من اليمن، ممتد ومتصل بالشام، وسمي حجازاً لحجزه بين نجد وتهامة على ما سبق، والعروض هي

اليمامة إلى البحرين، ويدخل في جزيرة العرب قطعة من بادية الشام، وفي كل قسم من هذه الاقسام الخمسة مدن وبلاد.

فأما الحجاز الذي هو وما حوله من الأماكن أفضل البقاع، واعدلها، لأن الكعبة وتربة أشرف الخلائق نبينا محمد ﷺ في أراضيه ففيه من البلاد المشهورة المدينة النبوية، على مشرفها أشرف الصلاة، واكمل السلام والتحية. قيل هي من نجد، والراجح أنها من الحجاز، وأما تهامة ففيها من البلاد المشهورة مكة المشرفة، وقيل هي من الحجاز، وفيها ايضاً من البلاد ينبع. وأما نجد فسيأتي إن شاء الله تعالى بيان ما فيه من البلاد، في بابه المخصوص به، وأما العروض فيشتمل على ناحيتين: الأولى اليمامة، وقيل هي من الحجاز، وهي مدينة النبي

في المقدار، بينها وبين البصرة ستة عشر مرحلة، وبينها وبين الكوفة مثل ذلك، وهي أكثر نخيلاً من سائر بلاد الحجاز، وبها كان مسيلمة الكذاب، الذي ادعى النبوة في زمن النبي ﷺ، وقيل في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. والناحية الثانية بلاد البحرين، وهي قطر متسع مجاور لبحر فارس، كثير النخيل والآنهر والمياه، واسع التجارة، بحرها معدن اللؤلؤ الفاخر، وعدد بلدانها يزيد على سبعين، لايوجد مثلها في الممالك، وهي قريبة من بر القطيف، مسافة خمس ساعات، وعن قطر أربع ساعات في السفن، وعن العقير سبع ساعات مع الريح المعتدل. والمتولي عليها ابن خليفة من وائل، ويسكن أحياناً في بلدة المنامة، وأحياناً في بلد المحرق، وهي من ممالك الدولة العلية العثمانية، ولكثرة تردد الأنكليز عليهم فهم على وجل منهم، ولا يدعون إلا الإنتساب إلى الدولة العلية، إلا أن الدولة لم تسكت عنهم، إلا لبعدهم مع كثرة مشاغلها المهمة، التي هي أهم من البحرين، ومع ذلك فأهلها في حيرة من الأنكليز، والعجب من ولاة بغداد، كيف غفلوا عن هذه البلاد العظيمة! مع كونها داخلة في جزيرة العرب، التي هي ملك الدولة العلية، وكانوا قبل هذا تحت يد ابن سعود، أمير نجد، الذي هو من

تبعة الدولة العثمانية، وكيف لا يمنعون إحتجاجات الدولة الأنكليزية عنهم! مع وجود صداقتهم التامة بين الدولة الأنكليزية. إنهم مع صحة صداقتهم مع الدولة العلية، كيف يتجاسرون على حركات تستدعي التصرف في أمور البحرين! مع ظهور أنها ملك الدولة العلية.

وأما دعوى الدولة الإيرانية للبحرين، فهي من قبيل دعوى أن مكة والمدينة لهم، وأن جزيرة العرب من إيران. وأما إنتساب بعض أهل البحرين، في بعض الاحيان، إلى الدولة الإيرانية خوفاً من تسلط الإنكليز عليهم، من قبيل الغريق يتشبث بالحشيش، لأنهم يستطيعون دفع عساكر الدولة الإيرانية، ولا يستطيعون منع مراكب الدولة الأنكليزية، فينسبون أنفسهم إلى الدولة الإيرانية، لعدم خوفهم منهم يبتغون بذلك الخلاص من تعرض الدولة الأنكليزية بهم. وكانت دعوى نسبتهم إلى الدولة الإيرانية بعد أن نادوا بأعلى صوت من كل جانب بتبعية الدولة العلية، فلم يحببهم أحد ومع هذا فهم الآن معترفون بتبعيتهم للدولة العلية، ومتأسفون على أعراض الدولة العلية عنهم، وبمساعدة قنصل بندر أبو شهر عُزل محمد بن خليفة عن البحرين، ونصب محله أخاه علي، فذهب محمد إلى الكويت، وهو من بني عمّ شيوخ الكويت، فالتمس شيخ الكويت من علي عود أخيه إلى البحرين، فعاد (علي) ومعه، اثناء الدخول، محمد بن عبد الله من بني عمّه، فاستقبله علي بموكب الحرب، ومعه ولد محمد بن عبد الله، فلما رأى علي محمداً بن عبد الله مع أخيه محمد ابن خليفة، قال لولد محمد بن عبد الله: والدك من الخائنين معي، فتضاربا وقُتلا معاً، فذهب محمد بن خليفة إلى بيت أخيه علي، ثم حُبس، وصار محمد بن عبد الله شيخاً على البحرين. وهذه وقعة عجيبة.

هذا، ومن أعظم بلاد البحرين، وأشهرها هجر، بفتح الهاء والجيم، وهي التي كانت قاعدة البحرين في الزمن المتقدم، فخربها القرامطة عند إستيلائهم على

البحرين، وبنوا مدينة الاحساء ونزلوها، وصارت قاعدة البحرين، وسيأتي بيانها إن شاء الله تعالى. وأما اليمن فهو إقليم عظيم متسع الأرجاء، متباعد الأطراف، وكانت قاعدته القديمة مدينة صنعاء، وهي مدينة عظيمة تشبه مدينة دمشق في كثرة مياهها، وأشجارها، وأنهارها، وجداولها معتدلة الهواء، عذبة الماء، وهي من أعدل البلدان واسهلها معاشاً، وأحسنها مزارعاً. وكان لأهلها قوة عظيمة، وأمراؤها من الأشراف علي ما هو المشهور، وهم أئمة الزيدية، وقد ارتفعت الإمارة في هذا العصر عن الأشراف، لنزاعهم وغلبة أهل البادية عليهم، فصار أميرهم، أحد عرب البادية، يحكم بينهم بقوة العرب، وغلبتهم وهي من البلاد القديمة، قيل أول من أختطها سام بن نوح عليه السلام، وفيها مساجد ما يزيد على ثلثمائة، ومن الحمامات ما يزيد على المائتين، وغالب أهلها وأهل باديتها وأشرافها زيدية، وأهل السنّة فيها قليلون، وكانت في تصرف الدولة العلية من القديم، ثم صرفوا عنها النظر، وقد إستحدث إمام الزيدية عليها حصناً عظيماً في الجبال، مطل على التهائم واراضي زبيد، وفوقه منتزه يُقال له صهلة، قد ساق إليه المياه من الجبال التي فوقها، وبنى فيه أبنية عظيمة في غاية الحسن في وسط بستان، وهو منزل بني رسول ملك اليمن.

ومن بلاد اليمن الشهيرة زبيد، بفتح الزاء المعجمة، وهي قصبة التهائم وموضعها في مستوى من الأرض، وفيها نخيل كثيرة، ولها سور دائر فيه ثمانية أبواب، وبينها وبين البحر خمسة عشر ميلاً، وهي من البلاد القديمة، وفيها شجر البن، قيل وتوجد فيها المعادن. وأول بنادر اليمن من جهة مكة المشرفة، هي الليث والقنفذة وجيزان ولحية وكمران ومخا، وهي قريبة من باب المندب. وباب المندب هو مضيق في البحر، واقع في جهة الغرب من بر اليمن، دون شرقي الصومال، والباب المذكور بغاز اليمن. وقد أخبرني بعض من أثق به من أكابر تجار نجد، بأن الأنكليز قد سكنوا في البغاز المذكور، من مدة ثلاث سنين، بحجة

أن يجعلوا فيه منارة وعلامة لاهتداء المسافرين في البحر، مع كونه من أملاك الدولة العلية. والله أعلم بعاقبة مرادهم. وفي اليمن أمم وقبائل كثيرة من العرب، وقد قلت أموالهم. ولم تتصل بهم أنظار الدولة العلية، وحسن سياسته وعدالته. فآلت بلادهم إلى عدم العمارة التامة. وأما بنادر الحجاز فجدة وينبع ورابغ والقصير.

ومن مشاهير بلاد اليمن عدن، وهي فرضة اليمن قديماً وحديثاً، ويُقال لها عدن أبين. سميت بأسم بانيها، وهي مدينة على ساحل بحر الهند، جنوبي باب المندب، يميل إلى المشرق مورد مراكب الهند ومصر وغيرهما، بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل. واقعة في ذيل جبل كالتنور عليها، وتمام الجبل سور إلى البحر، ولها باب إلى البر. وباب إلى البحر. إلا أنها قشفة يابسة، ينقل إليها الماء على ظهور الدواب، بحسب العهد القديم. وأما في عصرنا هذا، فقد صارت بلدة عظيمة محصنة غاية التحصين، معمورة مزينة، قل أن يوجد مثلها على السواحل، وهي من بر العرب، ومن أملاك الدولة العلية وسكانها، وشيخهم ويُقال له الفضلي، فطلب الأنكليز منه، من مدة أربعين سنة، أن يضعوا عنده ذخائر المراكب الأنكليزية، ويبقوا عليها نفرات منهم لمحافظتها، ثم بعد مدة اشتروا عدناً من الشيخ الفضلي المذكور، بألف وخمسمائة ريال، على ما تواتر وتولوها وعمروها وصرفوا عليها خزائن كثيرة، وحصنوها بالقلاع تحت الجبل، ثم طلبها الفضلي منهم، فأمتنعوا عن تسليمها إليه، ثم حاربهم فلم تحصل له الغلبة، وأيس منها وبقيت في أيديهم. وقد صارت الآن بسبب خراب بلاد اليمن، لما أجروا فيها من حسن المعاملة مع أهلها، ومع المترددين إليها، وأبطلوا الكمارك والرسومات فيها، وحصلت لأهلها الرفاهية والثروة، ورغب أهل اليمن إلى السكنى فيها من كل جانب، مع أن اليمن لو حلت فيه السياسة العادلة، والحرية التامة لكان في غاية العمارة والمنفعة. ومن البلاد الشهيرة في اليمن بندر السحل وبندر مكلا، وهما

بندران لبر حضرموت، وأكثر أهله من الحضارمة القحطانيين، وأول بلدان حضرموت مسافة مرحلة عنها، وغاية البعد سبع مراحل. وقاعدة حضرموت بلدة يُقال لها اتربم (الصحيح تريم) وفيها السادة الحضارمة، وهم من الأشراف الصحيحي النسب، ومن ذوي الصلاح، وفيهم كثير من العلماء، وكلهم شافعية، وأهل حضرموت أهل شجاعة وإقدام، كأهل نجد، إلا أن أهل نجد أزيد منهم في مكارم الاخلاق. قال في نهاية الأرب: ومن مشاهير بلاد اليمن نجران، بفتح النون وسكون الجيم، وهي بلدة ذات نخيل وأشجار، على الغرب من صنعاء، وهي بين عدن وحضرموت في الجبال، وتعد من بلاد همدان، بين قرى ومدائن وعمارات ومياه، وبها كان أفعى بن الأفعى الجرهمي، الذي تحاكم إليه مضر وربيعة وأياد وأنمار، أولاد نزار بوصية من أبيهم.

قال بعض الاذكياء من أهل نجد: وأما نجران فلا يحسب من اليمن، بل هو قطر مستقل واقع شرقي وادي الدوسر، من أراضي نجد بلد العرب، الذين يُقال لهم يام وهم عرب العجمان، وكلهم شيعة على عقيدة (العميديين) العبيديين، الذين كانوا في مصر، وفيهم سادات أشراف، يعتقدون بهم غاية الإعتقاد، ويدعون أنهم يعلمون شيئاً من المغيبات.

قال في نهاية الأرب: ومن مشاهير بلاد اليمن ظفار، بالظاء المعجمة بعدها فاء، وهي مدينة على ساحل خور يخرج من بحر الهند، بينها وبين صنعاء أربعة وعشرون فرسخاً، وعلى شمالها رمال الأحقاف، التي كان عاد فيها، وهي قاعدة بلاد الشحر، ويوجد في أرضها كثير من النبات الهندي، ولها بساتين على سواق، ويوجد في سواحلها العنبر، وغير ذلك من البلاد المتعددة، وقال بعض الأذكياء: وكذلك ظفار ليس من اليمن، بل هي أقرب إلى مسقط.

أقول، وما ذكره بعض الأذكياء، أولا وآخراً، مبني على ما هو المعتاد الآن، من أن اليمن يطلق على ما هو داخل باب المندب من جهة الحجاز، وأما بادية الشام ففيها من جزيرة العرب تدمر، بفتح التاء وضم الميم، وهي بلدة قديمة ببادية الشام، من أعمال حمص، واقعة في شرقها، وأرضها سباخ، وفيها نخيل وزيتون وأشجار، ولها سور وقلعة، بينها وبين حمص نحو ثلاث مراحل، وكذلك عن سلمية وبينها وبين دمشق تسعة وخمسون ميلاً، وبينها وبين الزحلة مائة ميل وميلان، وهي منزل آل ربيعة ملوك العرب بالشام، وكذلك من جزيرة العرب الواقعة في بادية الشام، بلدة تيماء وهي حاضرة طيء، وبها الحصن المعروف بالابلق، المنسوب إلى السموأل بن عادياء. وتبوك وهي بلدة بين الحجر أرض ثمود وبين الشام، وبها عين ماء ونخيل، ويُقال إن بها أصحاب الأيكة، الذين بعث الله تعالى إليهم شعيباً عليه السلام.

هذا، وكان اليمن على ما قاله صاحب نهاية الأرب، منازل العرب العاربة، من عاد وطسم وجديس واميم وجرهم وحضرموت، ثم أنتقلت ثمود إلى الحجر من أرض الشام، فكانوا به حتى هلكوا كما ورد في القرآن الكريم، وهلك من هلك من بقايا العاربة باليمن، من عاد وغيرهم وخلقهم بنو قحطان بن عامر، فعرفوا بعرب اليمن، وبقوا فيه إلى أن خرج عمرو بن مزيقيا، وعند وقوع سيل العرم، ثم خرج منه بقاياهم وتفرقوا في الحجاز والشام وغيرها، عند حدوث سيل العرم. وكانت أرض الحجاز منازل بني عدنان إلى أن غزاهم بخت نصر، ونقل منْ نقل منهم إلى الأنبار من بلاد العراق، ولم تزل العرب بعد ذلك منتشرة في الاقطار، إلى أن كان الفتح الإسلامي، فوغلوا في البلاد حتى وصلوا إلى بلاد الترك والفرس، وذهبوا إلى أقصى المغرب، وجزيرة الأندلس وبلاد السودان، وملأوا الآفاق، وعمروا البلاد والاقطار، واكتسبوا العلوم والمعارف، وألفوا ودونوا وملأت آثارهم الحميدة، التي تعلم منها سائر الناس في جميع الآفاق. وصار بعض عرب اليمن إلى الحجاز،

فاقاموا به، وربما صار بعض عرب الحجاز إلى اليمن، فاقاموا به، وبقي من بقي منهم بالحجاز واليمن إلى الآن، ومنهم من تفرق في الاقطار وملأوا ما بين الخافقين، ثم أعلم أن علماء النسب قد اختلفوا في العرب العاربة، فذهب ابن إسحاق الطبري إلى أن العاربة هم: عاد، وثمود، وطسم، وجديس، واميم، وعميل، والعمالقة، وعيد ضخم، وجرهم وحضرموت، وحضور، والسلف، ومن في معناهم. والمستعربة بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن أفخشد بن سام بن نوح، وبنو اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، من ولد عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، فتعلم بنو قحطان العربية من العاربة، الذين كانوا في زمنهم، وتعلم بنو إسماعيل العربية من جرهم، وبني قحطان حين نزلوا عليه وعلى أمه هاجر بمكة، شرفها الله تعالى. وذهب آخرون، ومنهم صاحب حماة إلى أن بني قحطان عاربة، وأن المستعربة هم بنو إسماعيل فقط، وإلى الأول ذهب جمهور علماء النسب، ورجحه صاحب العبر، محتجاً بأنه لم يكن في بني قحطان من زمن نوح عليه السلام إلى عابر من تكلم العربية، وإنما تعلموها نقلا عمن كان قبلهم من عاد وثمود.

وذكر أن اسم قحطان في التوراة يقطن، فعُرب قحطان، وقال بعضهم أن قحطان بن الهميسع بن تيمن بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وعلى هذا يكون جميع العرب من ولد اسماعيل عليه السلام، لأن عدنان وقحطان يستوعبان بطون العرب، العدنانية والقحطانية، لإنقراض سائر العرب العاربة من عاد وثمود وأمثالهما.

أقول، وهذا مراد منْ قال: إن جميع العرب من ولد إسماعيل عليه السلام، لأنه لا ريب في بطلان كون عاد وثمود ومن في معناهما من ولد إسماعيل عليه السلام. ورد أبو عبيد ما قاله البعض، ووافقه صاحب نهاية الأرب، بقوله: وشذ منْ قال: أن قحطان بن الهميسع بن تيمن بن نابت بن إسماعيل عليه السلام.

هذا، والعاربة هم العرب الأولى، الذي فهمهم الله تعالى العربية ابتداء، فتكلموا بها، فقيل لهم عاربة بمعنى الراسخة في العربية، ويُقال لهم العرباء أيضاً، أما بمعنى الفاعلية والمبتدعة للعروبة والمستعربة هم الذين دخلوا في العربية، بعد العجمة من استفعل، كقولهم استحجر الطين، إذا صار في معنى الحجر ليبسه، وربما قيل لهم المعتربة. وذهب بعضهم إلى أن العربية كانت موجودة من عهد آدم عليه السلام، لقوله تعالى: "وعلم آدم الاسماء كلها"، لتعلقها ببعض أولاده دون بعض.

الباب الثاني

في بيان بلاد نجد ومحاله وما يتصل به من المحال والبلدان والقرى

فأما أول نجد المعمور، من مساكن الحاضرة من جهة الشمال، فجوف آل عمر الذي على شماله خيبر، وفيه قرى كثيرة، وكان في أيدي عنيزة، ثم صار في ايدي ابن رشيد شيخ جبل شمر، بأمر ابن سعود أمير نجد. وجبل شمر هو مستقر ابن رشيد (إلى الآن سنة 1229هـ) منها ومحل توطنه في الجبل المذكور قرى كثيرة، منها: حائل، وقفا، وموقف، وجبه، وبقعا سميراء، والكهفة وغير ذلك من القرى الكبيرة. وآل رشيد رؤساء الجبل أهل شجاعة وكرم، وهم امراء الحاج المتوجه من بغداد على جهة الجبل (إلى الآن)، وكبيرهم في عصرنا هذا ابن طلال بندر بن طلال (والآن سنة 1329 وهم سعود بن عبد العزيز، ملاحظة محقق الكتاب ياسين باشا أعيان) في طاعة ابن سعود و (تحت)أمره. ثم القصيم وهي ناحية من أحسن نواحي نجد، وأهلها من أقوى أهاليه، وهم أيضاً في طاعة ابن سعود وتحت أمره، وكبيرهم من جهة ابن سعود. وفي القصيم بلدتان مشهورتان وهما: عنيزة وبريدة، فأما عنيزة فكبيرها رجل من السليم إلى الآن، وهم اهل بيت قديم في عنيزة من عشيرة سبيع. وأما بريدة فكبيرها محمد السديري، قد نصبه ابن سعود أميراً على كافة قرى القصيم ومحاله، سوى عنيزة، وقرى القصيم الاسياح، وعين ابن فهيد، وحنيظل، وأبو الدود، وقصباء، وقرى بريدة: الشتة، والعيون، والبصة، والقرعاء (ارمه الذي ينحدر إلى عنيزة من جهة الشمال). ووادي عنيزة وغير ذلك، وقرى الوادي التابعة لبريدة: الشيحيات، والهلالية، والبكيرية، والخبراء. وقرى الرس: صبيح، والنبهانية. وقرى المذنب ثلاث. هذا هو المشهور من محال القصيم، ثم ناحية سدير وبلدانها: الزلفي وقراه: خص المجمعة، وحرمة،

ووشي، والجوى، وجلاجل، والنوم، والداخلة، والروضة، والحصون، والحوطة، والجنوبية، والعطار، والجنبفي، والعودة، وتمير، وعشيرة، والحطامة فهذه محال سدير، والأصح مركز حكومة الألفي. بلدة الزلفي ومركز الحكومة المجمعة، ثم ناحية الرشم محالها: شقراء وهي مركز الحكومة، وشيقر، والقرائن، والفرعة، وترمد، ومرات، وتيثية، والجريقة، والحريق، والقصب، وعسبلي، والبير، والدوادي. والشعرة، والقويعية، والرويضة، والشمس، والخانوقة، والحيد فهذه عدد بلدان ناحية الرشم. ثم ناحية المحمل ومحالها: ثادق وهو مركز الحكومة، والبير. والصغرة، والرغبة، والبيرة، ودقلة، والقرينية نسبة إلى مقران مؤسسها وفيها آثار قديمة جداً وعليها كتابات غريبة، وملهم، وصلبوخ (الصلبوخ حجر الزناد سمي لصلابة ارضه)، ثم ناحية العارض المسمى بوادي حنيفة باليمامة وهو مركز إمارة ابن سعود، على كافة نواحي نجد الحاضرة والبادية، وكان مركز إمارته الدرعية، فصار مركز الإمارة محلا يُقال له الرياض من محال العارض. والرياض بلد كبيرة فيها كثير من الناس، وهي من أحسن المحال، وأول ناحية العارض حريملة، ثم سدوس وفيه تمثال دفع عنه الأنكليز مبلغ 1500 ليرة إنكليزية، بارز عن وجه الأرض، وعليه كتاباتن ويقدر طول البارز منه مترين، ثم خرما، ثم العمارية، ثم أبو كباش، ثم الجميلة، ثم العينية، ثم الدرعية، ثم عرجة، ثم الرياض، ثم منفوحة. وفي جنوب العارض الخرج، وهي بلدة قديمة، وفيها أماكن ذات عيون جارية، وكان محل عشيرة عائد من قبائل نجد، وصار لهم فيه صولة عظيمة، وكان منهم أهل بادية، ومنهم أهل حضر تفرقوا في بلدان نجد وغيرها، ولم يبق منهم أحد في البادية، وقد تفرق كثير من قبائل نجد، كعائد المذكورين، وآل مغيرة وزغب، وآل بشر، وقرى الخرج الدليم، والسلمية، واليمامة، وزميمة، ونعجان، والسيح وغير ذلك من القرى. ثم الفرع وهو واد معمور وفيه نخيل كثيرة قوية، وغالب سكانه من بني

تميم، وهم أهل حضر، وأما أهل البادية من تميم فما بقى منهم أحد، وقرى الفرع الكبار: الحوطة، والحريق، ونعام، والحلوة وهي محل الحكومة من جهة ابن سعود. ثم ناحية الافلاج، وهي أول بلدان قبيلة الدواسر، وقراها: البلى، والبدع، والأحمر، والهدار وغير ذلك من القرى المشحونة بالنخيل. ثم وادي الدواسر، وأوله السليل وقراه كثيرة منها: اللدام، والحنابح، وجميع قراه خمسة عشر قرية. والوادي (الذي يقال له وادي حنيفة) المذكور هو مسكن الدواسر، البادية والحاضرة، وهو آخر نجد من جهة الجنوب، والمعمور من نجد من جوف أجل عمر إلى وادي الدواسر مسيرة خمسة عشر يوماً من جهة الشمال إلى الجنوب. واما من جهة الشرق إلى الغرب فالمعمورة منه مسافة ستة أيام، هذا هو المعمور بالبلدان. واما مساكن اهل البادية، في العشائر والقبائل، فهو طول مقدار شهر وعرض كذلك. وأودية نجد الكبار الكثيرة منها: وادي حنيفة، ومنها وادي الدواسر، ومنها وادي القصيم المسمى وادي الرمة، ومنها وادي سدير، وفي نجد عقبات صعبة المسالك، والدهناء هي الرمال الحاجزة دون نجد. ثم من الجهة الجنوبية لنجد بلاد عسير، وهم قبائل كثيرة، لا يحصى عددهم، من ذوي الشجاعة والإقدام، حاضرة وأهل البادية، والحاضرة منهم هم قبيلة شهران من حمير، وقد تولاهم قبل هذا ابن سعود، والآن ليسوا في طاعته، وشيخهم الآن محمد بن عائش من عشيرة يُقال لهم المنع، وغالب مساكنهم في الجبال، لا يزالون يغيرون على سواحل اليمن فينهبون منها، ومركز حكومة كبيرهم في الجبل في بلدة يُقال لها السقا، ولهم أكثر من مائة قرية، وأكثرهم في البادية، ثم بلاد اليمن وقد سبق بيانها. وفي الجهة الشرقية لنجد الاحساء والقطيف، وهو من الخط الذي فيه جزيرة دارين، الملاصقة للقطيف والاحساء، في تصرف ابن سعود، وهي قرى كثيرة، وأكبر ما فيها من البلاد الهفوف والمبرز. فالهفوف مركز الحكومة من جهة ابن سعود، وفي الاحساء ست قلاع، فيها عساكر ابن سعود،

ويتبعها أكثر من مائتي قرية كبيرة غير البلدتين المذكورتين، وهي بلاد متسعة سهلة المعاش، ذات نخيل كثيرة، وأشجار ومياه جارية، ولا يأخذ منهم ابن سعود إلا العشر. وفي الاحساء كثير من العلماء الأعلام من المذاهب الاربعة رضي الله عنهم، ومن أجل علمائها الأعلام الشيخ ابو بكر، وقد رأيت له تأليفاً جيداً في التصوف، وفيها رفضة اكثر من ثلثيها لكنهم في غاية الذل، وأما بلد القطيف فجهة مشرقها على ساحل البحر، تقابل الاحساء في النهر، والحواصل وجميع سكانه رفضة، وهو عن الاحساء مسافة ثلاثة مراحل، والاحساء ونجد مسافة سبع مراحل، وبين الاحساء والقطيف الدهناء وهي رمال، والصما وهي ارض يابسة لا يوجد فيها ماء، والمسافر منهما إلى نجد لا بد له من حمل الماء. وفي الجهة الشرقية للقطيف بندر العقير الواقع على ساحل البحر، وهو بندر الاحساء، وفيه محل محصن لبعض عساكر ابن سعود معداً لتجار نجد، الذين يسافرون إلى الاحساء، فأنهم إذا وصلوا إلى المحل المذكور جعلوا أموالهم فيه إلى أن تأتيهم الرواحل، فتحمل أموالهم إلى الاحساء. ثم في شرق العقير ناحية قطر وهي منزل العرب أهل السفائن الذين يغوصون في البحر لاستخراج اللؤلؤ، وهم قبائل منهم من قحطان، ومنهم من وائل، وفي بر قطر بعض من بني هاجر، وفي باديته عشيرة يُقال لها المناصير، وفي سواحله عدة محال كثيرة منها: البدع وهو رأس الزيارة، ونويرط وغير ذلك من البنادر. وقد يتصرف صاحب جزيرة البحرين أحياناً في قطر، وأما بره وصحاريه فهو في تصرف ابن سعود.

ثم في الجهة الشرقية لقطر أول بلاده عُمان، وهو بلد ابن جني، وسكان هذا البلد عشيرة يُقال لهم بنو ياس، وهم من قحطان، وهي قليلة الماء ليس فيها زراعة، ولا نخيل، وإنما سكنتها أهل سفن يغوصون في البحر لاستخراج اللؤلؤ، وكبيرهم منهم، وهو رجل يُسمى زائد. ثم شرقيها رأس الخيمة، وهي بلدة القواسم، وهم قطاع سبل البحر، وكانوا في غاية الجسارة، من قتل النفس وأخذ

أموال الناس، ومن مدة أربعين سنة هدم الأنكليز بلدتهم المذكورة وخربوها، فتفرق أهلها ثم رجعوا إليها وعمروها وسكنوا فيها. ولكن قطعت ايديهم من منبع سبل البحر. ثم شرقيها بلدة يُقال لها الشارقة، وهي من توابع رأس الخيمة، واهلها أيضاً من عشيرة القواسم. ولهم سفن يسافرون فيها إلى بلاد الهند ويغوصون في البحر لاستخراج اللؤلؤ، كبيرهم منهم. ثم في شرقيها دبي، واهله ايضاً من القواسم. ولكنهم مستقلون بأنفسهم، صنعتهم الغوص في البحر. ثم بندر خورفكان، وسكانهم قليلون يصطادون السمك من البحر. ثم بندر سحار، وهي بلدة كبيرة من توابع صاحب مسقط، وفيها واحد من بيت آل أبي سعيد ولاة مسقط، وهي كثيرة النخيل والأشجار. ثم بندر الشورى، وفيه أهل سفن يسافرون في البحر. ثم بندر السويب، وهي بلدة فيها نخيل وفواكهه وسفن. ثم بندر بركة، وسكانه أهل زراعة ونخيل وسفن. فهذه بنادر عُمان، وأما بلاده التي في البر فمقدار مائة وعشرين قرية، وقبائله: السعد، والمناصير، ونعيم. وفيه عالم كثير وهو قطر واسع ذو نخيل كثيرة، وفواكه عجيبة، وافرة وفيه الابل النجائب النعمانيات، والخيل فيها قليلة. وغالب أهل عمان على مذهب الإباضية، والبر الذي بين عمان وحضرموت رمال، لا تسكن ولا تسلك. والصحيح أنها ارض عاد، على ما قاله بعض أهل الوقوف على التواريخ القديمة. وفي قطعة شمال البريمي من عُمان قبائل وعشائر كثيرة جداً، تحت حكم ابن سعود، ويغزو أحياناً على بلاد عمان، كما أن له على والي مسقط في كل سنة عشرة آلاف ريال، لصولته عليه وعلى كثير من قبائل عمان الداخلين تحت طاعته، فأن لابن سعود في تلك النواحي صولة وشأناً عظيما ويداً طولى. ثم في الجهة الشرقية لبندر بركة بندر مسقط المشهور، ويتبعه قرى كثيرة، وهي بلدة في غاية العمارة، مشتملة على كثير من التجار المتمولين أهل السفن والمراكب، ومسافرتهم إلى بلاد الهند وجدة، وفي نواحيها بساتين كثيرة، ذات نخيل وأشجار وأثمار عجيبة، ولا يوجد مثلها

للتجار، وقد وقع الخلاف والمنازعة بين أهل المشيخة من آل أبي سعيد، ولاتهـا، فضعفت حالها. وقد ابلغني أن ابن سعود جهز عسكراً عظيماً ومشـى علـى مسقط في هذه الأيام، وقراها المشهورة الكبيرة مقدار خمـس عشرة قريـة. ثـم في الجهـة الشرقية لمسقط بلد سور، وفيها سفن كثيرة، وسـكانها أهـل تجـارة ويسـافرون إلى جميع الجهات، ليس عندهم زراعة، ولا نخيل. ثم في شرقيه رأس الحد ومسافرة سكانه في البحر، وهو آخر بر العرب من جهة الشرق، ثـم ينعطـف البحـر غـرب الجنوب إلى خليج اليمن، وهو البحر الأحمر، وأول محـل انعطافه مكـان يسـمى مصيرة، وسكانه لا يعرفون صيد السمك، ثم مرباط وهو بندر سكانه أهـل البحـر، ثم بلدان المهرة، ولها قرى كثيرة، وسكانه أهل أسفار، وسفن بندر الشحر، وبندر مكلا، وهما بندر حضرموت.

الباب الثالث

في بيان بعض أبعاد المسافات الواقعة بين المحال المذكورة

فالبعد من البصرة إلى قصبة الزبير رضي الله عنه ست ساعات، ومن الزبير إلى الكويت يومان، ومن الكويت إلى القطيف على قرب ساحل البحر خمسة أيام، ومن القطيف إلى الاحساء ثلاثة أيام، ومن الاحساء إلى نجد سبعة أيام. وأما على غير طريق الكويت والقطيف فمن البصرة إلى الاحساء مقدار تسعة أيام، وأما من البصرة إلى أول أراضي نجد، على غير طريق، الاحساء فمقدار ثلاثة عشر يوماً. وجميع النواحي المذكورة في نجد مسافة ما بينها مقدار مرحلتين، أو ثلاث مراحل، أو أربع، وهي غاية البعد، ومسافة بعد بندر العقير عن الاحساء مرحلة ونصف مرحلة، وبعد جزيرة البحرين عن القطيف كمقدار خمس ساعات بحراً، وعن العقير مقدار سبع ساعات بحراً، وعن قطر مقدار أربع ساعات بحراً، وهذا مع الريح المعتدل، وبُعد قطعة شمال البريمي من بر عُمان عن سيف البحر ثلاث مراحل إلى أربع، وبُعد مسقط عن البصرة بحراً، مع الريح المعتدل، سبعة أيام، وغاية المسافة عشرة أيام. ومسقط من جملة بلاد عُمان، وبُعد بلد مطرح عن مسقط نصف ساعة، وبُعد جزيرة البحرين عن مسقط بحراً، مع الريح المعتدل، سبعة أيام. وبُعد نجد عن جزيرة البحرين بحراً سبع ساعات، وبراً ثماني مراحل، وبُعد الاحساء عن جزيرة البحرين براً مرحلة ونصف مرحلة، وبحراً سبع ساعات، وبُعد المدينة المنورة عن القصيم، من محال نجد، ثماني عشر مراحل، (والقصيم اثنتا عشرة مرحلة) وبُعد جدة عن البصرة بحراً، في المراكب الدخانية، خمسة عشر يوماً، وأما في المراكب الريحية، مع الريح المعتدل، فشهر تقريباً،

ومع إختلاف الارياح فشهران، أو أكثر، وبعـد عمـان عـن الاحسـاء أدنـاه ثـلاث عشرة مرحلة، وهو الأدنى من اليمن، وأقصاه عن نجد خمس وعشرون مرحلة.

الباب الرابع

في بيان عشائر نجد وغيرها من القبائل العربية من سكان البادية

فمن أعظم عشائر نجد مطير، وهي عشيرة كبيرة، كثيرة العدد، في غاية القوة والشجاعة، وعدد قبائلها كثيرة منها: قبيلة الدرويش، والمرهمة، وجيلان، وذوي عون، والملاعية، ومسيلم، وبرية، والمريخات، والهوامل. فهؤلاء كبار قبائل مطير، والمشهور فيما بينهم أنهم من قحطان، والذي ذكره صاحب نهاية الأرب أنهم بطن من بني طسم، من العماليق، من العرب العاربة، كانت مساكنهم مع قومهم من بني طسم بيثرب، إلى أن أخرجهم منها بنو اسرائيل، وشيخهم الأكبر في هذا العصر ماجد الدويس.

ومن أعظم عشائر نجد العجمان، وهم في غاية القوة والكثرة والشجاعة، ويتفرعون إلى قبائل كثيرة منها: آل معيض، وآل حبيش، وآل سليمان، والهتلان، وآل محفوظ، والضاعن، والشامر، وآل مصرع، والشواولة، وآل مفلح، وهم من قحطان، وشيخهم الأكبر في هذا العصر ابن خليل.

ومن أعظم عشائر نجد آل مرة، وهم من أهل القوة والشجاعة والكثرة، ولهم قبائل كثيرة منها: آل جابر، وآل عذبة، والغفران، وآل علي وغير ذلك، وشيخهم الأكبر في هذا العصر فيصل المرضف، وهم مع العجمان على حد واحد. ولم أقف على كونهم من بني مرة، بطن من الأوس من الأزد من قحطان، أو من بني مرة، بطن من بكر بن وائل من عدنان، أو من بني مرة بطن من ذبيان من العدنانية.

ومن أعظم عشائر نجد عتيبة، وهي عشيرة في غاية الكثرة والقوة والشجاعة، وهي فرقتان الرومة وبرقا، وتتشعب هاتان الفرقتان إلى قبائل كثيرة جداً،

وشيخهم الأكبر في هذا العصر مصلط بن ربيعان، وهم على ما ذكره صاحب نهاية الأرب بطن من جذام القحطانية، بنو عتيبة بن أسلم بن مالك بن شنوة بن بلبل بن جشم بن جذام. (والذي ذكره أهل اللغة: عتيب بن أسلم بن مالك بن شنؤة بن تدين). قال أبو عبيد: وهم اليوم ينسبون في بني شيبان، فيقول عتيبة بن عوف بن شيبان، قال واليهم: ينسب جعرة عنيت بالبصرة. قال الجوهري: أغار عليهم بعض الملوك، فسبي الرجال فكانوا يقولون: إذا كبر صبياننا لم يتركونا حتى يفتكوا لنا، فلم يزالوا عنده حتى هلكوا، فضربت بهم العرب مثلا فقالوا: أودى عتيب (وفي الاصل عنيت وهو خطأ) وفي ذلك يقول الشاعر:

ترجيها وقد وقعت بقوم كما ترجو اصاغرها عتيب

(الشعر غلط أيضاً، في الأصل إذ ذكر بغرء . . . وعثيث).

ومن أعظم عشائر نجد قحطان، وهم في غاية الكثرة والقوة والشجاعة والإقدام، وقبائلهم كثيرة منها: السمر، والعاصم، والخنافرة، والروقة، والسعيد، والحمالة، والمجمل، وعبيدة. وهم أكثر من نصف قحطان، وشيخهم محمد بن هادي، ومساكنهم في نجد في جهة الجنوب عن بلدان عسير.

ومن أعظم عشائر نجد سبيع، وهم من أهل الكثرة والقوة والشجاعة، ولهم قبائل كثيرة منها الجمالين، والعرينات، والنبطة، والحملة، والجمور، وآل علي، والعذارية، والعبادي، والصنعة، ومليح، والقرينات، والعزة، وشيخهم عسا، وقيل وهم من بني عامر بن صعصعة من العدنانية.

ومن أعظم عشائر نجد الشهول، وهم في غاية القوة والشجاعة، ولهم خمس قبائل كثيرة العدد، وشيخهم بن معدل، وهم بنو سهل، بطن من بني بحر من لخم من القحطانية.

ومن أعظم عشائر نجد الدواسر، وهم خلق كثير، حاضرة وبادية، في غاية القوة والشجاعة والكثرة والعنف، وقبائلهم التي في البادية كثيرة منها: المساعرة، وآل بريدة، وآل أبوسباء، والمخاريم، والرجبان، والخبيلات، والشراقا، والعيثيان، واجل أبي حازم، وآل عمار، وشيخهم أبو قويد. قال في نهاية الأرب: وهم بطن من العرب باليمن، ولم ينسبهم إلى أحد. وأما بنوا خالد فكانوا أمراء الاحساء، فتغلب عليهم ابن سعود، وأخذ منهم الاحساء، وهم قبائل منهم: المباشير، والجبور، والمشيخة في آل حميد، أهل كرم وشجاعة، ومن مشايخهم الكرام: ابن عريعر المشهور، ولم اقف على كونهم من بني خالد بطن من بني قحطان، أو من بني خالد بطن من عامر بن صعصعة من عدنان، أو من بني خالد بطن من غزية طيء من قحطان، أو من بني خالد عرب حمص بطن من بني مخزوم من قريش، وهم رهط خالد بن الوليد الصحابي رضى الله تعالى عنه. لكن الحمداني قال: عرب حمص يدعون النسب إلى خالد بن الوليد، وقد أجمع أهل العلم بالنسب على إنقراض عقبه. ثم قال: إنهم من أحلاف آل فضل، عرب الشام، على ما نقله صاحب نهاية الأرب. فهذه عشائر بادية نجد، ولا يحصي عددها إلا الله تعالى.

وأما حرب فهم عرب بادية المدينة المنورة، وينقسمان إلى قبيلتين: بني علي، ومسروج وتتفرع هاتان القبيلتان إلى قبائل كثيرة، وبطون عسرة الاحصاء لكثرتها، أو زيادة شعوبها، وهم في الكثرة وزيادة البطون، مثل عشيرة عنيزة، ومع كثرتهم فهم أهل قوة وشجاعة، ولم اقف على كونهم من حرب بطن من الصبر من غسان من الازد من قحطان، أو من حرب بطن من بكر بن وائل من عدنان، أو من حرب بطن من بني حاشد من همدان من القحطانية، ومن حرب بطن من جهلان من القحطانية، والله أعلم، وقد يوجد في نواحي الحجاز في أطراف مكة والمدينة بعض من عتيبة والبغوم.

وأما هذيل فهم في جهة مكة خاصة، وهم بطن من خندف من مضر، وقد يوجد بعض من حرب في جهة مكة. وأما ثقيف ففي الطايف، وهم من هوازن من العدنانية، وزعم بعض النسابة أن ثقيفاً من بقايا ثمود. وكان الحجاج إذا سمع ذلك يقول: كذبوا، قال الله تعالى: وثمود، فما أبقى أي أهلكهم، وما أبقى منهم أحداً. قال في الحمير وثقيف: بطن متسع، ومنازلهم بالطائف، وهو مدينة من أراضي نجد على مرحلتين من مكة، في شرقها أو شمالها، وكانت في القديم للعمالقة، ثم نزلها ثمود، وقيل بل سكنها بعد العمالقة عدوان، ثم غلبهم ثقيف وسكنوا فيه، وهو الآن مسكنهم، أنتهى. وقيل ثقيف موالي لهوازن، وقيل أنهم من أياد بن نزار بن مضر، ومنهم الحجاج بن يوسف الثقفي عامل عبدالملك بن مروان في العراق، الجائر المشهور. وأما عرب عُمان فهم قبائل كثيرة أشهرها: المناصير، ونعيم والسعد، وكل من هؤلاء القبائل يتفرع إلى بطون كثيرة. والله أعلم بعدتهم، وهم بعضهم من الأزد نزلوا عُمان لما تفرق الأزد، حين أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم.

وعرب بادية اليمن كثيرون، وأشهر قبائلهم: غامد، وزهران، وبجيلة، وأسعد، وشهران، وزبيد، وبعضهم من (سام)، وكلهم من قحطان، ويتفرع من كل من هؤلاء العشائر بطون كثيرة، وعرب جزيرة البحرين والقطيف وهجر من ربيعة وغيرهم. وجميع منْ تقدم من قبائل العرب فهم من ذوي النسب المعتبر لديهم.

وأما العرب الساقطون، من الإعتبار المطعون فيهم المحتقرون، والنازل لدى العرب النجباء فهم ثلاثة عشائر: الصليب، والعوازمة، والرشائدة.

الباب الخامس

في بيان نسب ابن سعود أمير نجد، مع بيان بعض احواله ومنشأه ورسم حكومته وصور مكاتباته إلى أهل بلدان نجد

فأما نسبه، فهو أن الأمير في هذا العصر عبد الله بن فيصل بن تركي بن عبد الله بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع المريدي العنزي، وهو من مشايخ عنزه، وكان مانع المريدي المذكور جد آل مقرن، وآل وطبان، يسكن في بلد الدروع من نواحي القطيف، ثم صار بينه وبين أدرع، رئيس حجر اليمامة من بني عمّه، مراسلة ومواصلة لما بينهما من الرحم، فاستدعاه ابي أدرع إلى القطيف، وأعطاه من ملكه أرض المليبد، وغصيبة لآل يزيد من آل دغير من بني حنيفة، الموجودين اليوم إلى ما دون الجبيلة، إلى الابكين، إلى حريملا لحسن بن طوق جد أل معمر. ثم ولد المانع المذكور ربيع، وصارت له صولة، وأتسع ملكه، وحارب آل يزيد، ثم ظهر بعد ذلك ابنه موسى، وصارت له شهرة أعظم من أبيه ربيعة، وإستولى على الملك في حياة أبيه، وصارت له وقعة مع آل يزيد، وجرح جراحاً كثيرة، وضيقوا عليه وإحتال على قتل أبيه ربيعة، فجرحه جراحات كثيرة، وهرب ربيعة إلى أحمد بن حسن بن طوق، رئيس العيينة فأجاره وأجله وأكرمه، لما بينهما من سابقة المعروف.

ثم أن موسى جمع جموعاً من المبردة وغيرهم، ممن كان عنده وهم من المؤلفة، وأغار على آل يزيد صباحاً في النعيمة الوصيل، وتحاربوا فصارت الغلبة لموسى، فقتل من آل يزيد أكثر من ثمانين رجل، واستولى على ملكهم ومنازلهم ودمرهم،

ولم تقم بعد ذلك لآل يزيد قائمة، وكان يضرب المثل بهذه الواقعة. ويُقال صبحهم مثل صباح الموالفة لآل يزيد، وأستمر موسى بن ربيعة في الولاية إلى أن توفي، فتولى ابنه إبراهيم إلى أن توفي، وتولى ابنه مرخان، وكان لمرخان ولدان ربيعة ومقرن. فأما ربيعة فولده وطبان، وهو جد آل وطبان الساكنين في قصبة سيدنا الزبير رضي الله عنه، ولوطبان المذكور عدة أولاد ذكور، قيل إنهم أربعة عشر ولداً ذكراً، من خرمان أبو زيد الذي تولى الدرعية قبل لآل مقرن، وغدره محمد بن حمد بن عبد الله بن معمر، الملقب بخرفاش، فقتله وقتل دغيم بن فائز المليحي، وكان معهما محمد بن سعود من آل مقرن، فهرب ونجا. ثم بعد ذلك استقل بالدرعية واستولى أولاده على جميع نجد، وهم آل مقرن الذي منهم ابن سعود المشهور، ومنهم محمد بن وطبان جد آل ثاقب، وقد جرى بين أل وطبان قطيعة وسفك دماء. ويجتمع آل مقرن وآل وطبان في مرخان، وهما يجتمعان مع أهل خرما وأهل أبي الكباش في إبراهيم بن موسى المذكور، وقتل وطبان المذكور ابن عمه مرخان بن مقرن، وهرب من نجد. قيل وأتى إلى قصبة الزبير رضي الله عنه قرب البصرة. وأما مقرن بن مرخان بن إبراهيم جد آل سعود المشهورين، فله من الأولاد محمد وعياف وعبد الله، فمحمد جد آل عياف. فآل مقرن هم: ذرية محمد، وذرية عبد الله، وذرية عياف، وذرية مرخان الذي قتله عمه وطبان. وخلف محمد بن مقرن من الأولاد مقرناً وسعود، فمقرن هذا ليس له عقب إلا عبد الله، الذي جعله عبد العزيز بن محمد بن سعود أميراً في الرياض، حين تغلب عليها. وأما سعود فله عدة أولاد منهم: محمد، ومشاري، وثنيان، وفرحان، فمحمد هو الذي استقل بالدرعية، وكذا أولاده من بعده إلى عصرنا هذا، وهو الذي أوى الشيخ محمد بن الشيخ عبد الوهاب عالم نجد المشهور. فإنه لما كان في بلد العينية عند عثمان بن معمر، ورأى منه الجفا قصد محمد بن سعود المذكور، فآواه وأيده وأمتثل أمره، وجهز الجيوش لنصر دعوته، وترويج طريقته المشهورة

بالوهابية. ومشارى بن سعود بن مجمد بن مقرن هو الذي أيد أخاه محمد بن سعود في نصره الطريقة الوهابية، وكذا ولده حسن بن مشاري فأنه قاد السرايا، وقاتل في الحصون والبلدان والقرابا مع ابن عمّه عبد العزيز بن محمد بن سعود، وله أولاد فرسان شجعان قتلوا في حرب إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، والي مصر لما حاصر الدرعية، وكذا ابنه عبد الرحمن، وخلف عبد الرحمن ولداً اسمه مشاري، الذي قتل ابن عمّه تركي أمير نجد.

وأما ثنيان بن سعود بن محمد بن مقرن فأنه كان أعمى، ولكن كان مفتوح البصيرة لفرط ذكائه، وكان مستشاراً لأخيه الأمير محمد بن سعود بن مقرن في الأمور، ومن ذريته عبد الله بن ثنيان بن إبراهيم بن ثنيان المذكور، وفيصل بن ناصر بن عبد الله بن ثنيان المذكور، ومحمد بن يوسف بن ثنيان الذي كان في مصر، ثم جاء إلى ابن عمّه فيصل أمير نجد.

وأما فرحان بن سعود بن محمد بن مقرن فليس من ذريته إلا سعود بن إبراهيم بن عبد الله بن فرحان، والباقون من جميع آل مقرن إنما هم ذرية محمد بن مقرن جد آل سعود، أمير نجد في هذا العصر، وذرية أخيه عياف بن مقرن جد آل عياف المذكورين. ولنرجع إلى أولاد محمد بن سعود بن محمد بن مقرن جد آل سعود، أمراء نجد، فخلف محمد بن سعود بن عبد العزيز، وهو الذي قاد الجيوش لنصرة الطريقة الوهابية، وبلغت سراياه وعماله أقصى بلاد نجد، وزالت به الحروب التي كانت تقع بين قبائل نجد، وحصل الأمن والأمان في البادية والحضر، وكانت الأبل والخيل والأنعام ترعى في الصحارى وتلد، وليس عندها سوى رجل واحد، ولا يستطيع أحد من قبائل العرب أن يأخذ منها شيئاً.

ثم خلف عبد العزيز سعوداً، وهو ايضاً قد قاد الجيوش على الخيل العتاق، والركائب النجب وأذعنت له صناديد العرب، وذلت له رؤساؤهم، إلا أنه اخطأ

خطأ عظيماً في منع الناس عن الحج، وفي الخروج على السلطان، وأنهم غالوا في تكفير من خالفهم، ولو كان من أهل السنّة والجماعة، وشددوا في بعض الاحكام، التي لم يرد الشرع بتشديدها، وحملوا أكثر الأمور على ظاهرها، وكذا غالت الناس في القدح عليهم، والإنصاف الحالة الوسطى، إلا التشديد الذي ذهب إليه علماء نجد وعامتهم من تسمية غاراتهم على المسلمين بالجهاد في سبيل الله، ومنعهم الحج.

وأما ما ينسب إليهم من إعتقاد النبي ﷺ كالجماد في قبره، والعياذ بالله، فحسب ظني بقوة إسلامهم، أنه لا أصل له، بل مفترى عليهم، ولا التساهل الذي عليه عامة أهل العراق والشامات وغيرهما من الحلف بغير الله تعالى، وبناء الأبنية المزخرفة بالذهب والفضة والألوان المختلفة على قبور الصالحين، والنذر لهم وغير ذلك من الأمور، التي نهى عنها الشارع ﷺ. الحاصل، أن الإفراط والتفريط في الدين ليس من حق المسلمين، وحقهم إتباع ما عليه الأئمة الأربعة المجتهدون، الذين على طريقة السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم وأكبر التابعين، والتجاسر على تكفيرهم بعضهم بعضاً، والعياذ بالله تعالى يوجب غضب الله تعالى، ومهما أمكن في حق المسلم الذي صدر منه ما يخالف ظاهر الشرع، فاللازم تأويله بوجه حسن، لأن المؤمنين اخوة، فأن لم يكن التأويل فحينئذ يحكم بما يقتضيه الشرع المبين من التكفير والتفسيق.

ثم خلف سعود بن عبد العزيز عبد الله، وهو الذي استولى عليه الوزير الغضنفر إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، والي مصر، وحبسه وذهب به إلى مصر، ثم أرسله إلى إستانبول في أيام الغازي محمود خان وأمر بضرب عنقه في ميدان جامع السلطان بايزيد. بين ملأ الناس وعبد الله المشار إليه، وأن كان قد علم كأسلافه القبائل أحكام الدين، وأمرهم بقيام الجماعات في الأوقات الخمسة، بحيث لا يختلف أحد منهم في بلاد نجد عنها إلى عصرنا هذا، إلا أنه قد أخطأ في تجاسره

على بلاد السلطان، الذي هو إمام العصر وخادم الحرمين الشريفين، ولو إكتفى بنجد وما يليه من عمان وجزيرة البحرين وغيرهما، لاستقام أمره، وفاز بعمله أحكام الدين للقبائل، التي كالأنعام بل أضل سبيلا. وخلف سعود بن عبد العزيز أيضاً: فيصلاً، وناصراً، وتركياً، وإبراهيم، وسعداً، وفهداً، ومشارياً، وعبد الرحمن وعمراً، وحسناً.

وأما فيصل فقد قتل في حرب الدرعية، بعد أن بارز، وحصلت لهم الشهرة، وكذا قتل إبراهيم في تلك الحرب، وناصر وتركي ماتا قبلهما، وسعد وفهد ومشاري وعبد الرحمن وعمر وحسن نقلهم إبراهيم باشا إلى مصر مع أولادهم ونسائهم وماتوا هنالك.

رجعنا إلى محمد بن سعود، فمن ابنائه عبد الله، وهو الذي قوى أخاه عبد العزيز، وقاتل معه أشد القتال، وقاد الفرسان والابطال، وحصلت له الشهرة العظيمة، فكم كتيبة كرَّ عليها وفرقها، وقل جمعها ومزقها، وهو من المشهورين بالشجاعة والإقدام. ثم قام ابنه تركي بن عبد الله الشجاع، الذي قاد القبائل إلى طاعته، وأمرهم بالقيام بأركان الإسلام، بعد أن تهاون أكثرهم بالصلاة، وأفطروا في رمضان، وعادوا إلى ماكانوا عليه في سالف الزمان من شعار الجاهلية، فحاربهم وقاتلهم حتى انضووا بقيام الطاعات. ثم قام مقام ابنه فيصل بن تركي، وهو الذي فرَّ من حبس مصر، واستولى على بلاد نجد، وأخذه من عبد الله بن ثنيان مع قوته وشدة بأسه، فحاربه حرباً عظيما وأخمد ناره، ودانت له القبائل والبلدان، وسكنت جنوده في نجد وعمان، وجمع في سياسته بين الشدة واللين، وكثرة عطاياه، وكان كثير الإكرام والاحترام لأهل العلم وحملة القرآن، ورحيما بالفقراء والأرامل والأيتام غير ماثل إلى سفك الدماء، وقد مدحه الشيخ عثمان قاضي نجد بقصيدة منها:

عفيف شريف النفس للفضل عارف　　　　حليم كريم سالم القلب منصف

ولفيصل بن تركي ثلاثة أولاد: عبد الله ومحمود وسعود، فأما عبد الله فهو في نجد، فذ هذا العصر، وأما محمد فهو مع أخيه عبد الله وفي طاعته، وأما سعود قد وقعت بينه وبين أخيه عبد الله منافسة، فهرب إلى العسير خوفاً من أخيه عبد الله، ثم عاد وضبط الاحساء والقطيف، وهو بصدد الإمارة في نجد، ولم يتمكن منها إلى الآن. فهذا ما يتعلق بنسب آل سعود.

وأما رسم حكومتهم فإنهم يأخذون، من أهل الحضر، من كل مائة صاع من الحبوب خمسة أصواع، ومن كل مائة صاع تمراً خمسة أصواع. وأهل البادية فلا يؤخذ منهم إلا زكاة الأبل والأغنام على الوجه الشرعي. وأما ما يكون ريعه من الأنهر. كالاحساء والقطيف، بلا سقي فيؤخذ من المائة عشرة، وقد تضيق الواردات عن مؤنة نفسه وأهله وأقاربه وعلمائه وقضاته وسائر أهل العلم في بلاده وقراه والفقراء والعاجزين عن الكسب، وغير ذلك من المصارف المرتبة على ما حدثني بذلك النجيب محمد بن عبد العزيز بن عبد الوهاب من أكابر نجد، وهو ثقة كريم. وليس لابن سعود عسكر موظف للحرب، بل إذا أراد الحرب جمع من العشائر والقبائل، ما يريد من الأعداد الكثيرة إلى مائة ألف. وأما الموظف فمقدار الف في خدمته، وخمسمائة في الاحساء، وخمسمائة في القطيف، وخمسمائة في عمان. ولعسكره قوانين ومرتبات جارية من القديم على أهل البلدان والبادية. كل يعطي ما عليه بحسب قدرته ووسعه. وقد تقاتل المائة منهم ألفاً من غيرهم، والألف آلافا لشدة شجاعتهم وبأسهم، كما ذكره الله تعالى بقوله: أولي بأس شديد. وفي بلاد نجد كثير من التجار من ذوي الثروة، وكثير منهم في نواحي البصرة، وبعضهم في الكويت، وبعضهم في الهند كالشيخ علي بن إبراهيم، وهو من ثقات الرجال الأخيار الكاملين، وقد إجتمعت به في البصرة، ويملك مقدار مائة ألف كيس فأكثر. وله عدة أملاك في نواحي البصرة عليها ابن أخيه عبد الله عبود

بن عيسى، وهو من الأخيار، وأولاد الشيخ علي المذكور في الكويت. وأما مكاتبات آل سعود إلى أهل نجد وعشائره، فصورة مكاتبة تركي ابن عبد الله كبير نجد:

بسم الله الرحمن الرحيم

من تركي بن عبد الله إلى من يقرأه من المسلمين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد، فموجب الخط إبلاغكم السلام، والسؤال من أحوالكم والنصيحة لكم، والشفقة عليكم، والمعذرة من الله إذ ولاني تعالى أمركم، والله المسؤول المرجو أن يتولانا وإياكم في الدنيا والآخرة، وأن يجعلنا ممن إذا اعطي شكر، وإذا إبتلي صبر، وإذا أذنب إستغفر، والله تعالى منعم بحب الشاكرين، ووعده على ذلك المزيد. قال الله تعالى: لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد. فالذي أوصيكم به تقوى الله تعالى في السر والعلانية. قال الله تعالى: ومنْ يطع الله ورسوله، ويخشى الله ويتقه فاولئك هم الفائزون. وجماع التقوى اداء ما افترض الله سبحانه، وترك ما حرم الله، وأعظم فرائض الله تعالى بعد التوحيد الصلاة، ولا يخفاكم ما وقع من الإخلال بها، والإستخفاف بشأنها، وهي عمود الإسلام الفارقة بين الكفر والإيمان، منْ أقامها فقد أقام دينه، ومنْ ضيعها فهو لما سواها أضيع، وهي آخر ما أوصى به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وهي آخر وصية كل نبي لقومه، وهي آخر ما يذهب من الدين، وهي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، وبعض الناس قد يسيء في صلاته، ومنهم منْ يتخلف عن الجماعة ويصلي وحده، وفي نخلة هو رحاله، والمسجد جار له. وفي الحديث لا صلاة لجار المسجد، إلا في المسجد، وهمَ النبي صلى الله عليه وسلم أن يحرق المتخلفين عن الجماعة بالنار، لولا ما فيهم من النساء والذرية. وقال ابن مسعود رضى الله عنه: لقد رأينا وما يختلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، وهذه أمور ما يخفاكم وجوبها، لكن الكبرى عدم إنكار المنكر، وتزيين الشيطان لبعض الناس، أن كلا ذنبه على جنبه. وفي الحديث لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على

يد السفيه، ولتطرئنه على الحق إطراء، وليعمنكم الله بعقابه. وكذلك الزكاة، وبعض الناس يبخل ويستخف بها ويجعلها وقاية دون ماله، والعياذ بالله، وأنتم تعلمون أنها من أركان الإسلام.

قال الله تعال:ى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما من صاحب ذهب ولا فضة ولا يؤدي حق الله منه إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح، وأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره، وكلما بردت اعيدت في يوم، كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله، أما إلى الجنة وأما إلى النار. ثم ذكر عقوبة مانعها من الابل والبقر والغنم، وكل مال تؤدي زكاته بعلم صاحبه. ونصاب الزكاة تفهمونه، وعروض التجارة مثل الزرع الذي يدخره صاحبه، ولو كان من زرع قد زكى إذا حال عليه الحول، وهو معد للتجارة، وجبت فيه الزكاة، أو تمراً وأثمانها كلما أعد للتجارة تجب فيه عند الحول، وهو يبتلي الغنى بالفقير، وطلب منكم اليسير، فمنْ أداها نرجو أن الله تعالى يقبلها ويخلفها عليه، ومنْ مكر بها فالله خير الماكرين. وكذا معاملة الربا تفهمون أنها من أكبر الكبائر، وأن مرتكبها محارب لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

قال الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا أتقوا الله، وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين، فأن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله. وقال تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعاف مضاعفة، وأتقوا الله لعلكم تفلحون. وقال تعالى: الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا، واحل الله البيع وحرم الربا، فمنْ جاءه موعظة

من ربه فإنتهى فله ما سلف وأمره إلى الله، ومنْ عاد فاولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون.

وفي الحديث، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهدية (لعلها وشاهده) فلعنهم سواء، فدل هذا الحديث على أن الرضاء بالمعصية معصية، وأن منْ لم ينكر على العاصى كالمرابى فهو مثله. وفي حديث آخر: الربا سبعون ضرباً، أيسرها مثل منْ ينكح أمه. وفي الحديث ايضاً: أربعة حق على الله أن لا يدخلهم الجنة، ولا يُذيقهم نعيمها: مدمن الخمر، وآكل الربا، وآكل مال اليتيم بغير حق، والعاق لوالديه. ومن أنواع الربا الطعام بالطعام إلى أجل، وبيع الذهب بالفضة، والفضة بالذهب، والتفرق قبل القرض، أو بيع الملح بالطعام قبل القرض. وفي الحديث: الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبرّ بالبرّ، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، يداً بيد وزناً، وتزن كيلاً بكيل، فمن زاد أو استزاد فقد أربى الآخذ والمطعم، فإذا إختلفت هذه الأجناس فبيعوا كيف شئتم، إذا كان يداً بيد، ومنه القرض، الذي يجر منفعته. وفي الحديث: كل قرض جر نفعاً فهو ربا. وكذلك قلب الدين بالدين، على المعسر إذا كان في ذمته دراهم فيعجز عن وفائها فأسلمها عليه بطعام، وهذا يشبه ربا الجاهلية، وكذلك بيع العينة وهي حرام، بأن كان عند رجل سلعة فاشتراها منه إنسان إلى أجل ثم اشتراها منه صاحبها الذي باعها بنقد دون ثمنها. وأنواع الربا لا يمكن حصرها، فيلزم المسلم الذي له معاملة أن يفهم أنواع الربا ودقائقه، لئلا يقع فيه. والجاهل يسأل العالم، والخطر عظيم يسخط الرب، ويمحق المال، فأنتم استغيثوا بالله، وتعاونوا على البرّ والتقوى، ولا تعاونوا على الأثم والعدوان. وكذلك المكاييل والموازين، وأنا ملزم لكل أمر بأن يحضر مكاييل بلده، كبارها وصغارها، وينظر فيها عن الخلل، وتكون على مكيال واحد، وكذلك تفعلون بالموازين، وتتفقدون الناس كل شهر، ولا يحل بخس المكيال والميزان، ولو كانت المعاملة مع

ذمي، كما في الحديث: أدّ الأمانة إلى منْ ائتمنك، ولا تخن منْ خانك. وكذلك تتفقدون الناس عن المعاشر الرعية، والذين يجتمعون على شرب التتن والنشوق به، وكل أهل بلد لا بد أن يرتبوا مجالس الدرس في الجوامع، فأن كانت خاربة فلابد أن يعمروها، والذي يعرف بالتخلف عن مجالس الذكر يرفعونه الينا، وأنا مطلق بالآمر بالمعروف والنهى عن المنكر. إذا كان عن علم ينصح أولاً، ويؤدب ثانياً، ومنْ عارضه من خاص أو عام فأدبه الجلاء عن وطنه، وهذا من ذمتى في ذمة كل من يخاف الله ورسوله واليوم الآخر. وأنا أشهد الله عليكم إنى برىء من ظلم منْ ظلمكم، وأنا نصرة لكل صاحب حق، وعون لكل مظلوم، وإذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداءاً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، وأعزكم بعد القلة، وآمنكم بعد الخوف بالإسلام أعطى الله ما رأيتم والسلام.

وهذه صورة مكاتبة فيصل بن تركي:

بسم ا لله الرحمن الرحيم

من فيصل بن تركي إلى منْ يقرأه من المسلمين سلمهم الله تعالى، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فموجب الخط ابلاغكم السلام، لازلتم في خير وعافية، والذي أوصيكم به تقوى الله تعالى في الغيب والشهادة، والعمل بما يرضيه، وتجنب معاصيه والمعاداة والموالاة فيه. قال الله تعالى: تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان، وأتقوا الله أن الله شديد العقاب. وأهم الأمور تعلم ما فرض تعالى سبحانه من معرفة أصل دين الإسلام وأركانه وواجباته وجميع شرائعه، ومعرفة ذلك بالكتاب والسنّة، وقوام ذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلابد في كل ناحية من طائفة متصدين لهذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما

قال تعالى: كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بـالمعروف وتنهـون عـن المنكـر، وتؤمنون بالله. وقال تعالى: ولتكن منكم أمة يدعـون إلى الخـير ويـأمرون بـالمعروف وينهون عن المنكر، واولئك هم المفلحون. وأنا مـلزم كـل مـنْ يخـاف الله سبحانه وتعالى، ويرغب في الفلاح، يأمر بـالمعروف وينهـي عـن المنكـر، وأن يكـون الآخـر مراعياً للشروط في ذلك، بأن يكون عليماً فيما يأمر بـه، عليمـاً فيمـا ينهـي عنـه، حليماً فيما يأمر به. حكيماً فيما ينهي عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه. وألزم كل أمير أن يكون عوناً لهم، وهم خاصة في الحقيقة عون له علـى مـا حمله الله تعالى من الأمانة. ويكون لديكم معلوماً أن واضع الجوائـز عـن المسـلمين الحادر (الباطن) والظـاهر إذا كـانوا معروفـين بـإداء الزكـاة مـن أموالهـم الظـاهرة والباطنة، فهي راجعة إليهم على الوجـه المشـروع،إن شـاء الله تعـالى، والمطلـوب منكم الإستقامة على هذا الدين، والإجتماع عليه. وقـد رأيتـم مـا في الجماعـة مـن المصالح العامة والخاصة، وما في التفرق من الشر في امـر الديـن والدنيـا اسـأل الله تعالى أن يمن علينا وعليكم بالقبول والعفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

ومن مكاتبات فيصل بن تركي أيضاً:

بسم الله الرحمن الرحيم

من فيصل بن تركي إلى منْ يصل إليه الكتاب من المسـلمين، وفقهـم الله تعـالى بالتمسك بالدين، الذي بعث الله بـه جميـع المرسـلين، سـلام عليكـم ورحمـة الله وبركاته. وبعد، فأن أجمع الوصايا وأنفعها الوصية بتقوى الله تعـالى. قـال تعـالى: ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكـم وإيـاكم، وأن اتقـوا الله. وتقـوى الله أن يعمل العبد بطاعة الله تعالى على نور من الله، يرجو ثواب الله، وأن يترك معصية الله على نور مـن الله، يخـاف عقـاب الله، ومعظـم التقـوى، والمصحـح لأعمالهـا توحيد الله بالعبادة. وهو دين الرسل الذي بعثوا به إلى العالمين، وهو مبدأ دعوتهم

لأممهم، وهو معنى كلمة الإخلاص: شهادة أن لا إله إلا الله، فأن مدخولها نفي الشرك في العبادة، والبراءة منه وإخلاص العبادة.

قال الله تعالى: فأعبد الله مخلصاً له الدين. إلا لله الدين الخالص، وقد بين الله تعالى هذه الكلمة في كثير من الآيات المحكمات. قال الله تعالى: وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فانه سيهدين. فهذا معنى لا إله إلا الله، وقد عبر عنها بمعناها من النفي والإثبات. قال الله تعالى: وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة. والآيات في توحيد العبادة أكثر من أن تحصر، وهذا التوحيد هو الذي جحدته الأمم المكذبة للرسل، كما قال تعالى عن قوم هود: أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا. وجحده مشركو العرب ومنْ ضاهاهم من مشركي هذه الأمة. قال الله تعالى: ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود الذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم، وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به، وأنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب. وأما مشركو العرب فأخبر الله تعالى عنهم: أنهم قالوا إجعل الآلهة إلهاً واحداً أن هذا لشيء عجاب، وإنطلق الملأ منهم أن أمشوا وإصبروا على آلهتكم أن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، أن هذا إلا إختلاق. وإحتج عليهم تعالى بما أقروا به من توحيد الربوبية، فأنه من أقوى الحجج فيما جحدوه من توحيدالآلهة، كما قال تعالى: قل منْ يرزقكم من السماء والأرض، أم منْ يملك السمع والأبصار، ومنْ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ومن يدبر الأمر، فسيقولون الله، فقل أفلا تتقون. وأكثر الناس في هذه الأزمنة وقع منهم ما وقع، من اولئك المشركين، وهم يقرأون القرآن فعموا وصموا عن هذا التوحيد وأدلته التي هي أبين في قلب المؤمن من الشمس في وقت الظهيرة، فيا من يدعي معرفة هذا التوحيد أعرف هذه النعمة وقدرها، فأنها أعظم نعمة من الله، أنعم بها

على من عرفها وعمل بها ولزمها فقابلوها بالشكر، ولا تكفروها بالإعراض عنها، وأحذروا أن يصدكم الشيطان عن ذلك وأعلموا أنه قد غلط في هذا الطريق طوائف، لهم علوم وزهد وورع وعبادة، فما حصل لهم من العلوم إلا القشر، وقد حرموا لبه وذوقه، وقلددوا أسلافاً قد ضلوا من قبل، وضلوا عن سواء السبيل. فيا لها من مصيبة ما أعظمها خسارة، ما أكبرها، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وأحذروا النفوس الأمارة، وفتنة الدنيا والهوى، فأن الأكثر قد افتتن بذلك، وظنوا أنهم قد سلموا، وما سلموا، وتمنوا النجاة، والتمني رأس مال المفلس. نعوذ بالله من سخطه وعقابه، وأنت ترى أكثر الناس معبوده دنياه، لها يوالي وعليها يعادي ولها يحب ويبغض ويقرب ويبعد، قد إستثقل بها خلق لأجله يمتهم بها. وقد ذم الله تعالى ذلك، كما قال تعالى عند ذكره قارون: إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين، وابتغ فيما آتيك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا. والصحيح أن الإيمان والعمل الصالح والإسلام والقرآن هي النعمة العظيمة، والفرح بها محمود ومحبوب إلى الله، قد أوجبه على عباده المؤمنين، كما قال تعالى: قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجتمعون.

فسر الآول بالقرآن، والثاني بالإسلام، وقال بعض الصحابة رضي الله عنهم: فضل الله الإسلام ورحمته، أن جعلكم من أهله، فلا غناه لكم عن تعلم هذا التوحيد، وحقوق من فرائض الله تعالى وواجباته، وأن يكون ذلك أكبر همكم ومحصل عملكم. ومن أهم ذلك المحافظة على الصلوات الخمس، حيث ينادى لها، كما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعون بعدهم، ولذلك عمرت المساجد وشرع الآذان فيها، كما قال تعالى: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وقوموا لله قانتين. فلابد في المحافظة من إستكمال شروطها، وأركانها وواجباتها، فمن حفظها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، والزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله تعالى، كما سبق في الآية جعلها الله تعالى طهرة للأنفس

وكتب فيه أن المطوع الذي عندك قد فعل ما فعل، وقال ما قال، فإذا وصلك كتابي فأقتله، فإن لم تقتله قطعنا خراجك الذي عندنا في الاحساء، وكان خراجه ألفاً ومائتين ذهباً وما يتبعها من الطعام والكسوة. فلما ورد الكتاب إلى عثمان لم تسعه مخالفته فأرسل إلى الشيخ محمد وأخبره بكتاب سليمان، وقال له: لا طاقة لنا بحرب سليمان. فقال له الشيخ محمد: إنك إن نصرتني ملكت نجداً، فأعرض عنه عثمان، وأرسل إليه ثانياً، بأن سليمان قد أمرنا بقتلك، ولا نستطيع مخالفته، ولا طاقة لنا بحربه، وليس من الشيم والمروءة أن نقتلك في بلادنا، فشأنك ونفسك، وخل بلادنا.

فأمر فارساً يُقال له الفريد بإخراجه من البلد، فركب الفارس جواده، والشيخ يمشي على رجليه أمامه، وليس معه إلا المروحة، وذلك في غاية الحر في فصل الصيف، فهمَّ الفارس بقتله في الطريق، فكف الله يده عنه، لما أصابه من الرعب والخوف العظيم، وخلى سبيل الشيخ.

قيل إن عثمان بن معمر هو الذي أمر الفارس بقتل الشيخ عند قبر أخيه، وكذب بعضهم ذلك، فسار الشيخ محمد إلى الدرعية، وكان ذلك في سنة الألف ومائة وستين، ووصل إليها وقت العصر، فنزل في بيت عبد الله بن سويلم العزيني، فلما دخل عليه ضاقت عليه داره، وخاف على نفسه من محمد بن سعود، صاحب الدرعية، فوعظه الشيخ واسكن جأشه وروعه. قال: سيجعل الله لنا ولك فرجاً فاستقر فأراد أن يخبر محمد بن سعود بحاله، ويرغبه في نصرته، فالتجأ إلى أخويه: مشاري وثنيان ولدي سعود، وزوجته موضى بنت أبي وهطان من آل كثير، وكانت ذات عقل وفهم، فأخبروها بحال الشيخ وصفته من الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقذف الله محبة الشيخ في قلبها، فأخبرت زوجها محمد بن سعود بحاله، وقالت له إن هذا الرجل أتى إليك، وهو غنيمة وأغتنم نصرته. فقبل قولها وألقى الله تعالى محبته في قلبه، ورغبوا محمد

إعتقاد كثير منهم، ورأى في نواحي العراق الركوع والسجود لقبور الأئمة والأولياء، والطواف حولها وغير ذلك من الطاعات، التي لا تليق إلا لله تعالى، وظن أن جميع أهل العراق بهذا الإعتقاد حكم بكفرهم، إلا أن حمل الجميع على ذلك من بعض الظن لأهل السنة والجماعة، وكذا غير الغالين من الشيعة لايعتقدون في الأولياء ذلك، والعياذ بالله تعالى، إلا أنهم يقولون: نتوسل إلى الله تعالى بقرب الأولياء إليه تعالى، فهو من باب الاستشفاع بهم إلى الله تعالى، لا من باب الإعتقاد بأن الولي هو المعطي، والعياذ بالله تعالى. ولا بأس بالتوسل بالكرام عند الله تعالى إليه، بل هو يُستحب كما ورد عن النبي ﷺ : إنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أراد الاعتمار لا تنسانا يا أخي من دعائك. فأنه تشريع للأمة بطلب التوسل إلى الله تعالى في إجابة الدعاء، وإلا فعمر رضي الله عنه هو الذي يحتاج إلى التوسل بالنبي ﷺ ، كما هو ظاهر. وقد ثبت أيضاً أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان حين يستسقي يتوسل بالعباس عم النبي ويسقون. ولم ينكر عليه أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. غايته، أن العوام قد تقع منهم عبارات مبهمة ممنوعة شرعاً، ومع ذلك فقد ركز في قلوبهم وطبائعهم أن المؤثر في الأشياء كلها هو الله تعالى.

نعم، أن بعض العوام قد يعتقدون في الأولياء ما يمنع الشرع، ويؤول إلى الشرك، والعياذ بالله تعالى، ولا سيما عوام النساء، فمنع أمثال هؤلاء عن الأولياء من أهم الأمور الدينية، وكذا يمنع تزيين قبب الأولياء بالذهب والفضة، فأن الشارع نهى عن ذلك، وقال كما في الصحيح: أولئك شر الناس يوم القيامة. وأما نبأ أصل القبب على القبور فهو مكروه، كما نص عليه الفقهاء، على أن نبأ القبب المزخرفة بالذهب على قبور الصالحين يكون سبباً لفتنة العامة، وسوء إعتقادهم، وهذا لا ينافي سنية زيارة قبور الأنبياء والمرسلين والأولياء وسائر المؤمنين. وأما قوله ﷺ لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد: مسجدي هذا،

والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى. فليس المراد منه أنه لا يجوز شد الرحال إلى مكان من الأمكنة إلا إلى أحد هذه المساجد الثلاثة، وإلا لزم عدم شد الرحال إلى مكان من الأمكنة لمصلحة من المصالح، وهو باطل ضرورة، بل المراد أنه لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد التي في البلاد للعبادة فيه، إلا إلى أحد هذه المساجد لتساوي المساجد في الفضيلة، فشد الرحال إلى بعض دون بعض يستلزم الترجيح لامرجح. وقد تقرر عند علماء العربية أنه يجب، في الاستثناء المفرغ، ان يقدر المستثنى منه مقايساً للمستثنى في جنسه القريب وصفته، فيقدر في ما كسوته لباساً إلا جبة، فعلى هذه القاعدة في الحديث المذكور، وقد دل على جوازه قوله ﷺ: منْ زارني وجبت له شفاعتي، وقوله ﷺ: كنت نهيتكم عن زيارة القبور إلا فزوروها.

وروى ابن أبي شيبة أن النبي ﷺ: كان يأتي قبور الشهداء بأُحد على رأس كل حول، فيقول: السلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار، وقد أطبق العلماء الأعلام من أئمة الشافعية وغيرهم على جواز ذلك، إلا من شذ من بعض المتعصبين، كابن تيمية، فأنه مع كونه من الحفاظ قد خالف الإجماع في بعض المسائل. قال المحقق، أفضل المعاصرين، السيد ابن عابدين الدمشقي طاب ثراه، في كتاب "الجنائز من حاشية الدر المختار": وهل تندب الرحلة لها؟ كما أعتقد من الرحلة إلى زيارة خليل الرحمن وأولاده، والسيد البدوي وغيره من الأكابر الكرام، ولم أرْ منْ صرح به من أئمتنا، ومنع بعض أئمة الشافعية إلا لزيارته ﷺ، قياساً على منع الرحلة لغير المساجد الثلاثة. ورده الغزالي، بوضوح الفرق، فأن ما عدا تلك المساجد الثلاثة، مستوية في الفضل، فلا فائدة في الرحلة إليها. وأما الأولياء فأنهم متفاوتون في القرب من الله تعالى، ونفع الزائرين يحسب معارفهم وأسرارهم.

قال ابن حجر في فتاويه: ولا تُترك، لما يحصل عندها من المنكرات والمفاسد، كإختلاط الرجال بالنساء وغير ذلك، لأن القربات لا تُترك لمثل ذلك، بل على الإنسان فعلها، وإنكار البدع، بل وإزالتها أن أمكن. إنتهى. قلتُ: ويريده ما مر من عدم ترك اتباع الجنازة، وأن كان معها نساء ونائحات تأمل، إنتهى ما ذكره ابن عابدين. أقول: لعل وجه الأمر بالتأمل أن قياس الزيارة مع المفاسد والمنكرات على اتباع الجنائز، مع النساء والنائحات، قياس مع الفارق، فتصبر. والذي حملني على توجيه كلام فيصل بن تركي كبير نجد بما ذكرناه سابقاً، أنه من أهل السنّة والجماعة، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه. ومذهب أحمد إستحباب زيارة القبور، كما هو مقرر من كتب الحنابلة، كالمنتهى والعمدة وغيرهما، وثبوت كرامات الأولياء عندهم، والتوسل بهم إلى الله تعالى، بمعنى أن يسأل من الله تعالى بحرمة الولي قضاء الحاجة، والإستشفاع بالأنبياء والمرسلين لا بمعنى أن النبي أو الولي هو المؤثر إذ لا مؤثر إلا الله تعالى، كما هو مذهب كافة أهل السنّة والجماعة من المذاهب الأربعة، وحمل كلام أمثاله على حسن من لوازم ذمة أهل الدين، من ذوي الإنصاف، على أنه قد حدثني، الثقة الكريم، محمد بن عبد العزيز بن عبد الوهاب العائدي النجدي، بأن فيصل المذكور كان من العلماء العابدين الزاهدين، وكان يقوم الليل كله بالصلاة وقراءة القرآن، وكان رحيماً رؤوفا بالناس، غير مائل إلى سفك الدماء، وحينئذ فلابد من حمل كلامه على وجه حسن، وهو لم يدع الإجتهاد، بل قلد الإمام أحمد بن حنبل، والفتوى والحكم في بلاده على مذهب ابن حنبل. وكيف يدعي الإجتهاد، هو أو قاضيهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مع تقليدهم للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه! نعم، أفتوا ببعض فتاوى ابن تيمية، التي خالف بها جمهور الحنابلة مع كونه منهم، وهذا ليس من باب الدعوى إليه، ليس من الإنصاف وحق المسلم أن يحمل

كلام أخيه المسلم على وجه حسن، فأن حسن الظن بالمسلمين من شمائل أرباب القلوب السليمة، وسوء الظن من سجايا القلوب السقيمة.

نعم، أن الأوائل من آل سعود كانوا على سوء إعتقاد، بدليل منع الحاج، هذا وباب الإجتهاد قد انسد من القرن الرابع، بل من أواخر القرن الثالث. وقد نشأ في هذه الأمة علماء فحول، جمعوا بين المنقول والمعقول، وتحروا في جميع العلوم، ولم يدعوا الإجتهاد، بل قلدوا الأئمة الأربعة لفقد شروط الإجتهاد فيهم، مع جلالتهم وعلو قدرهم، ووفور إطلاعهم على الكتاب والسنّة، وكثرة تآليفهم الباهرة: كالربيعي، والبويطي، والمرادي، والمزني، والقفال، والشيخ أبي حامد شيخ العراقين، وإمام الحرمين، وجنيد البغدادي، وحجة الاسلام الغزالي، والشيخين الرافعي والنووي، والفخر الرازي، وأبو إسحاق الشيرازي، والبغوي، والسبكي، والبيضاوي، والعسقلاني، والنركشي، والاسنوي، والماوردي، والبيهقي، والتفتازاني، والمناوي، والقسطلاني، والمحلي، والسيوطي، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وصاحب القاموس والصحاح، والعلامة ابن حجر، والعلامة الرملي وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنه، الذين لا يحصي عددهم إلا الله تعالى. ومن أصحاب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه الإمام أبو يوسف، والإمام محمد أبي الحسن الشيباني، والكرخي، وابن المبارك، والحسن بن زياد، وزفر، والسرخشي، وشمس الأئمة الحلواني، وقاضي خان، وصاحب الهداية، والقدوري، وصدر الشريعة، والطحاوي، وابن الهمام، والسيد الشريف الجرجاني، والزمخشري، والزاهدي، والباقلاني، وابن نجيم، والعيني، والديلمي، وصاحب النهر المختار، وصاحب الدرر، والشربنلالي، والمحقق عبد الحكيم الهندي وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين، الذين لا يحصى عددهم. ومن أصحاب الإمام مالك رضي الله عنه: كالخليل، وعبد الوهاب، وابن الحاجب، وبهرام الزرقاني، ومحي الدين العربي، والقيروان، والدردير، وابن عاشور أبي

الحسن الشاذلي، وأبي زيد، وابن عبد البرّ، وابن بسام، وابن خلدون، وابن بطال شارح البخاري، والبرزل،ي وابن الطيب وغيرهم من علماء الاندلس، وسائر بلاد المغرب من المتقدمين والمتأخرين، الذين لا يحصى عددهم. ومن أصحاب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: القطب السيد عبد القادر الكيلاني قدس سره، وابن قدامة، وابن الجوزي، وابن تيمية، وصاحب المنتهى، وابن رجب، ومرعي، وشارح الإقناع والمنتهى، وابن البهوتى هشام، والطوفي، والبعلي، والقنوجي، والمرداوي، وشارح الغاية، والتغلبي، والشريكي، وشهاب الدين العسكري، وابن عطوة التميمي، والحجاوي وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين، الذين لا يحصون. وكل من هؤلاء الأعلام قد بلغ من مراتب العلوم النقلية والعقلية غاية التحقيق والامعان، وملأت تآليفهم المفيدة الآفاق، ومع ذلك لم يدع أحد منهم الإجتهاد المطلق، بل هو في ربقه التقليد للأئمة الأربعة العظام. وهؤلاء المذكورون بالنسبة إلى العلماء المقلدين للأئمة الأربعة، الذين تركنا ذكرهم لعدم الإحاطة ببيانهم لوفور كثرتهم، كشذرة من شذرات (نحر)، بل كقطرة من قطرات بحر، ومن راجع كتب الطبقات التواريخ فقد علم بعض مقدارهم، وكلهم في ربقة التقليد، وهذا من أعظم الدلائل على جلالة قدر الأئمة الأربعة رضي الله عنهم، وعلو منزلتهم في العلم، ولشرفهم وكرامتهم فهم أئمة الهدى، وأعلام التقى جزاهم الله عنا خير الجزاء وشكر سعيهم. وأما منع فيصل شرب التتن فهو مبنى على ما ذهب إليه بعض الفقهاء من التحريم، والخلاف فيه شهير، والكثيرون على إباحته، إذ لم يرد نص في حرمته، والأصل في الأشياء الإباحة، ما لم يرد دليل الحرمة، ولا دليل عليها. والقياس ليس من وظيفتنا، معاشر علماء النقل، فأن العالم في هذه الأزمنة منْ فهم كلام العلماء المتقدمين وكتبهم، وله الفخر بذلك. ودعوى الاسكار في التتن مكابرة وتعصب، كما لا يخفى على من شربه ولاحظ وجدانه.

هذا وقد حدثني، الثقة النجيب، محمد بن عبد العزيز بن عبد الوهاب العائدي النجدي، بأنه كتب الشيخ محمد بن الشيخ عبد الوهاب إلى العالم العامل الفاضل الكامل الزاهد الكريم ابن فيروز الاحسائي الحنبلي، قوله تعالى: "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله" الآية. فكتب ابن فيروز إليه: "قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد" الآيات. فكتبوا إليه يوعدونه بالقتل، فهرب ابن فيروز إلى البصرة، وتوطن بها، وإنتفع به كثير من أهل العلم كالفاضل الشيخ عثمان بن سند، والكامل المعمر الشيخ أحمد الجامع وغيرهما. وكان الشيخ ابن فيروز من أكابر العلماء العاملين، وكان صوفي المشرب. (وكان) ذا ثروة يطعم طلبة العلم من ماله، كريم الأخلاق والسجايا، وهو من المشاهير في نواحي نجد والبصرة رحمه الله تعالى، وكان ممن يقتدى به في نواحي نجد. قبل ظهور العلماء المتعصبين. فإن قصد فيصل المذكور بقوله، وقد غلط في هذا الطريق طوائف، لهم علوم وزهد وورع وعبادة، فما حصل لهم إلا القشور، وقد حرموا لبه وذوقه، وقلدوا أسلافاً قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيراً، وضلوا عن سواء السبيل. العالم العامل الشيخ محمد ابن فيروز وأمثاله من علماء الاحساء ونجد، فهو غلط منه عفى الله عنه، لأن ابن فيروز من علماء الحقيقة، وقد ذاق لب العلوم والمعرفة بالله تعالى، اللهم إلا أن يُقال لا عبرة بأمثال هذا الكلام الصادر بين العلماء، لأن منافسات أهل العلم وتجرؤ بعضهم على بعض بسوء المقال، مما شاع وذاع، عفا الله تعالى عنا وعنهم، وليس غرضي من هذا الكلام كله إلا رفع الخلاف من البين، وحمل كلام إخواننا المسلمين على وجه حسن مهما أمكن، لأن العارف من نطق بالحكمة، والله تعالى الموفق.

الباب السادس

في بيان علماء نجد وبعض الحوادث الواقعة فيه

فأشهر علماء نجد الشيخ محمدبن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن أحمد ابن راشد بن بريدة بن محمد بن بريد بن مشرف بن عمر بن بعضادر بن ريس بن زاخر بن محمد بن عامور بن وهيب التميمي النجدي، الذي تنتسب إليه الوهابية، والنسبة إنما هي إلى الشيخ محمد، لأنه الذي شيد أركان الوهابية دون أبيه، بل خالف أباه المذكور، ووقع بينهما جدال، كما سيأتي إن شاء الله تعالى، فنسبت إلى عبد الوهاب مجازاً. وابتداء أمر الشيخ محمد المذكور أنه نشأ في بلد العينية من بلاد نجد في حجر أبيه، الشيخ عبد الوهاب بن سليمان القاضي في بلد العينية، في زمن عبد الله بن محمد بن حمد بن عبد الله بن معمر المشهور، صاحب العينية التي تزخرفت في أيامه، وذلك قبل إنتقال الشيخ عبد الوهاب إلى بلد حريملة من بلاد نجد، فقرأ الشيخ محمد على أبيه الشيخ عبد الوهاب الفقه، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه. وكان الشيخ محمد المذكور في صغره كثير المطالعة، لكتب التفسير والحديث والعقائد، وأظن كثرة مطالعة الكتب بدون مراجعة العلماء الأسانيد والأخذ عنهم هو الذي حمله على التعصب، الذي شاع عنه، فأن العلم بالتلقي والإستقلال في الرأي يوقع في المهالك، ومخالفة الجمهور، وخرق الإجماع. فصار ينكر على أهل نجد كثيراً من الأمور، فلم يسعفه على ذلك أحد، وأن إستحسن إنكاره بعض الناس، فسافر من بلد العيينة إلى حج بيت الله الحرام، فلما قضى نسكه سار إلى المدينة المنورة، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فأخذ فيها عن الشيخ العالم عبد الله بن إبراهيم بن يوسف من آل سيف، رؤساء بلد المجمعة المعروفة في ناحية سدير من نجد، والشيخ عبد الله

المذكور هو والد الشيخ إبراهيم مصنف كتاب العذب الفائض في علم الفرائض. وأنكر الشيخ محمد المذكور إستغاثة الناس وإستشفاعهم بالنبي ﷺ عند قبره المنور، ولم يتنبه لكونه ﷺ هو الواسطة العظمى والوسيلة الكبرى إلى الله تعالى، في الدنيا والآخرة، وأنه لا فرق في الإستشفاع به ﷺ في الدنيا والآخرة، وفي حياته وبعد مماته، والكل على حد سواء، وقد أطبق جمهور الأعلام على أنه ﷺ يرزق في قبره وأنه حي.

وورد أنه تعرض عليه أعمال أمته، وما المانع من ذلك، وما المحذور والله الموفق للصواب. ثم رحل من المدينة المنورة إلى نجد، ثم رحل إلى البصرة يريد الشام، فلما وصل إلى البصرة أقام فيها مدة، وأخذ فيها عن العالم الشيخ محمد المجموعي، من أهل المجموعة، محلة من محلات البصرة، فأنكر أيضاً أشياء كثيرة على أهل البصرة، فأحس الناس به، فآذوه وأخرجوه من البصرة، وقت الهجيرة، ولحق بعض الأذى بالشيخ محمد المجموعي أيضاً، لمأواته للشيخ محمد النجدي المذكور، فلما خرج محمد بن عبد الوهاب النجدي هارباً من البصرة، وتوسط الطريق فيما بين البصرة وبلد الزبير رضي الله عنه وقت الصيف في شدة الحر، وكان ماشياً على رجليه كاد أن يهلك من شدة العطش، فوافاه رجل من أهل بلدة الزبير يُقال له أبو حميدان ووجده من أهل العلم، وسقاه الماء وحمله على حماره حتى أوصله إلى بلد الزبير رضي الله عنه. ثم أن الشيخ محمد النجدي المذكور أراد السفر فضاق زاده، فأنثنى عزمه عن المسير إلى الشام، فقصد الاحساء، فنزل بها عند الشيخ العالم عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي الاحسائي. ثم خرج من الاحساء وقصد بلد حريملة من بلاد نجد، وكان أبوه الشيخ عبد الوهاب قد إنتقل إليها من بلد العيينة في سنة تسع وثلاثين ومائة والف، بعد وفاة عبد الله بن معمر صاحب العيينة، بالوباء الذي وقع في العيينة، فأفناها وتولى فيها بعده ابن ابنه محمد بن أحمد الملقب بخرفاش، ووقع بينه

وبين الشيخ عبد الوهاب منازعه، فعزل الشيخ عبد الوهاب عن قضاء بلد العبينة، وجعل مكانه أحمد بن عبد الله بن عبد الوهاب بن عبد الله النجدي قاضياً، فأنتقل الشيخ عبد الوهاب إلى بلد حريملة، ولما وصل الشيخ محمد إلى بلد حريملة لازم أباه الشيخ عبد الوهاب وقرأ عليه ثانياً، وأظهر الإنكار على أهل نجد في عقائدهم، فوقع بينه وبين أبيه الشيخ عبد الوهاب المذكور منازعه وجدال، وكذلك وقع بينه وبين الناس في بلد حريملة جدال كثير، فأقام على ذلك مدة سنين، حتى توفي أبوه الشيخ عبد الوهاب رحمه الله تعالى سنة ثلاث وخمسين ومائة والف.

ثم أعلن محمد بن الشيخ عبد الوهاب بالدعوة، والإنكار على الناس، وتبعه الناس من أهل حريملة، وأشتهر بذلك، وكان رؤساء بلد حريملة قبيلتين، أصلهما قبيلة واحدة، وكل منهما يدعي الرئاسة، وليس في البلد رئيس يحكم على الجميع، وكان لاحدى القبيلتين عبيد يُقال لهم الحميان، وهم من ذوي الكثرة والفساد، فأراد الشيخ محمد المذكور منعهم عن الفساد والفسق، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، فهم العبيد ليلاً بقتل الشيخ المذكور خفية، فلما تسوروا عليه من وراء الجدار علم بهم بعض الناس، فصاحوا بهم وهربوا.

فأنتقل الشيخ محمد من حريملة إلى بلد العبينة، ورئيسها يومئذ عثمان ابن حمد بن معمر، فتلقاه بالقبول وأكرمه، وحاول نصرته. وقال لعثمان المذكور: أنا أرجو إن أنت أستقمت بنصر لا إله إلا الله أن يظهرك الله تعالى، وتملك نجداً وأعرابها، فساعده عثمان، فأعلن الشيخ محمد بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشدد في النكير على الناس، فتبعه بعض أهل العبينة، وقطع أشجاراً كانت تعظم في تلك النواحي، وهدم قبة زيد بن الخطاب رضي الله عنه عند بلد الجميلة، فعظم أمره فبلغ خبره إلى سليمان بن محمد بن عزيز الحميدي، صاحب الاحساء والقطيف وما حوله من العربان، فأرسل سليمان المذكور كتاباً إلى عثمان،

وكتب فيه أن المطوع الذي عندك قد فعل ما فعل، وقال ما قال، فإذا وصلك كتابي فأقتله، فإن لم تقتله قطعنا خراجك الذي عندنا في الاحساء، وكان خراجه ألفاً ومائتين ذهباً وما يتبعها من الطعام والكسوة. فلما ورد الكتاب إلى عثمان لم تسعه مخالفته فأرسل إلى الشيخ محمد وأخبره بكتاب سليمان، وقال له: لا طاقة لنا بحرب سليمان، فقال له الشيخ محمد: إنك إن نصرتني ملكت نجداً، فأعرض عنه عثمان، وأرسل إليه ثانياً، بأن سليمان قد أمرنا بقتلك، ولا نستطيع مخالفته، ولا طاقة لنا بحربه، وليس من الشيم والمروءة أن نقتلك في بلادنا، فشأنك ونفسك، وخل بلادنا.

فأمر فارساً يُقال له الفريد بإخراجه من البلد، فركب الفارس جواده، والشيخ يمشي على رجليه أمامه، وليس معه إلا المروحة، وذلك في غاية الحر في فصل الصيف، فهمَّ الفارس بقتله في الطريق، فكف الله يده عنه، لما أصابه من الرعب والخوف العظيم، وخلى سبيل الشيخ.

قيل إن عثمان بن معمر هو الذي أمر الفارس بقتل الشيخ عند قبر أخيه، وكذب بعضهم ذلك، فسار الشيخ محمد إلى الدرعية، وكان ذلك في سنة الألف ومائة وستين، ووصل إليها وقت العصر، فنزل في بيت عبد الله بن سويلم العزيني، فلما دخل عليه ضاقت عليه داره، وخاف على نفسه من محمد بن سعود، صاحب الدرعية، فوعظه الشيخ واسكن جأشه وروعه. قال: سيجعل الله لنا ولك فرجاً فاستقر فأراد أن يخبر محمد بن سعود بحاله، ويرغبه في نصرته، فالتجأ إلى أخويه: مشاري وثنيان ولدي سعود، وزوجته موضى بنت أبي وهطان من آل كثير، وكانت ذات عقل وفهم، فأخبروها بحال الشيخ وصفته من الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقذف الله محبة الشيخ في قلبها، فأخبرت زوجها محمد بن سعود بحاله، وقالت له إن هذا الرجل أتى إليك، وهو غنيمة وأغتنم نصرته. فقبل قولها وألقى الله تعالى محبته في قلبه، ورغبوا محمد

ابن سعود، فلما دخل عليه في بيت ابن سويلم رحب به، وقال: ابشر بالخير والعز والمنعة، فقال له الشيخ: وأنا ابشرك بالعز والتمكين والغلبة على جميع بلاد نجد، وهذه كلمة لا إله إلا الله، منْ تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد، وهي كلمة التوحيد، وأول ما دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم. ثم أخبره الشيخ بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما دعا إليه، وما عليه أصحابه رضى الله عنه من بعده، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله تعالى، وبأن كل بدعة ضلالة، واخبره أيضاً بما عليه أهل نجد من البدع والجور والإختلاف والظلم.

فلما تحقق محمد بن سعود المصالح الدينية والدنيوية فيما ذكره الشيخ قبل ذلك، وقال له: أيها الشيخ إن هذا دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، الذي لا شك فيه، فابشر بالنصرة لما أمرت به من الجهاد مع منْ خالفك، ولكن أشترط عليك شرطين: الأول: إنا إذا قمنا بنصرتك، والجهاد في سبيل الله تعالى، وفتح الله لنا البلاد فلا ترحل عنا، ولا تستبدل بنا غيرنا. والثاني: إن لي على أهل الدرعية خراجاً آخذه منهم وقت الثمار، فلا تمنعني عن أخذه منهم. فقال له الشيخ: أما الأول، فأمدد يدك، فمدها وقبضها، وقال له: الدم بالدم والهدم بالهدم، وأما الثاني، فلعل الله تعالى أن يفتح لك الفتوحات، فيعوضك من الغنائم ما هو خير منه. فبايع محمد بن سعود الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى إقامة الشعائر، فقام الشيخ ودخل معه البلد، فلما أستقر بالدرعية أتى إليه من البلاد منْ كان ينتسب إليه من رؤساء المعامرة وغيرهم، وهاجر إلى الدرعية ممنْ حول عثمان بن معمر من الناس، لما علموا نصرة الشيخ. فلما علم عثمان بن معمر صاحب العيينة أن محمد بن سعود قد نصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأن أهل الدرعية أيدوه وأن أمره قد تأيد ندم على ما فعل، من إخراج الشيخ محمد من الاحساء، وعدم نصرته

وخاف على نفسه من عواقب الأمور. فركب مع عدة رجال من أهل العيينة ورؤسائها، وسار إلى الشيخ محمد ابن الشيخ عبد الوهاب، فلما قدم على الشيخ المذكور جادله على الرجوع معه، ووعده بالنصرة. فقال الشيخ الأمر مفوض إلى محمد بن سعود، فإن رخصني على الرجوع معك فقد ذهبت معك، وإن أراد الإقامة عنده أقمت، ولا أستبدله بغيره، وقد تلقاني بالترحيب والقبول والنصرة، إلا أن يأذن لي. فأتى عثمان بن معمر إلى محمد بن سعود يسترخص للشيخ في الذهاب، فأبى عليه، ولم يجد عثمان إلى ما أتى إليه سبيلاً، فرجع إلى بلده، وندم ندماً عظيماً. وكان أهل الدرعية، يومئذ، في غاية الضيق والحاجة، وكانوا يحترفون لأجل معاشهم، ومع ذلك فقد كانوا يجتمعون في مجلس الشيخ لسماع الحديث والوعظ، ويلازمون على ذلك.

قال بن بشر النجدي: ولقد شاهدت ضيقهم في أول الأمر، ثم الدرعية بعد ذلك في زمن سعود، وما عند أهلها من الأموال الكثيرة، وكثرة الرجال والأسلحة المحلاة بالذهب والفضة، والخيل الجياد، والنجائب العمانيات، والملابس الفاخرة وغير ذلك من أسباب الثروة التامة، بحيث يعجز عن عده اللسان، ويكل من تفصيله البيان. ونظرت إلى موسمها يوماً في الموضع المعروف بالباطن، فوجدت موسم الرجال في جانب وموسم النساء في جانب آخر، فرأيت من الذهب والفضة، والأسلحة، والابل والغنم والخيل، والألبسة الفاخرة، واللحم والحنطة، وسائر المآكل، ما لا يمكن وصفه، والموسم ممتد مد البصر، وكنت اسمع أصوات البائعين والمشترين، وقولهم: بعتُ واشتريتُ كدوي النحل، فسبحان مَنْ لا يزول ملكه، إنتهى كلام ابن بشر.

ولما إستوطن الشيخ محمد في الدرعية، وكان أهلها في غاية الجهالة، والتهاون في الصلاة والزكاة، وشعائر الإسلام علمهم الشيخ المذكور معنى لا إله إلا الله، وأنها نفي وإثبات، فلا إله ينفي جميع المعبودات، وإلا الله يثبت العبادة لله

وحده لا شريك له، ثم علمهم أصولاً وهي: معرفة الله تعالى بآياته ومخلوقاته، الدالة على ربوبيته، وإلهيتة كالشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وسائر الأدلة: كالقرآن، ومعرفة الإسلام، وأن تسليم الأمر لله تعالى والإنقياد لأمره، والإنزجار عن مناهيه، ومعرفة أركان الاسلام، الذي بنى عليها وما عليها من الأدلة: كالقرآن، ومعرفة النبي (ص) واسمه ونسبه ومبعثه وهجرته، ومعرفة أول ما دعا إليه، وهو كلمة لا إله إلا الله، ومعرفة البعث، وإن منْ أنكره أو شك فيه فهو كافر. وما على ذلك من الدلائل، ومعرفة دين محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم، وهو التوحيد وسائر العبادات، وبالغ في منع الإستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم وأمثالها. فلما إستقر ذلك في قلوبهم بعد الجهالة تشرب في قلوبهم حب الشيخ المذكور، ثم أن الشيخ كتب إلى أهل بلاد نجد، وإلى رؤسائهم وقضاتهم يطلب الطاعة والإنقياد، فمنهم منْ أطاعه ومنهم منْ عصاه، وإتخذ سخرية وإستهزأ به، ونسبه إلى الجهل وعدم المعرفة، ومنهم منْ نسبه إلى السحر، ومنهم منْ رماه باشياء قبيحة. ثم أمر الشيخ أهل الدرعية بالمقاتلة معهم، فأمتثلوا أمره، وقاتلوا أهل نجد والاحساء دفعات كثيرة، إلى أن ادخلوهم في طاعتهم، وحصلت إمارة نجد وقبائلها جميعاً لآل سعود بالغلبة. وكان الشيخ كثير العطايا، بحيث كان يهب غنيمة الجيش مع كثرته إلى رجلين أو ثلاثة، وكانت الغنائم تسلم بيده، ثم هو يضعها حيث شاء، ويعطيها إلى منْ يشاء، ولا يأخذ أمير نجد شيئاً من ذلك، إلا بأمره، ولا يصدر جيش ولا يكون رأي للامير إلا بقوله ورأيه، وكانت طاعة أهل نجد للشيخ المذكور كطاعة القوم وإنقيادهم لأمره، وهو من الاتفاقات العجيبة، وهو عندهم بمنزلة الأئمة الأربعة رضى الله عنهم إلى الآن، وإذا ذكره أحد بسوء قتلوه. ولما فتحوا الرياض من بلاد نجد، وإتسعت بلادهم، وأمنت الطرق، وإنقاد لهم كل صعب فوض الشيخ المذكور أمور الناس وأموال الغنائم إلى عبد العزيز الأمير، وإنسلخ

الشيخ وتفرغ للعبادة وتعليم العلم، ولكن لا يقطع عبد العزيز الأمير ولا أبوه أمراً، ولا ينفذ حكمٌ إلا بإذن الشيخ عبد الوهاب.

توفي الشيخ محمد في سنة الألف ومائتين وستة، وهي السنة التي غزا فيها سعود بن عبد العزيز ناحية جبل شمر، وأخذ أهله، وكسب منهم أموالاً كثيرة، منها ثمانية آلاف بعير، وقتل منهم عدة رجال، فأخرج خمسها، وقسم الباقي على جيشه. وكان الشيخ محمد المذكور من بيت العلم في نواحي نجد، وكان ابن الشيخ عبد الوهاب عالماً فقيهاً، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه، وكان قاضياً في بلدة العيينة، ثم في بلد حريملة، وذلك في أول القرن الثاني عشر الهجري، وله معرفة تامة بالحديث والفقه وغيرهما، وله سؤالات وجوابات. وكان والد الشيخ عبد الوهاب الشيخ سليمان فقهياً، أعلم علماء نجد في زمانه، وله اليد الطولى في العلم، وإنتهت إليه رئاسة العلم في نجد. صنف ودرس وأفتى. إلا أن الشيخ محمد لم يكن على طريق أبيه الشيخ عبد الوهاب، وجده الشيخ سليمان، بل كان شديد التعصب، كثير الإعتراض على العلماء، وكان يجوز قتال من خالفه، بل يعتقد كفره. ويسمي قتال المسلمين المخالفين له جهاداً في سبيل الله تعالى، ويجعل أموالهم كغنائم الكفار، ويمنع من قصد زيارة النبي صلى الله عليه وسلم، والإستغاثة والإستشفاع به صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى، وسائر الأنبياء والأولياء، وغير ذلك مما أطبق الجمهور على جوازه، إلا مَنْ شذ كامثال ابن تيمية، والمشهور عنه أنه كان يدعي الإجتهاد المطلق والظاهر. ما ذكرناه سابقاً من أنه كان يفتي بأقوال ابن تيمية من الحنابلة، ولا يعتقد بخلاف أقواله. وبالجملة، أنه كان من العلماء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وكان يعلم الناس أحكام الصلاة، وسائر أركان الدين، ويأمر الجماعات. وقد سعي غاية السعي في تعليم الناس، وحثهم على الطاعة، وأمرهم بتعليم إصول الإسلام وشرائطه، وأحكام الصلاة وأركانها ووجباتها وسننها، وسائر أحكام الدينن وأمر

جميع أهل البلاد بالمذاكرة في المساجد كل يوم بعد صلاة الصبح وبين العشائين، في معرفة الله تعال،ى ومعرفة دين الإسلام، ومعرفة أركانه، وما ورد عليه من الأدلة، ومعرفة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ونسبه ومبعثه وهجرته، وأول ما دعا إليه من كلمة التوحيد، وسائر العبادات التي لا تبتغي إلا لله تعالى. كالدعاء والذبح والنذر والخوف والرجاء والخشية والرغبة والتوكل والانابة وغير ذلك. فلم يبق أحد من عوام أهل نجد جاهلاً بأحكام الدين، بل كلهم تعلموا ذلك إلى اليوم، بعد أن كانوا جاهلين بها، إلا الخواص منهم. وانتفع الناس به من هذه الجهة الحميدة، إلا أنه بالغ في بعض الأمور، وحمل الناس على إعتقاد عدم الشرك فيما خالفه، وحثهم على قتال المخالفين له، وأحل أموالهم. وجعل قتالهم جهاداً في سبيل الله تعالى، وصار سبباً لاظهار هذه البدع الواهية، والفتن العظيمة. وقد صنف الشيخ المذكور ابن الشيخ عبد الوهاب عدة تصانيف، منها: كتاب التوحيد، وتفسير القرآن، وكتاب الشبهات، وغير ذلك من الرسائل والفتاوى الفقهية والإصولية. أخذ عنه عدة مشائخ، منهم أبوه الشيخ عبد الوهاب، والشيخ محمد ابن حياة السندي المدني، والشيخ عبد الله سيف وغيرهم.

وقد أخبرني والدي، رحمه الله تعالى، أنه قدم إلى بغداد، وأخذ أيضاً عن العلامة النحرير جدي السيد صبغة الله الحيدري طاب ثراه، ولما رجع جدي العلامة السيد أسعد الحيدري من مكة على طريق الدرعية، إجتمع به في الدرعية وإحترم جدي المذكور غاية الإحترام، وأعزه وأكرمه سعود إكراماً لائقاً، وجلس جدي في الدرعية مقدار ثلاثة أشهر، ثم حملوه بالإحترام والإكرام إلى البصرة. وأخذ عن الشيخ عدة علماء، أولاده الأربعة: الشيخ حسين، والشيخ عبد الله، والشيخ علي، والشيخ إبراهيم. فأما الشيخ حسين فهو خليفة من بعده، والقاضي في بلد الدرعية، ولحسين المذكور عدة أولاد علماء وهم: علي، وحمد، وحسن، وعبد الرحمن، وعبد الملك. وأما الشيخ علي بن الشيخ محمد فكان عالماً في الإصول

والفروع، والحديث، والفقه، والتفسير، وكان قاضياً في حوطة بني تميم، ثم ولي القضاء في الرياض، في أيام فيصل بن تركي. وأما الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد فكان عالماً جليلاً، وله مصنفات عديدة، وهو الخليفة بعد أخيه حسين، ولي قضاء الدرعية في زمن سعود وابنه عبد الله. وأما الشيخ إبراهيم بن الشيخ محمد فكان عالماً أيضاً، ولكن لم يول القضاء. وأما حسن بن حسين فقد كان فقيهاً ولي القضاء في الرياض في زمن تركي. وعبد الرحمن بن حسن كانت له المعرفة في الفقه والتفسير والنحو وغير ذلك، ولي القضاء في ناحية الخرج، في أيام تركي وفيصل. وأما حمد وعبد الملك فكانا من طلبة العلم، وأهل الذكاء والمعرفة. وأخذ عن الشيخ محمد المذكور ابن ابنه، العالم الفاضل، الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد، وقد ولي قضاء الدرعية في زمن سعود. وابنه عبد الله أخذ العلم عن جده في صغره. وأخذ عن الشيخ محمد المذكور، والعالم الشيخ أحمد بن ناصر بن عثمان بن معيمر قاضي الدرعية، في زمن سعود. والشيخ العالم الورع الزاهد عبد العزيز بن عبد الله الحصين الناصري، وقاضي ناحيي الوشم، في زمن عبد العزيز وابنه عبد الله. والشيخ العالم الزاهد سعيد بن حجي قاضي حوطة بن تميم، في زمن عبد العزيز وابنه سعود. والشيخ العالم محمد بن سويلم، قاضي بلد الدلم وناحية الخرج، في زمن عبد العزيز وابنه سعود. والشيخ العالم عبد الرحمن بن خميس، قاضي الدرعية في زمن عبد العزيز وابنه سعود. والشيخ عبد الرحمن بن تامي قاضي بلد العيينة، ثم صار قاضياً في الاحساء، في زمن سعود وابنه عبد عبد الله. والشيخ العالم محمد بن سلطان العوسجي قاضي المحمل، ثم صار قاضياً في الاحساء في زمن سعود. والشيخ العالم عبد الرحمن بن عبد المحسن، القاضي في بلد حريملة وبلد الزلفى، في زمن سعود وابنه عبد الله. والشيخ العالم حسن بن عبد الله بن عيدان، قاضي حريملة، في زمن عبد العزيز. والشيخ العالم عبد العزيز بن سويلم، قاضي ناحية القصيم، في زمن عبد العزيز، وابنه سعود، وحفيده عبد

الله. والشيخ العالم حمد بن راشد العربي، قاضي ناحية سدير، في زمن عبد العزيز. فهؤلاء كلهم أخذوا العلم عن الشيخ محمد بن الشيخ عبد الوهاب، وأخذ عنه كثير من العلماء الذين لم يولوا القضاء. وكان الشيخ محمد المذكور مع علمه من دهاة العرب، إلا أنه شدد في بعض الأحكام، وخالف الإمام أحمد بن حنبل، وما عليه جمهور الحنابلة في كثير من المسائل. وتوفي وله من العمر اثنتان وتسعون سنة، ورثاه كثير من أهل نجد وغيرهم، ورثاه الشيخ حسين بن غنام بقصيدة طويلة. وفي سنة وفاته توفي ابن عمّه، الفقيه الكاتب، الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ إبراهيم بن الشيخ سليمان، جد الشيخ محمد المذكور. ومن علماء نجد المتقدمين على الشيخ محمد المذكور: العالم الفاضل الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب، قاضي العيينة، له من التصانيف: "زاد المستقنع"، "شرح المختصر"، و"شرح الإقناع"، و"شرح المنتهي"، و"حاشية الإقناع"، و"حاشية المنتهى"، و"كتاب العمدة". وكل ذلك على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه. أخذ الفقه والعلم عن العلامة الشيخ منصور السبهوتي، شارح الإقناع والمنتهى، والشيخ أحمد بن محمد بن بسام.

ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن إسماعيل النجدي، المشهور في بلد اشيقر، أخذ الفقه عن الشيخ أحمد بن محمد مشرف النجدي. وأخذ عنه كثير: كالشيخ أحمد بن محمد بن بسام، والشيخ عبد الله بن محمد بن ذهلان. وكان الشيخ محمد بن أحمد بن إسماعيل المذكور معاصر الشيخ سليمان، جد الشيخ محمد بن الشيخ عبد الوهاب المذكور. ومن علماء نجد: العالم الفقيه القاضي الشيخ سليمان بن علي بن مشرف، جد الشيخ محمد بن الشيخ عبد الوهاب المشهور. وكان الشيخ سليمان المذكور فقيه عصره على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه متبحراً في المذهب، وإليه إنتهت رئاسة العلم في نجد، كما سبق.

وجميع علماء نجد المعاصرين له يرجعون إليه، في حل المشكلات من الفقه وغيره. وله من التصانيف كتابان: "المفاسد"، و"شرح الإقناع"، إلا أنه لما وقف على شرح الإقناع للسبهوتي أتلف شرحه. على ما قال ابن بشر النجدي: أخذ العلم عن الشيخ أحمد بن محمد بن مشرف النجدي وغيرهن وأخذ عنه جماعة، منهم ابناه: الشيخ عبد الوهاب المشهور، وهو من مشاهير علماء نجد، والشيخ إبراهيم وغيرهما، كأمثال الشيخ أحمد بن محمد القصيري النجدي، توفي سنة تسع وسبعين وألف.

ومن علماء نجد العالم الفاضل الفقيه الشيخ حسن بن عبد الله المشهور في بلد اشيقر، كانت له معرفة بجميع فنون العلم، له تعليقات على كثير من الفنون، أخذ العلم عن الشيخ أحمد بن محمد القصير، توفي سنة ثلاثة عشر ومائة والف. ومنهم العالم الفقيه الشيخ أحمد بن محمد بن حسن ين سلطان القصير، المشهور في بلد اشيقر، أخذ العلم عن الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن إسماعيل. والشيخ الفاضل سليمان بن علي بن مشرف، أخذ عنه عدة من العلماء، كالعالم الفاضل الشيخ عبد الله بن أحمد بن محمد بن غضيب الناصري النجدي وغيره.

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف (1133هـ – 1720م) ظهر سعدون بن محمد بن عزيز الاحسائي على نجد، وحاصر آل كثير في العارض، وإظهار المدافع من الاحساء، نزل في عربا المعروفة، وحاصر بلد العمارية، حتى هزلت مواشيهم. ثم سار إلى الدرعية ونهب بيوتها، وقتل أهل الدرعية كثيراً من قومه. وفي هذه السنة ولد عبد العزيز بن محمد بن سعود المشهور. وفيها وقع الطاعون في العراق، ومات فيه مقدار مائة ألف. وفي السنة الثانية من الطاعون توفي جدنا العلامة النحرير، صاحب الإفادات والتآليف في كل فن، إمام عصره بالإجماع، سيد المدققين مولانا السيد صبغة الله الحيدري البغدادي. وفي السنة الرابعة توفى العالم العلامة العامل، وحيد دهره، وفريد عصره الشيخ عبد الله بن سالم البصري

الشافعي، وكان إمام الحديث في عصره، وما سمي علماً إلا وله القدح المعلى سهامه، توطن في مكة المكرمة، وإنتهت إليه وفيها رئاسة العلم، وصار ملجأ الوافدين في جميع الفنون، النقلية والعقلية، وله عدة تصانيف منها: "ضياء الباري شرح البخاري"، وقد درس مسند الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، في الروضة عند رأس النبي، له آثار ومناقب عجيبة، لايسع المقام بيانها. وفي السنة الخامسة مات سعدون بن محمد بن عزيز، صاحب الاحساء المذكور، وفيها عمرت منازل بني هلال، ومنازل آل بني سعيد، وآل بني سليمان في بلد الرفضة المعروفة ناحية سدير.

وبعد ذلك بمدة ظهر آل سعود في الدرعية، واستولوا على جميع بلاد نجد والاحساء والعسير وجبل شمر، وإنقادت لهم القبائل والبلاد، وحصل من أمرهم ما هو مشهود وغني عن البيان، وصولتهم على بلاد نجد والاحساء والقطيف وعمان إلى الآن موجودة، وجميع قبائل تلك النواحي في طاعتهم وملازمتهم للجمعة والجماعات والعبادات، غير منفكة عنهم، وأحكام الشرع جارية عندهم، وقوتهم غالبة، ومع ذلك فهم ليسوا مصرين على التشديدات الأولى.

خاتمة

تشتمل على مباحث شتى

اعلم أن أرض العرب، وهي من حد الشام والكوفة إلى أقصى اليمن، وقد نظمها بعضهم وحدها طولاً وعرضاً، بقوله:

جزيرة هذه الأعراب حدت   بحد عمره للحشر باقي
فأما الطول عند محققيه   فمن عدن إلى ربوا العراق
وساحل جدة إن سرت عرضاً   إلى أرض الشآم بالاتفاق

والأرض التي أسلم أهلها طوعاً، أو فتح عنوة وقهراً، وقسم المسلمين أرض البصرة أيضاً بإجماع الصحابة رضي الله عنهم عشرية، على ما في "الدر المختار" لأن العشر الباقي لما فيه من معنى العبادة، مع كونه أخف، لأنه يتعلق بنفس الخارج. وأما جزيرة العرب فأهلها، وإن لم يكونوا من قبل مسلمين، فلأنه لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من الخلفاء رضي الله عنهم أنه أخذ خراجاً من أراضيهم، وكما لارق عليهم، فكذا لا خراج عليهم، على ما في النهر والفتح. ولا يوظف الخراج على المسلمين ابتداء على ما في "الدر المنتقي" نقلاً عن القهستاني، وما فتح عنوة، وقسم على الكافرين غير أهله فهو خراجي، على ما في "النتف". والقياس أن تكون البصرة خراجية عند أبي يوسف رضي الله عنه، لأنها بقرب أرض الخراجن لكنه ترك القياس لإجماع الصحابة رضي الله عنهم، على ما في "الدر المنتقى".

قال أفقه المعاصرين السيد ابن عابدين الدمشقي طاب ثراه: وحاصله أن ما أحياه مسلم يعتبر قربة عند أبي يوسف، وعند محمد يعتبر الماء المعتمد الأول. والبصرة أحياها المسلمون لأنها بنيت في أيام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وهي في حيز أرض الخراج، فقياس قول أبي يوسف أن تكون خراجية، إنتهى. وسواد العراق الممتد طولا شمالا وجنوباً من الحديثة على دجلة إلى عبادان، والممتد عرضاً غرباً وشرقاً من القادسية إلى حلوان. فيكون السائر من تكريت، وهو على النهاية الشمالية للعراق إلى عبادان، وهي على النهاية الجنوبية على تقويس الحد الشرقي بمسافة شهر، وكذا من تكريت إلى عبادان، إذا سار على تقويس الحد الغربي أعني من تكريت إلى الأنبار إلى واسط إلى البصرة إلى عبادان فهو شهر. فيكون دور العراق مسافة شهرين، وما فتح عنوة، ولم يقسم بين المسلمين، سواء أقر أهله عليه، أو نقل إليها كفار آخرين، أو فتح صلحاً فهو خراجي، لأنه أليق بالكافر، لأنه يشبه الجزية لما فيه معنى العقوبة، ولأن فيه تغليظاً، حيث يجب وأن لم تزرع الأرض بخلاف العشر، فأنه يتعلق بعين الخارج لا بالارض. ولا فرق في الأرض الخراجية بين ما إذا سقيت بماء العشر، فأنها خراجية. كما أنه إذا قسمت بين المسلمين، فأنها عشرية، وإن سقيت بماء الخراج. فكل فتح عنوة، وأُقر أهله عليه، كالعراق والشام ومصر، أو صولحوا، ووضع الخراج عليهم فهي خراجية. إلا مكة فأنها وإن فتحت عنوة، فهي عشرية لأنها من جزيرة (العرب). العراق واراضي سواد العراق مملوكة لأهلها، يجوز بيعهم لها وتصرفهم فيها، وورث عنهم، لأن الإمام إذا فتح أرضاً عنوة له أن يقر أهلها عليها، ويضع عليها الخراج. فتبقى الأرض مملوكة لأهلها. وعند الإمام الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم: أن أراضي سواد العراق موقوفة على المسلمين، فلا يجوز بيعها عندهم، ويجب الخراج في أرض الوقف الخراجية، فأن وظيفة الأرض تبقى بعد الوقف، كما كانت قبله.

قال في "الدر المختار" نقلا عن الشربنلالية: معزيا للبحر إلا المشتراة من بيت المال، إذا وقفها مشتريها فلا عشر ولا خراج. وقد توقفت في هذا ثم رأيت الفاضل أفقه المعاصرين، السيد ابن عابدين الدمشقي طاب ثراه قد أعترضه، بقوله: قلتُ ولا يخفى ما فيه، لأنهم قد صرحوا، فأن فرضية العشر ثابتة بالكتاب والسنّة والإجماع والمعقول. وبأنه زكاة الثمار والزروع، وبأنه يجب في الأرض غير الخراجية، وبأنه يجب فيما ليس بعشري، ولا خراجي، كالمغاور والجبال، وبأن سبب وجوبه الأرض النامية بالخارج حقيقة، وبأنه يجب في أرض الصبي والمجنون والمكاتب، لأنه مؤونة الأرض، وبأن الملك غير شرط فيه، بل الشرط ملك الخارج. فيجب في الارض الموقوفة لعموم قوله تعالى: "انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض". وقوله تعالى: "وأتوا حقه يوم حصاده". وقوله ﷺ: "ما سقت السماء فيه العشر، وما سقي بقرب أو دالية ففيه نصف العشر". ولأن العشر يجب في الخارج لا في الأرض، فكان ملك الأرض وعدمه سواء كما في "البدائع".

ولا شك، أن هذه الأرض المشتراة وجد فيها سبب الوجود، وهو الأرض النامية، وشرطه وهو ملك الخارج ودليله، وهو ما ذكرنا وقول المتن يجب العشر في مستقي سماء وسيح الخ. فالقول بعدم الوجوب في خصوص هذه الأرض يحتاج إلى دليل خاص، ونقل صريح، ولا يلزم من سقوط الخراج المتعلق بالأرض سقوط العشر المتعلق بالخارج، على أنه قد ينازع في سقوط الخراج، حيث كانت من أرض الخراج، أو سقيت بمائه، بدليل أن الغازي الذي أختط له الإمام داراً لا شيء عليه فيها، فإذا جعلها بستاناً وسقاها بماء العشر فعليه العشر، أو بماء الخراج فعلية الخراج، مع أن الواقع الآن في كثير من القرى والمزارع الموقوفة أن يؤخذ منها للميري، النصف والربع أو العشر، إنتهى وهو وجيه. وقد إتفقوا على أراضي الشام ومصر خراجية، وإنما إختلفت العلماء في أنها فتحت عنوة، أو صلحاً،

وهذا لا يمنع كونها خراجية، لأنها تكون خراجية إذا لم يسلم أهلها سواء فتحت عنوة، ومن على أهلها بها، أو صلحاً، ووضع عليهم الخراج والجزية. وذكر في الفتح أن المأخوذ الآن من أراضي مصر إجرة لا خراج، لأنها ليست مملوكة للزراع الموت المالكين، فشيئاً بلا وارث صارت لبيت المال. وكذا أرض الشام، على مانقله الفاضل السيد ابن عابدين، عن فضل الله الرومي، قال في "الدر المنتقى": فيؤجرها الإمام، ويأخذ جميع الإجرة لبيت المال، كدار صارت لبيت المال، واختار السلطان إستغلالها، وأن اختار بيعها فله ذلك، اما مطلقاً أو الحاجة. فثبت أن بيع الأراضي المصرية، وكذا الشامية صحيح، أما من مالكها، أو من السلطان، فأن كان من مالكها إنتقلت بخراجها، وأن من السلطان فأن لعجز مالكها عن زراعتها. فكذلك، وأن لموت مالكها فقدمنا أنها صارت لبيت المال، وأن الخراج سقط عنها، فإذا باعها الإمام لا يجب على المشتري خراج، سواء وقفها أو أبقاها.

قلت، وهذا نوع ثالث، يعني لا عشرية ولا خراجية، من الأراضي تسمى أرض المملكة، وأراضي الحوز، وهو ما مات أربابه بلا وارث، وآل لبيت المال، أو فتح عنوة، وأبقى للمسلمين إلى يوم القيامة، وحكمه على ما في التتارخانية، أن يجوز وقفه للزارع بأحد طريقين: أما بإقامتهم مقام الملاك في الزراعة، وأعطاه الخراج، وأما باجارتها لهم بقدر الخراج، فيكون المأخوذ في حق الإمام خراجاً، ثم أن كان دراهم فهو خراج موظف، وأن كان بعض الخراج فخراج مقاسمة. وأما في حق الأكرة فاجرة لا غير، لا عشر ولا خراج. فلما دل الدليل على عدم لزوم المؤنتين: العشر والخراج في أرض المملكة، والحوز كالمأخوذ منها اجرة لا غير، إنتهى ما في "الدر المنتقى". هذا وأراضي بيت المال المسماة بأراضي المملكة، وأراضي الحوز إذا كانت في أيدي زراعها، لا تنزع من أيديهم ماداموا يؤدون ما عليها ولا تورث عنهم اذا ماتوا، ولا يصح بيعهم لها، وأن عطلها متصرف ثلاث سنين أو أكثر

بحسب تفاوت الأرض تنزع منه، وتدفع لآخر، ولا يصح فراغ أحدهم عنها لآخر إلا أذن السلطان أو نائبه على ما نقله السيد ابن عابدين في حاشية "الدر المختار" عن "شرح المنتقى".

ثم اعلم أن ما ذكره في الفتح أن أراضي مصر ليست مملوكة للزراع، قد أقره في البحر على ما قاله السيد ابن عابدين الدمشقي. ثم قال، قلت: لكن عدم ملك الزراع في الاراضي الشامية غير معلوم لنا، إلا في نحو القرى والمزارع الموقوفة، أو المعلوم كونها لبيت المال. أما غيرها فتراهم يتوارثونها ويبيعونها جيلاً بعد جيل، وقد قالوا: إن وضع اليد والتصرف من أقوى ما يستدل به على الملك، ولذا تصح الشهادة بأنه ملكه. قال الإمام أبو يوسف رحمه الله تعالى في كتاب "الخراج": وأيما قوم من أهل الخراج دخلوا الحرب وبادوا، فلم يبق منهم أحد، وبقت أرضهم معطلة، ولا يعرف أنها في يد أحد، ولا أن أحداً يدعي فيها يدعي فيها دعوى، وأخذها رجل فحرثها وغرس فيها، وأدى عنها الخراج والعشر فهي له. وهذه الموات التي وضعت لك، وليس للإمام أن يخرج شيئاً من يد أحد إلا بحق ثابت معروف. وفي شرح "السير الكبير" للسرخسي فأن صالحوهم على أراضيهم مثل أرض الشام مدائن وقرى، فلا ينبغي للمسلمين أن يأخذوا شيئاً من دورهم وأراضيهم، ولا أن ينزلوا عليهم منازلهم، لأنهم أهل عقد وصلح.

قال السيد ابن عابدين، بعد نقل هذه النصوص: فإذا كانت مملوكة لأهلها فمن أين يُقال أنها صارت لبيت المال، باحتمال أن أهلها كلهم ماتوا، بلا وارث، فأن هذا الاحتمال لا ينفي الملك الذي كان ثابتاً. وقد سمعت التصريح في "المتن تبعاً للهداية" بأن أرض سواد العراق مملوكة لأهلها، يجوز بيعهم لها وتصرفهم فيها، وكذلك أرض مصر والشام، كما سمعته. وهذا على مذهبنا ظاهر، وكذا عند منْ يقول: أنها وقف على المسلمين، فقد قال الإمام السبكي، من أئمة الشافعية: إن الواقع في هذه البلاد الشامية والمصرية أنها في أيدي المسلمين، فلا شك أنها

لهم، أما وقفاً وهو الأظهر من جهة عمر رضي الله عنه، وأما ملكا. وإن لم يعـرف من أنتقل منه إلى بيت المال فأن من بيده شيء لم يعرف مـن أنتقـل منـه يبقـى في يده، ولا يكلف ببينة، ومن وجدنا في يده، أو في ملكه مكاناً منهـا، فيحمـل أنـه احي اوصل إليه وصولا صحيحاً، إنتهى.

قال العلامة المحقق ابن حجر الشافعي المكي في فتاواه الفقهية، بعد نقله كلام السبكي لهذا: صريح في إنا نحكم ذوي الاملاك والأوقاف، ببقاء أيديهم علـى مـا هي عليه، ولا يضؤنا كون أصل الأراضي ملكاً لبيت المال، أو وقفاً على المسلمين، لأن كل أرض نظرنا إليها بخصوصها لم يتحقق فيها أنهـا مـن ذلـك الوقـف، ولا الملك لاحتمال أنها كانت مواتاً واحييت، وعلى فرض تحقق أنها من بيت المـال. فإن إستمرار اليد عليها، والتصرف فيها تصرف الملاك في أملاكهم، أو النظار فيما تحت أيديهم الأزمان المتطاولة، قرائن ظـاهرة أو قطعيـة علـى اليـد المفيـدة لعـدم التعرض لمن هي تحت يده، وعدم إنتزاعها منه.

ثم قال ابن حجر، بعـد كـلام طويـل: إذا تقـرر ذلـك، فقـد بـان لـك واتضـح إتضاحاً لا تبقى معـه ريبـة أن الاراضـي الـتي في أيـدي النـاس، بمصـر والشـام، المجهول إنتقالها إليهم تقر في أيدي أربابها، ولا يتعرض لهم فيها بشـيء أصـلاً. لأن الأئمة إذا قالوا في الكنائس المبنية للكفـر أنهـا تبقـى، ولا يتعـرض لهـا عمـلاً بذلك الضعيف، أي كونها كانت في برية فأتصل بها عمارة المصر، فأولى أن يقولوا ببقـاء تلـك الأراضي بيد منْ هـي تحـت أيديهـم، باحتمـال أنهـا كـانت مواتـاً فأحييت، أو أنها إنتقلت إليهم بوجه صحيح، إنتهى ما قاله العلامة ابن حجـر. قال السيد ابن عابدين بعـد نقله كـلام ابـن حجـر: وقـد طـال رحمـه الله إطالـة حسنة، رداً على من أراد إنتزاع أوقاف مصر، وإقليمها وإدخالها في بيـت المـال، فلا يصح وقفها.

قال الشيخ ابن حجر، وسبقه إلى ذلك الملك الظاهر بيبرس: فأنـه أراد مطالبة ذوي العقارات ومستندات تشهد لهم بالملك، وإلا انتزعها من أيديهم، متعلـلا بـه ذلك الظالم، فقام عليه شيخ الإسلام والإمام النووي رحمـه الله تعـالى، وأعلمـه أن ذلك غاية الجهل والعناد، وأنه لا يحل عند أحد من العلماء المسلمين، بل مـن في يده شيء، فهو ملكه لا يحل لأحد الأعتراض عليه، ولا يكلف إثباتـه ببينـة. ولا زال النووي رحمه الله يشفع على السلطان المذكور، ويعظه إلى أن كف عـن ذلـك. فهذا الخبر الذي أتفقت علمـاء المذاهـب علـى قبـول نقلـه، والإعـتراف بتحقيقـه وفضله، أي النووي، نقل إجماع العلماء علـى عـدم المطالبـة بمسـتند عمـلاً بـاليد الظاهر فيها، أنها وضعت بحق. إنتهى ما قاله الشيخ ابن حجر.

قال السيد ابن عـابدين: قلـتُ فـإذا كـان مذهـب هـؤلاء الأعـلام أن الأراضـي المصرية والشامية أصلها وقـف المسلمين، أو لبيـت المـال، ومـع ذلـك لم يجـيزوا مطالبة أحد يدعي شيئاً انه مالكه، بمستند يشهد لـه بنـاء علـى إحتمـال إنتقالـه إليه بوجه صحيح، فكيف يصح على مذهبنا، أي الحنفية، بأنها مملوكة لأهلهـا أقروا عليها بالخراج، كمـا قدمنـاه أن يُقـال إنهـا صـارت لبيـت المـال، وليسـت مملوكة للزراع، لإحتمال موت المالكين لهـا شيئاً فشيئاً، بـلا وارث، فـأن ذلـك يؤدي إلى إبطال أوقافها، وإبطال المواريث فيها، ووضع العشر أو الخراج عليها لا ينافي ملكيتها، كما هو صريح قول المصنف وغيره. ها هنا أن أرض سـواد العـراق خراجية، وأنها مملوكة لاهلها، وإحتمال موت أهلها بلا وارث، لا يصلـح حجـة في إبطال اليد المثبتة للملك، فأنـه مجـرد إحتمـال لم ينشـأ عـن دليـل، ومثلـه لا يعارض المحقق الثابت، فأن الأصل بقاء الملكية، واليد أقـوى دليـل عليهـا، فـلا تزول إلا بحجة ثابتة، وإلا لزم أن يُقال مثال ذلك في كل مملوك بظاهر اليد، مـع أنه لا يقول به أحد. وقد سمعت نقل الإمام النووي: الإجماع على عدم التعـرض، مع أن مذهبه أن تلك الأراضي في الأصل غير مملوكـة لأهلهـا، بـل هـي وقـف أو

ملك لبيت المال. فعلى مذهبنا بالاول،ى وإحتمال كون أهلها ماتوا بلا وارث. بعد الإمام النووي أبعد البعد، وهذا ابن حجر المكي، بعد النووي بمئات من السنين، وقد سمعت كلامه والحاصل في الأراضي المصرية والشامية ونحوها، أن ما علم منها كونه لبيت المال بوجه شرعي فحكمه ما ذكره الشارح، أن الفتح وما لم يعلم فهو ملك لأربابه، والمأخوذ منه خراج لا اجرة لأنه خراجي في أصل الوضع، فأغتنم هذا التحرير، فأنه صريح الحق الذي يعض عليه، وأنه لما أطلتُ في ذلك لأني لم أر منْ تعرض لذلك، بل تبعوا المحقق الكمال في ذلك، والحق أحق أن يتبع. ولعلّ مراد الكمال ومن تبعه الأراضي التي علم كونها لبيت المال، الله تعالى أعلم. إنتهى كلام ابن عابدين.

أقول ما ذكره من التحقيق في هذه المسألة حقيق بالإتباع. لكن ما ذكره من التوجيه لكلام الكمال بقوله: ولعلّ مراد الكمال الخ، يأبى عنه الإطلاق الظاهر من عبارة الكمال، وهي على ما نقله صاحب "الدر المختار" بقوله: وفي الفتح المأخوذ الآن من أرض مصر اجرة لاخراج، ألا ترى أنها ليست مملوكة للزراع، كأنه لموت المالكين شيئاً فشيئاً بلا وارث، صارت لبيت المال. قال في "الدر المختار": وعلى هذا، أي على ما في الفتح، من أنها صارت لبيت المال، فلا يصح بيع الإمام، ولا شراؤة من وكيل بيت المال لشيء منها، لأنه كوكيل اليتيم، فلا يجوز إلا لضرورة، والعياذ بالله تعالى، زاد في البحر أو رغب في العقار بضعف قيمته، على قول المتأخرين المفتي به.

وأفتى مفتي دمشق فضل الله الرومي: بأن غالب أراضينا سلطانية لأنقراض أملاكها، فآلت لبيت المال فتكون في يد زراعها، كالعارية إنتهى. وفي النهر عن الواقعات لو أراد السلطان شراؤها لنفسه، يأمر غيره ببيعها، ثم يشتريها منه لنفسه إنتهى. وإذا لم يعرف الحال في الشراء من بيت المال، فالأصل الصحة. وبه عرف صحة وقف المشتراة من بيت المال، وأن شروطها الواقفين صحيحة،

وأنه لا خراج على أراضيها ،إنتهى ما في "الدر المختار". وما ذكره من أنـه يجـوز للإمام البيع إلا لضرورة، أي بأن إحتاج بيت المال، فقد نازعه صـاحب البحـر في رسالته بإطلاق ما في الخانية. والخلاصة من قولها: فإذا أراد السلطان أن يأخذهـا لنفسه ببيعها من غيره، ثم يشتري من المشتري، فأنه يدل على جواز البيع للإمام مطلقاً. وبمـا في الزلفـي مـن أن للإمـام ولايـة عامـة، ولـه أن يتصـرف في مصـالح المسلمين والاعتياض عن المشترك العام جائز من الإمام، ولهـذا لـو بـاع شيئاً مـن بيت المال صح بيعه، فقوله: نكرة في سياق الشرط يعم العقار وغيره، لحاجة علـى ما ذكره أفقه المعاصرين السيد ابن عابدين الدمشقي طاب ثراه. ثم كتب على قـول صاحب "الدر المختار": وبه عرف صحة وقف المشتراة من بيت المال، وأن شـروط الواقفين معتبرة الخ.

هذا كله من كـلام صـاحب النهـر، وأصلـه صـاحب البحـر. وحاصلـه أن مـن اشترى أرضاً مما صار لبيت المال فقد ملكها، وأن لم يعرف حال الشراء حملاً لـه على الصحة، ولا خراج عليها، بناء على ما مر من أنها لما مات ملاكها بلا ورثـة عادت لبيت المال، وسقط خراجها لعـدم مـن يجـب عليهـا، إذا باعهـا الإمـام لم يجب على المشتري خراجها، لقبض الإمام ثمنها، وهو بدل عينهـا. وتقـدم أيضـاً أنه لا عشر عليها أيضاً، وقدمنا ما في ذلك، وحيث ملكها بالشراء صح وقفه لها، وتراعى شروط وقفه. قال في "التحفة" سواء كان سـلطاناً أو أمـيراً أو غيرهمـا. ومـا ذكره الجلال السيوطي من أنه لا يراعي شـروطه أن كـان سـلطاناً أو أمـيراً، وأنـه يستحق ربعه من يستحق في بيت المال، من غير مباشرة للوظائف، فمحمول علـى ما إذا وصلت إلى الواقف بإقطاع السلطان إيـاه مـن بيـت المـال، كمـا لا يخفـى، إنتهى. وحاصله أن ما ذكره السبوطي لا يخالف ما قلنا لأنه محمول علـى مـا إذا لم يعرف شراء الواقف لها من بيت المال، بل وصلت إليه بإقطاع السـلطان لهـا، أي بأن جعل له خراجها مع بقاء عينها لبيت المال، فلم يصح وقفه لها، ولا تلزم

شروطه بخلاف ما إذا ملكها، ثم وقفها كما قلنا. قلت: لكن بقي ما إذا لم يعرف شراؤه لها، ولا عدمه، والظاهر أنه لا يحكم بصحة وقفها، لأنه لا يلزم من وقفه لها، أنه ملكها، ولهذا قال السيد الحموي في "حاشية الاشياء" قبيل قاعدة: إذا إجتمع الحلال والحرام، وما نصه: وقد أفتى علامة الوجود المولى أبو السعود، مفتي السلطنة السليمانية، بأن أوقاف الملوك والأمراء لا يراعى شروطها، لأنها من بيت المال، أو ترجع إليه. وإذا كان كذلك يجوز الاحداث، إذا كان المقرر في الوظيفة أو المرتب من مصارف بيت المال، إنتهى. ولا يخفى أن المولى أبو السعود أدرى بحال أوقاف الملوك، ومثله ما سيذكره الشارح في الوقف من المحيية عن المبسوط، من أن السلطان يجوز له مخالفة الشروط، إذا كان غالب جهات الوقف، قرى ومزارع، لأن أصلها لبيت المال إنتهى.

يعني إذا كانت لبيت المال، ولم يعلم ملك الواقف فيكون ذلك إرصاداً، لا وقفاً حقيقة أي أن ذلك السلطان الذي وقفه أخرجه من بيت المال، ولذا لما أراد السلطان نظام المملكة برقوق، في عام نيف وثمانين وسبعمائة، أن ينقض هذه الأوقاف لكونها أخذت من بيت المال، وعقد لذلك مجلساً حافلاً، حضره الشيخ سراج الدين البلقيني، والبرهان بن جماعة من الشافعية، وشيخ الحنفية الشيخ أكمل الدين شارح الهداية. فقال البلقيني: ما وقف على العلماء والطلبة لا سبيل إلى نقضه، لأن لهم في الخمس أكثر من ذلك، وما وقف على فاطمة وخديجة وعائشة ينقض. ووافقه على ذلك الحاضرون، كما ذكره السيوطي في "النقل المستور في جواز قبض معلوم الوظائف بلا حضور"، ثم رأيت نحوه في "شرح المنتقى" ففي هذا تصريح بأن أوقاف السلاطين من بيت المال، ارصادات لا أوقاف حقيقة، وأن ما كان منها على مصارف بيت المال لا ينقض، بخلاف ما وقفه السلطان على أولاده وعتقائه مثلا. وإنه حيث كانت ارصاداً لا يلزم مراعاة شروطها، لعدم كونها وقفاً صحيحاً، فأن شرط صحته ملك الواقف، والسلطان بدون شرائه من بيت

المال لا يملكه. وقد علمه موافقة العلامة الأكمل على ذلك، وهو موافق لما مر عن المبسوط، عن المولى أبي السعود، ولما سيذكره الشارح في الوقف عن النهر من أن وقف الاقطاعات لا يجوز، إلا إذا كانت أرضاً مواتاً، أو ملكاً للإمام، فأقطعها رجلاً، وهذا خلاف ما في "التحفة المرضية" عن العلامة قاسم من أن وقف السلطان لأراضي بيت المال صحيح، قلت: ولعلّ مراده أن لازم لا يغير، إذا كان على مصلحة عامة، كما نقل من قاضيخان من أن السلطان لو وقف أرضاً من بيت المال على مصلحة عامة للمسلمين جاز.

قال ابن وهبان: لأنه إذا أيده على مصرفه الشرعي فقد منع منْ يصرفه من أمراء الجور في غير مصرفه، إنتهى. فقد أفاد أن المراد من هذا الوقف تأييد صرفه على هذه الجهة المعينة، التي عينها السلطان مما هو مصلحة عامة، وهو معنى الارصاد السابق، فلا ينافي ما تقدم، والله تعالى أعلم، إنتهى ما ذكره ونقله السيد ابن عابدين.

أقول جميع ما نقله في غاية الحسن، لكن جملة كلام العلامة قاسم، وما نقله الطرطوسي عن قاضيخان، على اللزوم والارصاد خلاف ظاهر، عبارتهما من صحة وقف السلطان لأرض بيت المال وجوازه، إذا كان على مصلحة عامة، فأن الظاهر من كلامهما، أن يكون الوقف وقفاً حقيقة، كما لا يخفى، والذي حمله على الحمل المذكور إنما هو التوفيق بينهما وبين ما تقدم، من أن أوقاف السلاطين من بيت المال ارصادات لا أوقاف حقيقة، وهو محمل حسن في توجيه كلام الفقهاء، ووقع الخلاف بينهم، لو كانت قرينة على صرف الكلام عن ظاهره. نعم، هو رحمه الله أعلم مني بمراد الفقهاء، وأن كان للذهن بحال في النظر والموات الذي أحياه الذمي خراجي على ماذكره صاحب "التنوير" وغيره، لأنه أليق به، لكن يتوقف احياؤه على إذن الإمام، فلو أحياه مسلم أعتبر قربة، فأن كان ما أحياه أقرب إلى أرض الخراج كان خراجياً، وإن كان أقرب إلى أرض العشر كان عشرياً

على ما في النهر وغيره من المتون والشروح، لأن ما قارب الشيء يعطي حكمه. قال في البحر: كفناء الدار لصاحبها الإنتفاع به، وان لم يكن ملكا له، ولذا لا يجوز احياء ما قرب من العامر، وكل من الأرض العشرية والخراجية. إن سقي بماء العشر أخذ منه العشر، والأرض التي تسقى بماء الخراج أخذ منه الخراج، على ما ذكره صاحب "التنوير" تبعاً لصاحب "الدرر".

قال السيد ابن عابدين: وهو مخالف لما في الهداية والتبيين والكافي وغيرهما، من أن إعتبار الماء في ما لو جعل المسلم داره بستاناً. قال في الكافي: لأن المؤنة في غير المنصوص عليه، تدور مع الماء، فان كانت تسقى بماء بئر، أو عين فهي عشرية، وان كانت تسقى بأنهار الأعجام فخراجية، ولو بهذا مرة وبهذا مرة، فالعشر أحق بالمسلم، إنتهى. ومقتضاه: أن النصوص على أنه عشري كأرض العرب ونحوه، أو على أنه خراجي كأرض السواد ونحوها، لا يعتبر فيه الماء. وعن هذا قال في الفتح بعد كلام والحاصل: أن التي فتحت عنوة أو أقر الكفار عليها لا يوظف عليهم إلا الخراج، ولو سقيت بماء المطر، وأن قسمت بين المسلمين لا يوظف إلا العشرات، سقيت بماء الأنهار، وكل أرض لم تفتح عنوة، بل أحياها مسلم أن كان يصل إليها ماء الأنهار فخراجية، أو ماء عين ونحوه فعشرية، وهذا قول محمد وهو قول أبي حنيفة، انتهى. فتحصل أن الماء يعتبر فيما لو أحيا مسلم أرضاً، أو جعل داره بستاناً، بخلاف المنصوص على أنه عشري أو خراجي. وقدمنا عن "الدر المنتقى" أن المفتى به قول أبي يوسف: أنه يعتبر القرب، وهو مامشى عليه المصنف أولاً، كالكنز وغيره، وقدمه في متن المنتقى، فأفاد ترجيحه على قول محمد. وقال الحلبي: وهو المختار كما في الحموي على الكنز عن شرح قرى حصاري، وعليه المتون، وإعتبار الماء قول محمد. قال في الشربنلالية: قوله له أي صاحب "التنوير"، وكل منهما الخ، فيه مخالفة لقوله قبله: وما أحياه مسلم يعتبر بقربه، لأنه أعتبر الحيز ثمة، وهنا

أعتبر الماء، وعلمت أن ذلك قول أبي يوسف، وهذا قول محمد، إنتهى. ما ذكره السيد ابن عابدين: وماء العشر هو ماء السماء والبئر والعين والبحر، الذي لا يدخل تحت ولاية أحد، وماء الخراج، وهو ماء أنهار حفرتها الأعاجم، وكذا سيحون وجيحون ودجلة والفرات. خلافات لمحمد، وحاصله على ما ذكره ابن عابدين، أن ما كانت عليه يد الكفرة، ثم حويناه قهراً، وما سواه عشري. والخراج نوعان: النوع الأول: خراج مقاسمة، وهو ما يكون الواجب بعض الخارج، كالخمس ونحوه وفقاً لا يوضع أي رأساً إلا على الكافر. كالخراج الموظف. فإذا فتحت بلدة، ومنْ على أهلها بأرضها فله أن يضع الخراج عليها مقاسمة، أو موظفاً. بخلاف ما إذا قسمها بين الجيش. فأنه يضع العشر. والنوع الثاني: الخراج الموظف، ويسمى خراج وظيفة، وهو ما يكون الواجب شيئاً في الذمة يتعلق بالتمكن من الإنتفاع بالأرض، كما وضع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه على سواد العراق. ووفاء لكل جريب يصل إليه الماء، وتصير الأرض صالحة للزراعة، مما يزرع في تلك الأرض لا يخير بين الحنطة والشعير، وهو الصحيح كما في "الكافى"، ودرهما من أجود النقود، وزنه أربعة عشر قيراطاً على ما في الجوهرة، والصاع هو القفيز الهاشمي، الذي ورد عن عمر رضي الله عنه، كما ذكره في الهداية، وهو ثمانية أرطال (أو) أربعة أمنان. وكان صاع رسول الله ، وينسب إلى الحجاج فيقال صاع حجاجي، لأنه الذي أخرجه بعد ما فُقد، على ما ذكره الطحطاوي عن الشلبي، ووضع رضي الله عنه لجريب كالقثاء الرطاب، والخيار، والبطيخ، والباذنجان، وما جرى مجراه خمسة دراهم. ولجريب الكرم أو النخيل عشرة دراهم، والجريب ستون ذراعاً في ستين بذراع كسري، الذي هو عبارة عن سبع قبضات، والقبضة أربع أصابع، وقال بعضهم: المعتبر في كل بلدة عرفهم. أقول وعرف نواحي بغداد، كالخالص وخريسان، ونواحي الحلة ونحوها التقدير بالفدان في هذا العصر. وكذا مصر والشام.

قال في "البحر": وعلى الأول المعمول، وفي الفتح أن الثاني يقتضي أن الجريب يختلف قدره في البلدان، ومقتضاه أن يتحد الواجب مع أختلاف المقادير، فأنه قد يكون عرف بلد فيه مائة ذراع، وعرف أخرى فيه خمسون ذراعاً. وخراج المقاسمة على ما ذكره الخير الرملي كالموظف مصرفا، وكالعشر مأخذاً لا فرق فيه بين الرطاب والزرع، والكرم والنخل المتصل وغيره، فيقسم الجميع على حسب ما تطيق الأرض من النصف أو الثلث، أو الربع أو الخمس. وقد تقرر أن خراج المقاسمة كالعشر لتعلقه بالخارج، وكذا يتكرر بتكرر الخارج في السنة، وانما يفارقه في المصرف لكل شيء يؤخذ منه العشر، أو نصفه يؤخذ منه خراج المقاسمة، وتجري الاحكام التي قررت في العشر وفاقاً وخلافات. فإذا علمت ما يزرع في بلادنا، وما يغرس، فإذا غرس رجل في أرضه زيتوناً أو كرماً أو أشجاراً يقسم الخارج كالزرع، ولا شيء قبل أن يطعم بخلاف ما إذا غرس رجل في الموظف، ولو أخذها مقاطعة على دراهم معينة بالتراضي، ينبغي الجواز، وكذا لو وقع على عدد الأشجار لأن التقدير يجب أن يكون بقدر الطاقة من أي شيء كان. ولأن تقدير خراج المقاسمة مفوض لرأي الإمام، وكل من الأنواع الثلاثة يفعل في بلادنا، فبعض الأرض تقسم ثمار أشجارها، ويأخذ مأذون السلطان منها ثلثاً أو ربعاً ونحوه، وبعضها يقطع عليه دراهم، وبعضها يعد أشجارها، ويأخذ (من) كل شجرة قدراً معيناً. وكل ذلك جائز عند الطاقة والتراضي على أخذ شيء في مقابلة خراج المقاسمة، لمن يستحق. ولا شك أن أراضي بلادنا خراجية، وخراجها مقاسمة، كما هو مشاهد وتقديره مفوض إلى رأي الإمام، انتهى ما ذكره الخير الرملي.

وأما ما سوى ذلك، مما ليس فيه توظيف عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كزعفران، فيؤخذ على حسب ما تطيقه الأرض، وغاية الطاقة نصف الخارج. قال في التنوير والتنصيف عين الإنصاف، فلا يزاد عليه، إنتهى. أي فيما لم

يوظف، وكذا لا يزاد على النصف في خراج المقاسمة، ولا يزاد في الموظف على ما وصفه عمر رضي الله عنه. وإن طاقة الأرض على الصحيح، على ما نقله في الدر المختار عن "الكافي" وعطف في "التنوير" على الزعفران الذي ليس فيه توظيف عمر رضى الله تعالى عنه، قوله: وبستان، وعرف الشارح العلامة العلائي البستان: بأنه كل أرض يحوطها حائط، وفيها أشجار متفرقة، يمكن الزرع تحتها. ثم قال: فلو ملتفة، أي متصلة، لا يمكن زراعة أرضها، فهو كرم، وحاصل فرقة بين البستان والكرم انما كانت أشجاره متفرقة فهو بستان، وما كانت أشجاره متصلة فهو كرم.

قال السيد ابن عابدين: وفي عزاه في البحر إلى الظهيرية، ومثله في كافي النسفي، ومقتضاه: أن الكرم يفيد أنه غيره، وفي الأختيار والجريب الذي فيه أشجار مثمرة، ملتفة لا يمكن زراعتها. قال محمد: يوضع عليه بقدر ما يطيق، لأنه لم يرد عن عمر رضي الله عنه في البستان تقدير، فكان مفوضاً إلى أمر الإمام. وقال أبو يوسف: لا يزاد على الكرم، لأن البستان بمعنى الكرم، فالوارد في الكرم وارد فيه دلالة، وأن كان فيه أشجار متفرقة، فهي تابعة للأرض، إنتهى. ومفاد هذا أيضاً أن الكرم مختص بالعنب، والبستان غيره، بقرينة التعليل أولا وثانياً، وهذا أوفق بما في كتب اللغة، ومفاده ايضاً أن الخلاف بين محمد وأبي يوسف في البستان إذا كانت أشجاره ملتفة، وان في "المتن" هو قول محمد، وعليه جرى في "الملتقى". وذكر في "البديع" مثل ما في الإختيار. إنتهى ما ذكره ابن عابدين. وينقص وجوباً مما وظف لم تطق الأرض، وجوازاً إن اطاقت وليس للإمام، على ما في الكافي، أن يحول الخراج الموظف إلى خراج القسمة، وكذا العكس فيما يظهر من التعليل، بأن فيه نقض العهد، وهو حرام على ما قاله الخير الرملي، وصرح القهستاني بالعكس. وقال ابن عابدين: وما يفعله أهل التيمار والزعامات من مطالبة أهل القرى، بجميع ما عينه لهم السلطان على القرى، كالقسم من النصف

فهو ظلم محض، لأن ذلك المعين في الدفاتر السلطانية، مبني على أنه لا يؤخذ من الزراع سوى ذلك القسم المعين، والفاضل منه يبقى للزراع. والواقع في زماننا خلافه، فأن ما يؤخذ ظلماً، مما يسمى بالذخائر وغيرهما، بشيء كثير، وربما يستغرق جميع الخارج من بعض الأراضي، بل يؤخذ منهم ذلك، وأن لم تخرج الأرض شيئاً. ولكثرة الظلم كثيراً ما ينزل أصحاب الأراضي عن أرضه لغيره، بلا شيء، وعلى هذا لا يجوز مساعدة التيمار على ظلمهم. عن "شمس الأئمة"، أن من سيره الأكاسرة إذا أصاب بعض زرع الرعية آفة عوضوا له ما أنفقه في الزراعة، من بيت مالهم. وقالوا التاجر شريك الخسران، كما هو شريك في الربح، فإذا لم يعطه الإمام فلا أقل من أن لا يغرمه الخراج. ولا خراج مقاسمة وموظفاً ولا عبرة بالأولى، على أرض غلب عليها الماء، أو أنقطع عنها، أو أصاب الزرع آفة سماوية، كغرق وحرق وشدة برد، إلا إذا بقى من السنة ما يمكن الزرع فيها.

ثانياً: بخلاف ما إذا كانت الآفة غير سماوية وأمكن الإحتراز عنها، كأكل قردة وسباع وأنعام وفار ودودة، أو هلك الخارج بعد الحصاد فأنه لا يسقط الخراج، ولو هلك قبل الحصاد سقط، إلا إذا بقى من السنة ما يتمكن فيه من الزراعة صاحبها، وكان خراجها موظفاً، وجب عليه الخراج لأنه مقصر. ويُعد من التعطيل ما لو زرع الاخس مع قدرته على الأعلى، ويستثنى من التعطيل ما لو جعل أرضه مقبرة، أو خاناً للغلة أو مسكناً فأنه يسقط عنه الخراج، وقيل لا يسقط. والصحيح هو الأول، على ما في الاسعاف، ولو عجز صاحب الأرض عن زراعتها لعدم قوته وأسبابه فللإمام أن يدفعها لغيره مزارعة، ليأخذ الخراج من نصيب الملك، ويمسك الباقي للمالك، وان شاء أجرها وأخذ الخراج من الأجرة، وان شاء زرعها من بيت المال، فأن لم يتمكن باعها وأخذ الخراج من ثمنها. قال في "النهاية": وهذا لا خلاف فيه، لأنه من باب صرف الضرر العام بالضرر الخاص. وعن أبي يوسف يدفع للعاجز كفايته من بيت المال قرضاً، ليعمل فيه

على ما في شرح الزيلعي على الكنز، ولو عادت قدرة مالكها ردها الإمام عليه، إلا في البيع، على ما في الذخيرة. ولو اشترى مسلم من ذي أرض خراج، أو أسلم صاحبها يجب عليه الخراج، لما صح أن الصحابة رضي الله عنهم أشتروا أراضي الخراج، وكانوا يؤدون خراجها، على ما في "الفتح"، ولو منعه إنسان من الزراعة، ولم يقدر على رفعه، أو ترك زراعة الأرض لعذر أو غيره، أو رحل إلى قرية أخرى، وكان خراج الأرض خارج المقاسمة لا يجب على صاحبها شيء، لأنه إذا منع ولم يقدر على الدفع لم يتمكن من الزراعة. ولأن خراج المقاسمة يتعلق بعين الخارج كالعشر، فإذا لم يخرج من الأرض فلا شيء عليه بخلاف الخراج الموظف. فأنه يتعلق بالذمة، ويجب بمجرد التمكن من الزراعة زرع أم لا، ولو باع أرضاً خراجية فأن بقى من السنة مقدار ما يتمكن المشتري من الزراعة فعليه الخراج، وإلا فعلى البائع. وإختلفوا في إعتبار ما يتمكن المشتري من زراعته. فقيل الحنطة والشعير وقيل أي زرع كان، وفي أنه هل يشترط إدراك الريع بكفالة أولاً. وفي "واقعات الناطقي": " أن الفتوى على تقديره بثلاثة أشهر، وهذه الفتوى مبنية على إعتبار زرع الدخن، لأن ربح الدخن يُدرك في مثل هذه المدة، وإذا رحل الفلاح من قريته لا يجبر على العود إلى القرية والزراعة. نعم، يدفع الإمام أراضي تلك القرية إلى غيره مزارعة، أو إجرة، أو يبيعها، ولم يقل أحد من الفقهاء باجبار صاحبها. ولا يؤخذ العشر من الخارج من أرض الخراج. فلو كانت الأرض ملكا لأحد، وكان خراجها موظفاً لا يؤخذ منها عشر الخراج، وكذا لو كان خراجها مقاسمة من النصف ونحوه، وكذا لو كانت عشرية لا يؤخذ منها خراج، لأنهما لا يجتمعان. وعند الإمام الشافعي رضي الله عنه يجتمعان، لأن العشر حق الفقراء، والخراج حق بيت المال، ولا يسقط أحدهما بالآخر، ولا يتكرر الخراج بتكرار الخارج في سنة واحدة، لو كان الخارج موظفاً. فالخراج له شدة من حيث تعلقه بالتمكن من الزراعة، وخفة بإعتبار عدم تكرره في السنة. ولو

زرعها مراراً. والعشر له شدة. وهو تكرره بتكرر خروج الخارج. وخفة بتعلقه بعين الخارج. وأما خراج المقاسمة فأنه يتكرر كالعشر. بتكرر خروج الخارج. لأنه متعلق بالخارج حقيقة مثل العشر. ولو ترك السلطان أو نائبه الخراج لصاحب الأر.ض أو وهبه له. بأن أخذه منه ثم اعطاه إياه جاز ما فعله السلطان عند أبي يوسف. وقال محمد: لا يجوز على ما في البحر.

قال السيد ابن عابدين: ولم يظهر لي وجه قول محمد بأن كان مراده أنه لا يجوز، لو كان مصرفاً للخراج. إنتهى. وحل لصاحب الأرض أن يتصرف فيما وهبه السلطان له من الخراج. لو كان مصرفاً، وإلا تصدق به. وبه يفتي. وما في الحاوي من ترجيح حله لغير المصرف فهو خلاف المشهور. على مافي "الدر المختار" أي مخالف لما نقله العامة عن أبي يوسف كما في النهر.

قال في "القنية": ويعذر في صرفه إلى نفسه. إن كان مصرفاً. كالمفتي والمجاهد والمعلم والمتعلم والذاكر والواعظ عن ألم، ولا يجوز لغيرهم. وكذا إذا ترك عمال السلطان الخراج لأحد بدون علمه، إنتهى. ولو ترك السلطان العشر لأحد فإنه لا يجوز بالإجماع، ويخرجه بنفسه للفقراء. على ما نقله في "الدر المختار" عن السراج. لأن العشر مصرفه مصرف الزكاة نفسه. بخلاف الخراج فأنه ليس زكاة. وكذا يوضع على أرض الكافر. قاله ابن عابدين. وهو وجيه. ومقتضى ما في الإشباه من قاعدة تصرف الإمام منوط بالمصلحة، أنه يجوز ترك العشر لأحد. وهو معزى إلى البزازية. قال فيها السلطان: إذا ترك العشر لمن هو عليه جاز غنياً كان أو فقيراً، لكن، إن كان المتروك له فقيراً فلا ضمان على السلطان. وأن كان غنياً ضمن السلطان العشر للفقراء، من بيت مال الخراج لبيت مال الصدقة، إنتهى.

وفي "الذخيرة" مثلها في البزازية. قال في "الدر المنتقى": ثم رأيت في "البرجندي" في بيان مصرف الجزية، وكذا لو جعل العشور للمقاتلة. جاز لأنه مال حصل بقوتهم، إنتهى. فليفظ وليكن لله التوفيق. إنتهى.

أي بين القول بالمنع والقول بالجواز بحمل الجواز على المقاتلة، وحمل المنع على غيرهم. قال ابن عابدين قلتُ: لكن قوله لو جعل العشور للمقاتلة ليس صريحاً في جعل عشور أراضيهم تأمل، إنتهى.

أقول: وإن لم يكن صريحاً في ذلك إلا أنه علم يعمّ عشور أراضيهم وغيرها (فافهم). ونقل في "الدر المختار" عن "النهر" أنه يعلم من قول الثاني، أي أبي يوسف القائل بجواز ترك الخراج، وهبته لمن هو مصرف له، حكم الإقطاعات من أراضي بيت المال، إذ حاصلها أن الرقبة لبيت المال، والخراج له، إنتهى.

قال أبو يوسف رحمه الله في كتاب "الخراج": وللإمام أن يقطع كل موات، وكل ما ليس فيه ملك لأحد، ويعمل بما يرى أنه خير للمسلمين واعم نفعاً. وقال أيضاً: وكل أرض ليست لأحد، وعليها أثر عمارة، فأقطعها رجلاً فعمرها، فإن كانت في أرض الخراج أدى عنها الخراج، وإن كانت عشرية ففيها العشر. وقال في ذكر القطائع: إن عمر رضي الله عنه اصطفى أموال كسرى واهل كسرى، وكل منْ فر عن أرضه أو قتل في المعركة، وكل مغيض ماء أو أجمة، فكان عمر رضي الله عنه يقطع من هذا لمن يقطع.

قال أبو يوسف: وذلك بمنزلة بيت المال، الذي لم يكن لأحد، ولا في يد وارث فللإمام العادل أن يجيز منه، ويعطي منْ كان له عناء في الإسلام، ويضع ذلك في موضعه ولا يحابي به، فكذلك هذه الأرض. فهذا سبيل القطائع عندي في أرض العراق، وإنما صارت القطائع يؤخذ منه العشر لأنها بمنزلة الصدقة، وكل من القطعة الولاة المهديون أيضاً من أرض السواد، وأرض العرب، والجبال من الاصناف التي ذكرناها، فلا يحل لمن يأتي بعدهم من الخفاء أن يرد ذلك، ولا يخرجه من يد منْ هو في يده وارث، أو مشتر. ثم قال: والأرض عندي بمنزلة المال، فللإمام أن يجيز من بيت المال منْ له عناء في الإسلام، ومنْ يقوى به على

العدو، ويعمل في ذلك بالذي يرى أنه خير للمسلمين وأصلح لأمرهم، وكذا الأرضون بقطع الإمام منْ أحب من الاصناف، إنتهى.

قال ابن عابدين بعد نقله كلام أبي يوسف المذكور: فهذا يدل على أن للإمام أن يعطي الأرض من بيت المال، على وجه التمليك لرقبتهما، كما يعطى المال حيث رأى المصلحة، إذ لا فرق بين الأرض والمال في الدفع للمستحق، فأغتنم هذه الفائدة، فأني لم أر من صرح بها، وإنما المشهور في الكتب أن الإقطاع تمليك الخراج، مع بقاء رقبة الأرض لبيت المال، إنتهى. وعلى تقدير كون رقبة الأرض لبيت المال لا يصح بيعه، ولا هبته، ولا وقفه على ما في "الدر المختار".

قال ابن عابدين: وهذا ظاهر، وأما إذا كانت رقبتها للمقطع له، كما قلنا، فلا شك في صحة بيعه وغيره، إنتهى. وله اجارته بلا خلاف، تخريجاً على اجارة المستأجر، على ما في "الدر المختار".

قال ابن نجيم في رسالته في الاقطاعات: وصرح الشيخ قاسم في فتوى وقعت بأن للجندي أن يؤجر ما أقطعه له الإمام، ولا أثر لجواز اخراج الإمام له اثناء المدة، كما لا أثر لجواز موت المؤجر في اثناء المدة، ولا لكونه ملك منفعة لا في مقابلة مال، لاتفاقهم على أن من صولح على خدمة عبد سنة، كان للمصالح أن يؤجره إلى غير ذلك من النصوص الناطقة بإيجار ما ملكه من المنافع، لا في مقابلة مال، فهو نظير المستأجر لأنه ملك منفعة الإقطاع بمقابلة استعداده، لما أعد له وإذا مات المؤجر أو أخرج الإمام الأرض على المقطع تنفسخ الاجاره، لإنتقال الملك إلى غير المؤجر، أو انتقل الملك في النظائر التي خرج عليها اجارة الاقطاع، وهي اجارة المستأجر واجارة العبد، الذي صولح على خدمته مدة، واجارة الموقوف عليه الغلة، واجارة المأذون، واجارة أم الولد، إنتهى. ولو أقطع السلطان أرضاً لرجل ولأولاده من بعده، على أن منْ مات منهم انتقل نصيبه إلى أخيه، ثم مات السلطان، ومات منْ أقطع له في زمن سلطان آخر، فهل تصير الأرض لأولاد

المقطع له، عملاً بقول السلطان ولأولاده، فأنه بمعنى أن من مات عن أولاد فلأولاده من بعده، فهو تعليق معني.

قال في "الدر المختار" بعد ذكره هذه الحادثة لم أره، ومقتضى قواعدهم الغاء التعليق بموت المعلق، فتدبر، إنتهى. يعني أنها لا تكون لأولاده، والبطلان التعليق بموت السلطان الذي علق ذلك، وكذا ذكر في الاشباه أنه يبطل التعليق بموت المعلق، ولو أقطع السلطان أرضاً مواتاً من أراضي بيت المال، أو من غير بيت المال، وأذن له باحيائها، على ما شرطه أبو حنيفة رضي الله عنه في صحة الاحياء، أو ملكها السلطان باحياء، أو شراء من وكيلي بيت المال، ثم أقطعها ووهبها له، جاز وقفه لها، على ما في "الدر المختار"، وكذا بيعه ونحوه لأنه ملكها حقيقة، وارصاد السلطان بعض الرقى والمزارع من بيت المال، على المساجد والمدارس ونحوها، لمن يستحق من بيت المال، كالقراء والأئمة والمؤذنين ونحوهم. ليس بإيقاف ألبتة على مافي "الدر" لعدم ملك السلطان، بل هو تعيين شيء من بيت المال على بعض مستحقيه، ولا يجوز لمن بعده أن يغيره ويبدله، ولو أحيا رجل أرضاً بأذن الإمام فليس للإمام اخراجه عنها، لأنه تملكها بالاحياء. وأما غير الموات فله أن يخرجه منها متى شاء، على ما ذكره ابن نجيم. والسياسة تجوز في كل جناية، والرأي فيها إلى الإمام، على ما في "الكافي"، كقتل مبتدع يتوهم منه إنتشار بدعته، وان لم يحكم بكفره، كما في "التمهيد"، وهي إستصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في الدنيا والآخرة، فهي من الأنبياء على الخاصة والعامة في ظاهرهم وباطنهم، ومن السلاطين والملوك على الخاصة والعامة ايضاً، لكن في ظواهرهم فقط، ومن العلماء ورثة الأنبياء على الخاصة في باطنهم لا غيرهم، وأنها تعريف لمطلق السياسة العامة، الصادقة على جميع ما شرعه الله تعالى لعباده من الاحكام الشرعية، وتستعمل أخص من ذلك مما فيه زجر وتأديب، ولو بالقتل، كما قالوا في اللوطي والسارق والخذق، إذا تكرر ذلك منهم

حل قتلهم سياسة، على ما في "الدر المنتقى". ثم قال: ولهذا عرفها بأنها تغليظ جناية، لها حكم شرعي حسماً لمادة الفساد، وقوله لها حكم شرعي، معناه أنها داخلة تحت قواعد الشرع، وإن لم ينص عليها بخصوصها، فأن مدار الشريعة بعد قواعد الإيمان على حسم مواد الفساد لبقاء العالم. ولذا قال في "البحر": وظاهر كلامهم أن السياسة هي فعل من الحاكم لمصلحة يراها، وأن لم يرد بذلك الفعل جزيء، إنتهى. وقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه نفى من المدينة نصر بن الحجاج سياسة، ولما نفاه قال له: ما ذنبي يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا ذنب لك وإنما الذنب لي، حيث لا أطهر دار الهجرة منك. وكان نفيه لإفتتان النساء به، وأن لم يكن يصنعه فهو فعل لمصلحة. وفعل السياسة يكون من القاضي أيضاً ما نص عليه الفقهاء وقالوا على ما ذكره ابن عابدين: والتعبير بالإمام ليس لإحتراز عن القاضي، بل لكونه هو الأصل، والقاضي نائب عنه في تنفيذ الأحكام.

قال في "الدر المنتقى" نقلا عن "معين الأحكام: للقضاء تعاطي كثير من هذه الأمور، حتى ادامة الحبس والاغلاظ على أهل الشر بالقمع لهم، والتحليف بالطلاق وغيره، وتحليف الشهود إذا إرتاب منهم ذكره في "التتارخانية"، وتحليف المتهم لإعتبار حاله، أو المتهم بسرقة يضربه ويحبسه الوالي والقاضي، إنتهى.

وصرح الزيلعي قبيل الجهاد: إن من السياسة عقوبته إذا غلب على ظنه أنه سارق، وأن المسروق عنده. فقد أجازوا قتل النفس بغلبة الظن، كما إذا دخل عليه رجل شاهراً سيفه، وغلب على ظنه أنه يقتله، إنتهى. ولو تشاتم الخصمان بحضور القاضي هل له العفو عنهما؟ قال في "النهر": لم أره، والظاهر لا بخلاف قوله: أخذت الرشوة من خصمي، وقضيت علي، فقد صرحوا بانه له أن يعفو، والفرق بين، إنتهى.

قال ابن عابدين: وفيه نظر، لأنهما إذا تشاتما استوفيا حقهما، لكنهما أخلا بحرمة مجلس القاضي، فبقى مجرد حقه، فصار بمنزلة قوله: أخذت الرشوة فله العفو، يدل عليه ما في (الوالجية) لو تشاتما بين يديه، ولم ينتهيا بالنهي إن حبسهما وعزرهما فهو حسن لئلا يجتريء بذلك غيرهما، فيذهب ماء وجه القاضي، وإن عفا عنهما فهو حسن، لان العفو مندوب إليه في كل أمر. وأختلفوا في أنه هل للإمام العفو، والظاهر أن تشاتمهما عند القاضي. وقوله أخذت الرشوة اجتمع فيه حق الشرع مع حق العبد، وهو القاضي، وترجح فيه حقه فكان حق عبد، كما يفيده كلام (الوالجية) وإلا يكن له العفو تأمل، إنتهى.

أقول: فيما ذكره من النظر نظر، لأن رعاية حق الشرع والحكومة أولى من رعاية حق القاضي نفسه. فالخلال بحرمة مجلس القاضي إخلال بمقام الشريعة والحكم. فليس للقاضي العفو. وما ذكره من ترجيح حق القاضي على حق الشرع فهو من باب ترجيح المرجوح على الراجح، كما لا يخفى، ولعلّ هذا وجه الأمر بالتأمل. هذا ما ظهر لي فأمعن النظر، والاستعانة بالكافر جائزة عند الحاجة، على ما في "الدر المختار". ثم قال: وقد استعان عليه الصلاة والسلام باليهود على اليهود، ورضخ لهم، إنتهى. يعني اعطاهم قليلا من كثير، فأن الرضيخة هي الإعطاء، كذلك والكثير السهم، فالرضخ لا يبلغ السهم. وذكر في الفتح أن في سند حديث إستعانته ﷺ باليهود ضعفاً، وأن جماعة قالوا: لا يجوز، لحديث مسلم أنه عليه الصلاة والسلام خرج إلى بدر، فلحقه رجل مشرك، فقال: إرجع فلن أستعين بمشرك، الحديث. وروي رجلان، ثم قال في "الفتح"، وقال الشافعي: رده عليه الصلاة والسلام المشرك والمشركين كان في غزوة بدر، ثم أنه عليه الصلاة والسلام إستعان في غزوة خيبر بيهود من بني قينقاع، وفي غزوة حنين بصفوان بن إمية وهو مشرك، فالرد إن كان لأجل أنه كان مخيراً بين الإستعانة وعدمها فلا مخالفة بين الحديثين، وإن كان لأجل أنه مشرك فقد نسخه ما بعده، إنتهى.

أقول: ومفاد نقله كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه، وعدم التعرض به ترجيحه القول بجواز الإستعانة بالكافر عند الحاجة، كما في "الدر" وغيره على القول بعدم الجواز، والذي يظهر لي رجحان القول بالجواز لفعله ، وأن الحاجة قد تشتد ويضيق الحال، وتدعو الضرورة إلى ذلك. وفي ترك الإستعانة قد يخشى من محذور عظيم، والعياذ بالله، ولا سيما في هذه الاعصر. أيد الله تعالى سلطان المسلمين بنصره، وخذل أعداءه بقهره، ودفع عن المسلمين كيد المخالفين، وقهر أعداء الدين، آمين بجاه النبي الأمين صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا آخر ما حررته في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب بالبصرة إثناء الإشتغال بالنيابة، وختامه في شهر رمضان المبارك، سنة ألف ومائتين وست وثمانين من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتحية.

انتهى

قوبلت هذه النسخة على النسخ الخطية الموجودة في مكتبة آل باشعيان العامرة، والمكتبة المستنصرية، ومكتبة المجمع العلمي العراقي.

الفهرس

5–6 المقدمة
7–73 توطئة

أحوال بغداد

75–80 الباب الأول: في فضائلها
81–92 الباب الثاني: في بنائها وبانيها وجسورها
93–107 الباب الثالث: في بيان البيوت القديمة من ذوي العلم والسيف والقلم والتجارة في بغداد في عصرنا هذا (أي عصر المؤلف)
108–122 الباب الرابع: في بيان عشائرها الجسيمة
123–151 الباب الخامس: في بيان العلماء الذين (أدرك المؤلف) عصرهم من العراقيين
152–156 الباب السادس: في بيان أنهار بغداد التي كانت في الجانب الشرقي منها والغربي

أحوال البصرة

158–164 الباب الأول: في بيان مدينة البصرة القديمة والجديدة ومسافتها وبنائها وبانيها وبعض أحوالها
165–171 الباب الثاني: في بيان بيوت البصرة الرفيعة
172–184 الباب الثالث: في بيان أنهار البصرة
185–186 الباب الرابع: اسماء بعض المحال الواقعة في جنوب البصرة

أحوال نجد

188–198 الباب الأول: في بيان موقع نجد وحدوده وبعض أحوال أهله مع بيان جزيرة العرب، وما فيها من البلاد والمحال
199–204 الباب الثاني: في بيان بلاد نجد ومحاله، وما يتصل به من المحال والبلادان والقرى
205–206 الباب الثالث: في بيان بعض أبعاد المسافات الواقعة بين المحال المذكورة
207–210 الباب الرابع: في بيان عشائر نجد وغيره من القبائل العربية من سكان البادية
211–230 الباب الخامس. في بيان نسب ابن سعود أمير نجد مع بيان بعض أحواله ومنشأه، ورسم حكومته، وصور مكاتباته إلى أهل بلاد نجد
231–243 الباب السادس: في بيان علماء نجد، وبعض الحوادث الواقعة فيه

244–267 خاتمة

شكر وإمتنان

لا يسعني بعد الإنتهاء من طبع هذا الكتاب إلا تقديم الشكر والإمتنان إلى الذين آزروني في تصحيح، وإخراج هذا السفر القيم. وأخص بالذكر منهم سيادة الشيخ عبد القادر باش أعيان العباسي، الذي ترك بين يدي النسخة الأصلية، التي حققها المرحوم الشيخ ياسين باش أعيان. وكذلك جهود نجل المرحوم العلامة السيد ناصر النقشبندي، وكذا امناء مكتبة المجمع العلمي. وأيضاً السادة أبو صادق، والمحقق الاستاذ كوركيس عواد، والاستاذ مشكور الاسدي، والاستاذ عبد المجيد محمود، وكل منْ آزرني من المنضدين والطباعين وغيرهم. اسأل الله لهم العمر الطويل لخدمة العلم والأدب.

دار

منشورات البصري

بغداد 1962

علي البصري